إرنست ويليام هورنونج

طبيب الجريمة

ترجمة أسماء الطيفي

طبيب الجريمة

تأليف
إرنست ويليام هورنونج

ترجمة
أسماء الطيفي

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

طبيب الجريمة

إرنست ويليام هورنونج

The Crime Doctor

Ernest William Hornung

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٢١٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- الطبيب الذي عالَج نفسه	٧
٢- الهراوة	٢٩
٣- حالة مستعصية على الشفاء	٤٩
٤- المفتاح الذهبي	٧١
٥- ناظر مدرسة بالخارج	٩٣
٦- الممسوس	١١٥
٧- مساعد الطبيب	١٣٧
٨- القاتل الثاني	١٥٥

الفصل الأول

الطبيب الذي عالَج نفسه

١

على مدارِ مسيرته المهنية الناجحة في منصب وزير الداخلية، أجرى السيد الرفيع المقام توبام فينسون الكثيرَ من الإصلاحات ونال نصيبَه من المدح والقدْح على ذلك؛ شأنُه شأنُ بقية المصلحين. وانتهج طرائقَ تُخالف طرائقَ الوزراء الدائمين؛ وبينما جعلته شجاعتُه البالغةُ محبوبًا لدى الشباب، كان ذا شخصية قوية جدًّا ومؤثِّرة أثارت ردودَ فعل قويةً لدى كلٍّ من حلفائه وخصومه، ولم تترك مجالًا للفتور تجاهه. اتصف بازدرائه الدائم للتقاليد؛ ما أثار حفيظةَ كلا الحزبين على حدٍّ سواء، إلى جانب أن ذلك قاده إلى العديد من المغامَرات الشخصية التي كانت مثل النَّفَس الذي لا يستغني عنه الوزير العنيد، غير أنها كلما خرجت إلى العلنِ كانت تعرِّضه لنقدٍ شِبه جماعي. ولحسن حظه أن غالبية تصرفاته الطائشة لم يُكشف الغطاءُ عنها في أثناء تقلُّده هو وأفراد حكومته مناصبَهم؛ إذ كان في أقصى حالاته غيرِ التقليدية أثناء تنفيذه تكتيكاتِه المبتكرةَ التي ترتكز عليها شهرتُه، أو حينما يكون بصحبة ذلك الرجلِ ذي الروح المشابهة له في الميول والتفكير، والذي كان له دورٌ كبير في إنشاء هذه التكتيكات في الأساس.

كان فصلُ الخريف في أوَّله عندما تعارف هذان الرفيقان الاستثنائيان. وامتاز الطقس باعتداله في تلك الليلةِ؛ وهو ما أغرى السيد فينسون بالعودة من وستمنستر إلى ميدان بورتمان سائرًا على قدميه. وما إن بلغ عتبةَ بابه حتى سمع أحدًا يهتف باسمه من مسافةٍ غير بعيدة. كان الصوت أجشَّ يفيض إثارةً خفَّف التحفُّظ حدَّتها؛ إذ كانت الساعة منتصفَ الليل والهدوء يسود الميدان؛ فدار السيد فينسون على عقبيه ليجد شابًّا يركض نحوه، عابرًا الطريق، وتتدلى من يده المدودة سلسلةٌ ذهبية.

قال الشاب لاهثًا: «ساعتك، يا سيدي، ساعتك!» وأظهر ساعةَ جيب بغطاء، بصليةَ الشكل، في أحد جانبيها حروفٌ منقوشة، وفي الجانب الآخر شارة عائلة فينسون.

هتف وزير الداخلية، وهو يتحسَّس جيبَ صدريته الفارغ قبل أن يصدِّق ما تراه عيناه: «يا إلهي! أين عثرتَ عليها بحق السماء؟ كنت أضعها في جيبي عندما غادرتُ مبنى الوزارة.»

أجاب الرجل الشاب فيما يتروَّحُ بقبعة الأوبرا الخاصة به كالمِروحة: «لم أعثر عليها. لقد أخذتها للتو ممَّن سرقها منك.»

سأل وزير الداخلية بإثارةٍ لا تناسب رجلًا سياسيًّا: «من؟ أين؟»

أجاب الشاب: «شقيٌّ مسكين، في شارع نورث أودلي، حسبما أظن.»

قال فينسون بانفعال: «هذا صحيح! لقد اعترض طريقي هناك، عند منعطف ميدان جروسفينور تحديدًا. وقد أخذتني الشفقة بذلك الوغد وأعطيته نصف كراون!»

ردَّ الشاب: «على الأرجح سرق ساعتك بينما كنتَ تتفقَّد محفظتك.»

وربت الشاب على جبهته الجذابة، التي التمعت في الضوء المنبعثِ من فتحة الباب، بمنديل حريري أبيضَ، أخرجه لتوِّه من جيبه.

سأل فينسون وهو يفحص الشابَّ من رأسه إلى أخمص قدميه: «لكن أين كنتَ أنت؟»

أجاب: «كنتُ قد أتيت توًّا إلى الميدان. آنذاك كنت أنتَ قد غادرت المكان. ووجدت النشَّال يتفقَّد غنيمتَه فيما يودِّعك بمباركاته.»

سأل السيد: «وأين هو الآن؟ هل سمحت له بالإفلات من قبضتك؟»

ردَّ الشاب: «يُخجلني أن أقول إنه أفلتَ من قبضتي؛ لكن دون أن يهرُب بساعتك!» بذلك ذكَّر مالكَها بحماسة زائدة. أضاف: «استطعت أن أخمِّن هويةَ مالك هذه الساعةِ من الشارة والأحرف الأولى المنقوشة، وقرَّرت التحققَ من ذلك بدلًا من ملاحقة اللص.»

أعرب وزير الداخلية عن امتنانه لما فعله الشاب، في استحسانٍ جاء متأخرًا، وقال: «أحسنتَ صنعًا. الصحف تأتي على ذكري كثيرًا بحكم منصبي، ولا داعيَ لأن تظهرني أيضًا بمظهر ساذَج خارج أوقات العمل. تعالَ وادخل، من فضلك، ودعني أكرمك حسبما يسمح هذا الوقت المتأخِّر من الليل.»

أمسك السيد فينسون بالشاب الذي أعاد إليه ساعتَه من ذراعه، وأرشده إلى رَدهة داخلية أنيقة؛ حيث انتظرتهما مرطبات ووجبة خفيفة معَدة بعناية على طاولة جانبية، وبدت نيران المدفأة المتوهِّجة مغريةً مثل المقاعدِ المريحة القابعة بجوارها. وكانت زجاجة

وكوب كبير من شامبانيا عالية الجودة موضوعَين جانبًا بالإضافة إلى المحار والكافيار؛ وبعد أن شرح السيد فينسون لمضيِّفه بأنه لم يسمح مطلقًا لأي أحدٍ بأن يجلس مستيقظًا في انتظاره إلى وقتٍ متأخر من الليل، فتح الزجاجة بيدٍ متمرسة، وقاد عملية الانقضاض على الطعام والشراب بحماسة صبي صغير ومِزاج رائق.

في الوقت نفسه كان السيد وضيفه قد انهمكا في دراسةِ أحدهما الآخر. تبيَّن أن الوزير— الذي كانت شخصيته المفعَمة بالقوة مادة مناسِبة لأقلام رسَّامي الكاريكاتير المعاصرين الحذرين — كان مثلما قدَّمته الرسوم المتحركة المعاصرة تمامًا؛ ولم يكن هناك شيءٌ غير متوقَّع في شخصيته؛ لأن حيويته الصبيانية كانت صفةً أفرطت الصحافة في استغلالها. كما اتَّسم بصراحة شديدة، تُخفِّفها نظرةٌ طويلة عادةً ما تكون ثاقبة، لكنها لا تُخفي صراحته تمامًا، وكان بوسعه تعديلُ طريقته في الحديث لتكون بلهجةٍ رسمية رنَّانة أو عفوية عامية حسب الحاجة. لكن ما أدهش ضيفَه هو منزله لا شخصيته. فقد جمع منزلُه بين الفخامة والذوق الرفيع في مزيج مثالي غيرِ مألوف بالمرَّة ممَّن يجاهرون بانغماسهم في الملذَّات ولم ينالوا من ذلك سوى ادعائهم فحسب؛ فهذه الصفة في الرجال العمليِّين والسياسيِّين المنضالين لهي علامةٌ أخرى على ما يتمتَّعون به من طاقات هائلة. وربما كانت قِطع الأثاث القديمة الثمينة، وزجاجة الشامبانيا القديمة المتلألئة من كل الزوايا، والأواني النحاسية التي تلمع في ضوء المدفأة، والنقوش القليلة والدقيقة في جدارية موريس ستنال استحسانَ طالبٍ في كلية الفنون، وربما كانت وسائل الراحة ستحوز رضا فتًى مُدلَّلٍ حديثِ العهد بالرفاهية.

أشبعت هذه المظاهرُ رضا الشاب الغريب من كل النواحي؛ لكنه بدا داخل منزل السيد فينسون أكبرَ سنًّا مما أوحى به مظهره. كان قد نزع معطفه الطويل فيما كان مضيِّفه يفتح زجاجة الشامبانيا، وأبرزت حلَّتُه المسائية نحافةً في الجسد والأطراف لرجلٍ في منتصف العمر. أما شَعره الداكن المجعَّد فكان الشيب قد بدأ يزحف إليه عند الصدغين؛ وعلت إحدى أذنيه منطقةٌ دائريةٌ صغيرةٌ من الشَّعر الفضي تشبه عُملة فلورين جديدة. كان وجهه الحليق شاحبًا ومتلهفًا وجادًّا. واتَّقدت عيناه الداكنتان كشعلتين تحت حاجبيه الكثَّين، ولم يؤثِّر في تميُّزهما أو حدَّتهما حَوَلٌ لا تخطئه العينُ رغم ضآلته. هكذا على الأقل بدا لتوبام فينسون، الذي كان يتميَّز حقًّا بقدرةٍ رائعة على الحكم على الوجوه، لكنه نادرًا ما رأى وجهًا أصعبَ في قراءته من هذا الوجه.

قال، فيما يقطع طرَف السيجار الذي كان عبثًا قد أشاد بنوعه الفاخر: «من المؤسف أنك لا تُدَخِّن. وزجاجة الشامبانيا تلك أيضًا! لم تلمسها، ولو كنت مكانك ما تركتها.»

حينها هبَّ الشاب واقفًا. وقال بانفعال: «لا أدخن أبدًا، ولا أعاقر الخمر إلا فيما ندَرَ؛ لكني أمام ضيافتك السخية هذه لا يسعني إلا أن أكون صادقًا معك يا سيد فينسون كما لم أكن من قبل. لم أفقد أثرَ النشَّال عن طريق الخطأ أو لأنه يفوقني سرعة. بل أنا ... أنا من صرفته عن عمد.»

استرخى السيد فينسون في مقعده المريح للغاية، بابتسامةٍ على محيَّاه، غير أن عينيه لم تتخليا عن حذرِهما. كانتا صارمتين على عادة قومه، لكنهما تتقدان بذكاء شديد، بما يتناسب مع وضعه كزعيم جماعته الفكرية وأهمِّ عضوٍ فيها.

سأل السيد بنبرة تخمينية: «هل اختلق صديقنا قصةً مأساوية ليفلِت من قبضتك؟» وأقرَّ أنه لم يرَ رجلًا بائسًا لهذه الدرجة من قبل.

أجاب الشاب: «لا يا سيد فينسون. كنتُ سأسمح له بالذهاب إلى حالِ سبيله على أي حال، بعدما أسترد ما سرقه، تماشيًا مع مبادئي.»

هتف وزير الداخلية: «مبادئك!» لكنه لم يتخلَّ عن رباطة جأشِه السياسية؛ وإنما اكتفى برفع حاجبيه كما كانت عادته المعروفة.

واصل ضيفُه بنبرةٍ أكثرَ صراحة: «كلُّ ما في الأمر أن لديَّ آرائي الخاصةَ فيما يتعلق بالجريمة والعِقاب، إن أذِنت لي أن أشرحَها، ولو على سبيل الإيجاز، فقد تجد فيها مسوِّغًا لتصرُّفي على الأقل. وإن وجدت سلوكي غيرَ مُسَوَّغٍ بالمرَّة، وإن كنتُ قد وضعت نفسي تحت طائلة القانون، فها هي ذي هويتي يا سيدي؛ وها أنا ذا أمامك على استعداد لأتحمَّل عواقبَ ما فعلتُه.»

انحنى وزير الداخلية إلى الأمام وتناول البطاقةَ من اليد الممدودة الحسَّاسة، القوية كالصوت الذي كان يستمع إليه للتو، ولكنها خلَت هي وصوته من أيِّ توتُّر. مرةً أخرى رفع عينيه وتطلَّع في الوجهِ الذي ازداد شحوبًا فوق شحوبه والعينين الداكنتين المتأجِّجتين من حماستهما المكبوتة. لم تكن حماسةً متولِّدة من رحم المعاناة؛ بل بدا للسيد فينسون أن أمامه صِنفًا جديدًا لمتعصِّب غريبِ الأطوار؛ لذا حمل نفسَه حَمْلًا على المحافظة على أسلوبه الدبلوماسي وابتسامته.

قال: «حسبما أرى، أيها الطبيب دولار، فإنك أحدُ جيراني، وتسكن على بُعد مسافةٍ قريبة في شارع ويلبيك. هل لي أن أعتبرَ أن خبرتك بصفتك طبيبًا استشاريًّا هي منشأ الآراء التي ذكرتها؟»

ردَّ الطبيب دولار: «لا، من خبرتي كطبيب نفسي، إذا أمكنني أن أعطيَ نفسي هذا اللقب، على سبيل التجوُّز.»

سأل السيد فينسون: «إلى أي مدًى يمكن أن تصدُق مقولتك أيها الطبيب؟»

أجاب الطبيب: «من منطلقِ أن كل الجرائم ما هي إلا شكلٌ من أشكال الجنون.»

قال السيد: «إذن فأنتَ تلقِّب نفسَك بـ...»

أنهى جملته المبتورةَ بنبرةٍ تتوارى عن الاستجواب الصريح بأقصى قدْر ممكن من البراعة كما هي عادة خطيب متمرِّس.

أجاب الطبيب دولار: «بل ألقِّب نفسي بالمصطلح المعروف — الذي سيقرِّره الزمن باعتباره جزءًا من تخصُّص علم النفس — وهو طبيب الجريمة.»

سأل السيد: «أهذا فرعٌ لم يعترف به تخصُّصك بعدُ؟»

أجاب الطبيب: «لم يعترف به بعدُ تخصصي ولا القانون، يا سيد فينسون؛ لكنهما سيصلان إلى هذا الاعتراف حتمًا، مثلما نقبل التطورات العلمية الحديثة الأخرى في زمننا هذا.»

استفسر السيد: «لكن هل برهنتَ على أن هذا الفرع جزءٌ من العلم أيها الطبيب؟»

ردَّ الطبيب دولار: «جاري العمل على ذلك»، وكانت نبرته واثقة متحفظة من شأنها إثارةُ إعجاب شخصٍ يدرك أهميةَ هذه الصفة في نفسه والآخرين. أضاف: «لقد اتخذتُ الخطوةَ الأولى؛ لو لم يكن الوقت متأخرًا كثيرًا لأخبرتك بكل شيء عنها. أنتَ وزير داخلية إنجلترا، أكثر شخص أتمنَّى أن أقنعه بآرائي. لكنني أبقيتك مستيقظًا فترةً طويلة. إن دبَّرت لي موعدًا ...»

قاطعه السيد فينسون فيما استرخى أكثرَ في مقعده: «لا بأس. لا يزال الليل في أوَّله، وكذا سِيجاري. من فضلك أخبرني بكلِّ ما تريد قوله، ويمكنك التحدُّث بحريةٍ وانفتاح، فلن أفشيَ سرَّك. أنت تثير اهتمامي أيها الطبيب دولار؛ كما أنني لن أنسى المعروفَ الذي أسديته إليَّ.»

ردَّ الطبيب بسرعة: «لا أرغب في استغلال عرفانك بالجميل. لكن هذا حُلم قديم راودني منذ سنوات كثيرة، أن أحدِّثك يا سيدي عن عملي، وكيف حملني القدَر على السعي في هذا

الطريق والسبب وراء ذلك تحديدًا. لم أخطِّط للاتجاه للطب كما ترى؛ فأهلي رجالُ جيش عهِدوا الإتيانَ بجرائمَ على الحدود فيما مضى، ولم يضعوا السلاحَ منذ ذلك الوقت. كان أبي ضابطًا مجندًا مفوضًا في شبه جزيرة القرم؛ وانضم إلى كتيبة حمَلة البنادق الاسكتلندية. وانضممتُ أنا إلى فوج مشاةِ أرجيَل وساذرلاند قبل عام من حرب البوير الثانية في جنوب أفريقيا؛ حيث، بالمناسبة، أتذكَّر رؤيتك مع فرسانك المتطوعين.»

«قضيت هناك ثمانية عشر شهرًا دون أن أصاب بألمٍ في الرأس أو خدشٍ في الجسد.»

ردَّ الطبيب: «ليتني كان بوسعي أن أقول القولَ نفسَه، يا سيد فينسون. فقد أُصبت بطلقةٍ اخترقت الرأس، عند نهر مودر، بعد عشرة أيام من وصولي إلى هناك.»

سأل وزير الداخلية وهو يرفع حاجبيه قليلًا: «أقلتَ إنها اخترقت الرأس؟»

تحسَّس الطبيب الرقعةَ الفضية في شَعره الداكن البادي الصحة. وقال: «هنا الموضع الذي انسلَّت منه الطلقة خارجةً من رأسي؛ وليس بمقدور أيِّ سلاح التصويبُ بهذه الدقة باستثناء بندقيةٍ من طراز ماوزر! وهكذا خلَّفت الطلقة لديَّ حوَلًا بسيطًا كما ترى؛ وفيما عدا ذلك، استرددت عافيتي في غضون بضعة أسابيع، لكن من الناحية الجسدية فقط.»

هتف الوزير: «رائع!»

تابع: «تعافيتُ جسديًّا وعقليًّا أيضًا — من وجهة النظر الطبية — ولكن ليس أخلاقيًّا يا سيد فينسون! لقد حدث لديَّ خللٌ دقيق، أو ضغطٌ في موضعٍ ما، أو أُصبتُ بشكل من أشكال الشلل الموضعي. ولا أبالغ عندما أقول إن الطلقة حوَّلتني إلى شخصٍ في قمة الخِسة! كنت أتصرَّف مثلَ الآلة بلا أدنى تفكير، لكني لن أخوض في التفاصيل الآن، إن كنت لا تمانع ذلك.»

هتف وزير الداخلية بودٍّ غير متعمَّد: «إطلاقًا، أيها الطبيب العزيز! قد أثرتَ اهتمامي بدرجةٍ غير عادية. أعتقد أنه يمكنني تخمينُ ما حدث تاليًا. لكني أريد الإصغاءَ إلى كل كلمة تودُّ إلقاءها على مسامعي، لا إلى ما تريد الاحتفاظَ به لنفسك.»

واصل الطبيب: «أفسدَت الطلقةُ بوصلتي الأخلاقية في جزئيةٍ محدَّدة غريبة؛ لكني أحمدُ الرب على أنني استطعت إدراكَ السبب مع أنني عانيت آثارَ هذا الأمر معاناةً تعجز الكلمات عن وصفها. بعد ذلك وصلت إلى اختيار إما الانتحار أو العلاج بأي وسيلة ممكنة. فقررت السيرَ في طريق العلاج أولًا. واختصارًا ... شُفيتُ.»

سأل الوزير: «بسهولة؟»

ردَّ الطبيب: «لا. سيحل بي الهلاك إن كذبت، لكن لن أنسبَ إلى الأطباء الاختصاصيين اللندنيين أيَّ فضل! لقد أعطيتُ كثيرين منهم قدرًا كبيرًا من المال، بدءًا من أطباءَ معروفين يحملون لقبَ بارون أو فارس وانتهاءً بالمغمورين منهم علَّني أجد حلًّا لِعلَّتي. لكن لم يخجل المتخصصون منهم من أن يدُسوا في جيوبهم جنيهين (وفي إحدى الحالات ثلاثة جنيهات) ليخبروني بكل أدب أنني مجنون لاعتقادي أن هذه هي مشكلتي!»

سأل الوزير: «وماذا حدث في النهاية؟»

أجاب الطبيب: «في النهاية، التقيت شخصًا واسعَ الأفق، لكن ليس في إنجلترا، ولو قلتُ إنه فتح عقلي بالمعنى الحرفي للكلمة، لربما كان كلامي مبالغةً، لكن أحب أن أكتفيَ بهذا الحد. لقد فتَّش في جُمجمتي، مخاطِرًا بسُمعته في مقابل حياتي، لكن خرج كلانا رابحًا.»

سأل الوزير: «هل صرت سيدَ قرارك منذ ذلك الحين؟»

طرح توبام فينسون سؤاله بجدِّية؛ ولو كانت هناك عينان متمرِّستان مثل عينَي السيد فينسون لاستشعرتا تغيرًا كبيرًا في سلوكه، أو نظرات عينيه، أو في أي شيءٍ يخصُّه. لكن الطبيب دولار لم يكن يتصف بقوة الملاحظة. إذا أراد المرء أن يكون مستبصرًا فعليه أن يتطلع إلى أعلى، ولكي يحقق ذلك لا بد له من أن يغفَل عما تحت قدميه مباشرةً. مناط الأمر هو تغيير المسار الذهني. ففي قمة حماسته كان الطبيب الحالِم يحلِّق في الفضاء ويفقد الصلة مع الوزير الجالس في مقعده الوثير.

أجاب الطبيب ببساطة شديدة: «لقد شُفيت. كان العلاج مذهلًا، لكنه لم يكن معجِزًا. فأي شخص يمكنه الإتيانُ بمثله إذا كانت لديه الجرأة والمهارة اللازمتان. لكن بدا لي العلاج جديدًا؛ إذ كادت الاحتمالات التي يطرحها تكون مخيفةً من فرطِ ما كانت مذهلة. يجب ألا أتحدث عنها؛ إذ لا تزال — إلى حدٍّ كبير — مجرَّد احتمالات. لكني قرَّرت أن أكون مؤهلًا لتقديمِ ذلك العلاج، لأكون — على الأقل — في وضعٍ يسمح لي بعلاجِ الآخرين مثلما عُولجت. كنتُ قد تركت الجيش بالفعل؛ لكن نضالي لم يكن قد انتهى بعد. كنت سأكافح الجريمةَ كما لم يكافحها أحدٌ من قبل!»

شكَّلت الاستراحةُ المؤقَّتة من الكلام تحديًا للمستمع أن يردَّ على ما سمعه. لكنه لم يتكلم، فأنهى الطبيب خُطبته الرنانة بنبرةٍ متواضعة، قائلًا: «درست في جامعة سانت ماري على يدِ متخصصين معروفين. كما درست في برلين على يدِ وينترشليدن، وتتلمذت على يدِ ينس جِنسِن في ستوكهولم. وقبل أن أبلغ الثلاثين كنت قد شيَّدت عيادتي في شارع ويلبيك، ولا أزال هناك حتى اليوم.»

قال وزير الداخلية بابتسامةٍ حذرة فاترة: «لكن ... لكن تظل الاحتمالات مجرَّد احتمالات!»

أجاب الطبيب: «هذا صحيح من الناحية الجراحية؛ فقد انقدتُ وراء حالتي الشاذة. عندما تحيل إصابةٌ مباغتة أخرى رجلًا أمينًا إلى أحمقَ، أُدرك إلى من آخذه؛ لكن الإصابة العادية تسري في الجسد تدريجيًّا وبخفاء على نحوٍ يصعُب علاجه جراحيًّا. أما الحالات الخِلقية فهي، بالطبع، ميئوسٌ منها من هذه الناحية. لكن هناك وسائلُ علاجية لما أعتبره في يومنا هذا أسوأ صِنف من المجرمين، وهم المجرمون المنخرطون في الجريمة بحسب خِلقتهم.»

قال السيد فينسون بابتهاج: «ليتني كنت أعرف بعضَ تلك الوسائل! ولكن هلَّا تخبرني، من وجهة نظرك، ما هو أسوأ صِنف من المجرمين المجبولين على الجريمة في وقتنا الحاضر؟»

أجاب طبيب الجريمة دون أدنى تردُّد: «أفراد المجتمع الراقي.»

سمح المضيِّف بأن تسري الدهشةُ إلى عينيه مرةً أخرى.

وسأل: «ألا ترى أن أفكارك صادمةٌ نوعًا ما، أيها الطبيب دولار؟»

أجاب الطبيب: «ألسنا في عصرٍ مثيرٍ للذهول يا سيد فينسون؟ فبادئ ذي بَدْء، يتعيَّن على مجرم القرن العشرين، بما يمتلِكه من هاتف وسيارة ذات محرِّك بالإضافة إلى موادَّ شديدةِ التفجير وأدوات علمية لأغراضه المهنية، أن يكون متعلمًا؛ ويؤسفني أن أقول إن عددًا متزايدًا من المتعلمين تدفعهم الحاجة إلى الجريمة دفعًا وإلا سيعيشون فقراءَ طوال حياتهم. إنها حلْقة مفرغة، ولا بد أنك توافقني في هذا، أليس كذلك؟»

أجاب: «هذا إن استطعتَ التدليل عليه.»

عقَّب الطبيب: «ألا يكاد هذا الكلام يكون حقيقةً بديهية، يا سيد فينسون؟ عندما تتقاضى سيدات المجتمع، اللاتي يكسِبن قوتَ يومهن من لعِب البريدج والمتاجرة في تذاكر الدخول إلى القصور الملكية، رسومًا باهظة من أجل تقديم الأخريات إلى البلاط الملكي، وثروةً صغيرة من أجل إدخال عائلة غير متوقَّعة في دائرتهن الاجتماعية، لا بد أن يكون هناك سببٌ ما لهذا الأمر، بخلاف فسادهن الأخلاقي. فهؤلاء السيدات لسن أكثرَ فسادًا من الناحية الأخلاقية مني، لكن ثروتهن قد تكون أقلَّ، ومتطلباتهن بالتأكيد أضعافُ متطلباتي. فالجشع ليس القوةَ الدافعة لأفعالهن؛ وإنما ببساطة عدمُ توافر الأموال اللازمة، من وجهة نظرهن. يزيد المجتمع ويتضاعف في كل النواحي، عدا المال، كما يتوارث أذواقَه الباهظةَ

الثمن دون أن يتوارث الوسائلَ الضرورية لإشباعها. وهكذا صارت لدينا سيداتُ مجتمع يتقاضين تعريفةَ تقديم أخريات للمجتمع الراقي، وأعضاءُ أندية كبرى على استعداد دائم للدخول في صفقةٍ على حصان أو سيارة أو أي شيء من شأنه أن يجلِب لهم بعضَ المال. هناك خطوة صغيرة تفصِل بين هذا النوع من الأنشطة وبين الخدعِ الاحتيالية، وبين الخدع الاحتيالية والجُرم الصريح. لكنها خطوة يخطوها عادةً أولئك الذين ينتمون إلى الصِّنف الذي أعنيه، وليس ضروريًّا أن يفعلوا ذلك عن وعيٍ منهم. وهنا تأتي الحاجة إلى تدخُّل طبيب الجريمة.

سأل السيد: «بأن يباشر عمليةَ توعيتهم؟»

أجاب الطبيب: «بأن ينقذَهم من أنفسهم قبل فوات الأوان؛ وفي تلك الحالة لا تكون الوقايةُ أفضلَ من العلاج فحسب، وإنما مبدأ بالغ الأهمية في الطب الحديث من جميع النواحي الأخرى. سيُبعد الصالحين منهم، يا سيد فينسون، عن السِّجن بأي ثمن، ولو حوَّلتَ السجون إلى منازلَ ريفية وزوَّدتها بفُرش وثيرة ووسائل ترفيه أخلاقية مدى الحياة!»

ابتسم وزير الداخلية مرةً أخرى، لكن ببعض الإشفاق وقدْرٍ من التحفُّظ أقلَّ جدًّا هذه المرة. فقد بدأ يرى في كلام الطبيب ما يشبه المنهج، بعدما حسِبه جنونًا تامًّا في البداية، وبدأت تجذب انتباهه وجهةُ نظره الجديدة والمُسلية. لكن ما كان للهجوم على منظومة السجون، ولو على سبيل الهَزل الخيالي، أن يمضيَ دون معارضة من قِبَله، وهو نصيرها الرسمي.

قال الوزير: «أُنشئت السجون، يا عزيزي الطبيب دولار، من أجل منفعةِ أولئك الذين يحرصون على البقاء خارجها لا الذين يصرون على دخولها مرةً تلو الأخرى. الوضع الأمثل، بالطبع، هو تحقيقُ المنفعة لكلا الطرفين؛ وهذا ما نستهدفه طوال الوقت. ليس خطؤنا أن من يدخل السجن يصبح مستهدفًا للأبد؛ كان الأجدر به أن ينأى بنفسه عن هذا الوضع في الأساس.»

هتف الطبيب المتحمِّس: «لقد وضعت إصبعك على موضعِ عوار منظومتك! لمَ يجب أن يكون مستهدفًا في الأساس؟ لمَ يُجبَر مجرمٌ هاوٍ، قد لا يقدِم على ارتكاب أي جريمة ثانية، على أن يصبح مجرمًا محترِفًا؟ هذه الطريقة لن تَمحيَ جُرْمه؛ فحتى شَنْق القاتل لا يعيد الضحية إلى الحياة، والاحتمالات تقول إنه قد لا يرغب في قتلِ شخصٍ آخرَ أبدًا. من

ناحيةٍ أخرى هناك جرائمُ خطيرة كثيرة كان من الممكن سَتْرها فلا تفضي بالمجرم إلى حالٍ أسوأ مما كان عليها لحظةَ ارتكابها!»

انهمك السيد فينسون في صياغة توبيخ ساخر باسم الأخلاق والشَّريعة المُوسَويَّة؛ لكنه عَدَلَ عن السخرية غيرَ آسفٍ من أجل محاصرة خَصمه.

قال: «آمُل، أيها الطبيب دولار، ألا تكونَ وظيفةُ القِسم الجديد التعاونَ للتستُّر على الجريمة والمجرمين، أليس كذلك؟»

أجاب الطبيب المتحمس وقد بدأت علاماتُ الإنهاك تظهر على وجهه: «من المستحيل تحديدُ نطاق عِلم لا يزال بعدُ جنينًا. عندما تشتهر فكرةُ «طبيب الجريمة» — وهذا ما سيحدث — أراه يؤدي دورًا مرنًا بتوافقٍ تامٍّ بين تخصُّصه والقانون. سيكون ضابطًا وقائيًّا، ومحققًا خاصًّا، وكاهن اعتراف في آنٍ واحد، بل ربما يصير شريكًا متميزًا بعد وقوع حادثةٍ مروعة. لكن الريادي المتواضع لا يمكن له أن يأمُل في الحصول على كل هذه الصلاحيات في البداية؛ فرصتُه الوحيدة هي أن يعمل في الخفاء وفقًا لتوجُّهاته، وأن يحكِّم عقلَه، ويتحمَّل المخاطرَ مثلما فعلتُ الليلة. إن استطاع الطبيب أن ينقذ أحدًا من خلال التَّستر عليه فليفعل، ولتذهب التوقُّعات إلى الجحيم! إن استطاع أن يحول دون ارتكابِ الجريمة دون فضحِ المجرم كان خيرًا للجميع، وإن أخفق فلا يلومنَّ إلا نفسه! ليكن هو القانون لمريضه ولنفسه، ولكن فليتحمَّل المسئولية نيابةً عن مريضه إن أثبت القانون الذي وضعه عدمَ فاعليته.»

سأل الوزير: «أتعني أنك ستعالج الخللَ في الشخصية بنفس الطريقة التي يكرِّس بها الأطباء العاديون والأفراد أنفسهم لعلاج الجسد والروح؟»

أجاب الطبيب: «سيئول الأمر إلى ذلك يا سيد فينسون. أعلم أنه نظامٌ كبير، ولا أتوقَّع أن أرى ثماره في حياتي. سيتطلب النظام رجالًا أفضلَ مني، كما سيحتاج إلى عدد كبير منهم، لمجرد أن يبدأ في العمل على النطاق الذي أحلُم به. لكن هذه هي الفكرة تحديدًا. لم يُفِد العِقاب قَط في منع الجريمة؛ فما نريده هو أن نفهم طريقةَ تفكير المجرم ودوافعه «قبل» أن يتفاقم الأمر، بل قبل أن يصير هناك مجرمٌ حقيقي في القضية من الأساس.»

عقَّب الوزير: «لقد أفصحتَ عن أفكارك بصورةٍ منطقية أيها الطبيب دولار.»

كانت نبرة الوزير أقلَّ حماسة من نبرة الطبيب، ولكن ذلك كان ينطبق على نبرته فحسب. بدا أن عينيه الثاقبتين تَسبُران غَوْر الطبيب لتصلا إلى خطَّته نفسِها وتبحثا في مزاياها بالحماسة نفسِها التي طُرحت بها. وحدَهم الأشخاص ضيقو الأفق هم من

يسخرون من الحماسة الصادقة مهما بدت جامحة أو طائشة. لكن توبام فينسون لم يكن شخصًا ضيقَ الأفق؛ وإنما كانت له، هو الآخر، شطحاتُه الجامحة في فترةِ شبابه ولم يفلِح منصبُه في تحجيمه تمامًا. كان الرجل الرياضي والرجل المُحتال داخِله سرعان ما يُرى انعكاسهما في شخصٍ آخر وأن تُسمع أصواتهما على شفتيه. لكن الحماسة لا تستلزم بالضرورة المخاطرةَ بالعقل. فلا تزال رايةُ الحيادية خفَّاقةً فوق ذلك الحصن.

سأل توبام فينسون فيما يدفع نفسَه دفعًا إلى العودة إلى الحقائق: «ماذا عن عيادتك؟»

أجاب الطبيب: «إن بناء روما استغرق وقتًا أقصرَ من افتتاح عيادة في لندن، بواسطة رجل مغمور يرسم مسارًا جديدًا لنفسه.»

عقَّب الوزير: «حقًّا لا أستغرب ذلك. فمن ذا الذي سيأتيك ليلتمسَ النصح بشأن نزعةٍ لديه للقتل، أو حيلةِ تلاعُب في تبرعات المصلين؟»

ردَّ الطبيب: «في المثال الأول ستأتي عائلةُ المريض على الأرجح؛ ثم قد ترسل المريضَ لأراه تحت ذريعةٍ أخرى.»

سأل الوزير: «وما طريقةُ العلاج؟»

أجاب الطبيب: «ستعتمد على حالةِ المريض. فلا يعلم جميع المرضى أنهم يخضعون للعلاج لظهور أعراضِ الجريمة عليهم. يظن غالبيةُ المرضى أنهم في دار رعاية عادية.»

دفعت الكلمة وزيرَ الداخلية إلى القفز على قدميه في نهاية المطاف؛ إذ لم يعُد قادرًا على المداهنة بواسطة الإيماءات والابتسامات، وهتف: «دار! أتقصد إخباري بأنك تُدير دارَ رعاية للمجرمين غير المدانين، أيها الطبيب دولار؟»

أجاب الطبيب: «بل للمجرمين المحتملين يا سيد فينسون. لا أستضيف في الوقت الحالي مريضًا مطلوبًا من قِبَل العدالة.»

سأل الوزير: «وأين تقع هذه العيادةُ الاستثنائية إذن؟»

أجاب الطبيب: «في منزلي الخاص في شارع ويلبيك.»

عقَّب الوزير: «إنها على بُعد بضع مئات من الياردات من هنا، ومع ذلك لم أسمع بوجودها إلا الآن!»

قال الطبيب: «بوسعي ملاحظة ذلك. هذا ليس خطئي يا سيدي. لقد بذلت غايةَ وسعي لأُعلمك بوجودها.»

سأل الوزير: «كيف؟»

ردَّ الطبيب: «بأن كتبت لك مرارًا لأعرفك بنفسي وعيادتي يا سيد فينسون.»

قال الوزير: «لم أرَ خطاباتك إذن. فوزير الداخلية يستهدفه كلُّ من هبَّ ودبَّ من الكُتَّاب الغريبي الأطوار. وقد وظَّفت الكثير من الشباب للتعامل مع هذه المضايقات تحديدًا. كان ينبغي أن ترتِّب موعدًا لمقابلتي وتقدِّم نفسك لي، أيها الطبيب دولار.»

ابتسم الطبيب؛ إذ لم يسَعْه إلا أن يأخذ تعليقَ الوزير على محملٍ شخصي. وازدادت ابتسامته عذوبةً تحت تأثير النبرة اللطيفة التي أعقبت تلك الكلمةَ التي خرجت بلا تمحيص من الوزير.»

عقَّب الطبيب: «لست آسفًا على هذا الانتظارِ بعد الفرصة التي حظيت بها لتقديم نفسي لك ولقائك يا سيد فينسون.»

سأل الوزير: «أرى أنك تريد مساعدتي في هذا المسعى الطيبِ، أليس كذلك؟»

أجاب الطبيب: «أريدك أن تساعدني بتأييدك ونفوذك إن استطعتَ ذلك.»

قال الوزير: «لا بد أن أرى شيئًا من عملك أولًا. يجب أن أفتِّش منزلك أيها الطبيب دولار.»

نادرًا ما عارضَت نظرةٌ خاطفةٌ حادةٌ نظرةَ السيد فينسون الثاقبةَ أو قابلتها نظرةٌ أخرى تتقاطر صدقًا وشجاعة. لكن ذلك الشك القاسي الذي أثاره حول الطبيبِ دولار مسَّ وجهَه الجذاب بأمانة وشجاعة على حد سواء.

قال الطبيب دولار: «منزلي رهنُ تفتيشك ليلًا أو نهارًا.»

سأل الوزير: «حتى في هذه الساعة؟ حتى الليلة؟»

بدا صوت وزير الداخلية متحمسًا مثلما بدت ملامحه؛ لكن على الجانب الآخر كان هناك الكثير من التردُّد بما يتوافق مع ذلك العيب البسيط في العينين الجذابتين.

قال الطبيب بمودةٍ ممزوجة بالإصرار: «في هذه اللحظة، من غيرِ بُد. دائمًا ما يكون بعض الخدم مستيقظين لوقت متأخر من الليل، كما يمكنك أن ترى المرضى في أثناء نومهم دون إزعاجهم.»

قال وزير الداخلية: «إذن لنستغل الفرصةَ في هذا الوقت من الليل؛ فالنهار مزدحمٌ عن آخره بالمواعيد. لنطرق الحديدَ وهو ساخن، فقد أثَّرت حماستي أيها الطبيب بلا شك.»

٢

هذا الشَّغف البغيض بالمغامرات، الذي كان قد حوَّل أملَ آخرِ أحزاب المعارضة إلى محاربٍ ثائر في جنوب أفريقيا، والذي ربما يكون منصبُ وزير داخلية إنجلترا قد كبحه، لم تخْبُ

جُذوته قَط فيما اندفع هو إلى الخارج مع رفيقه الاستثنائي. وتجدُر الإشارة إلى أنه اصطحب معه عصاه الغليظة بدلًا من مظلَّته رغم رطوبة الشوارع المهجورة من المارة بسبب مطر منتصف الليل الخفيف. بيدَ أنه من السهل تخمينُ السبب الذي دعاه إلى ذلك. لكن لم تتضمَّن الاحتمالاتُ التي وردت بذهنه دويَّ صفَّارة الشرطة في شارع ويجمور الهادئ وهروب الطبيب دولار عند سماعِها عبْر أول منعطف إلى اليسار!

كان وزير الداخلية واحدًا من أولئك الرجالِ الذين يتمتعون برشاقةٍ كبيرة لالتزامه القاسي بالقوام المثالي؛ ورأى نفسَه يتمتع بلياقةٍ بدنية، وهو في الأربعين من عمره، مثل غيره من الرجال في إنجلترا، ولاحقَ طريدتَه بثقته المعتادة. لكن الطبيب الطويل الساقين كان سيتركه خلفَه مع أعمدة الإنارة، لولا أن الطبيب كان في الواقع يندفع بسرعةٍ ناحيةَ الصوت، ولم يكن يهرب منه كما خطرَ بذهن مطارِده على الفور. وفي غضون لحظاتٍ عثَر الاثنان على منزلٍ ساطعِ الإضاءة يقف أمامه رجلُ شرطة بَدين أكثر من المعتاد ويطرق على بابه بعنف تارةً ويخترق حاجز الصمت بصفَّارته تارةً أخرى.

هتف الطبيب دولار بنبرة آمرة حادة: «توقَّف عن هذا الضجيج اللعين! ابتعد من هنا، هذا منزلي!»

وصل وزير الداخلية قبل الهجوم الوشيك على الشرطي في الوقت المناسب، مشتتًا انتباهَ الشرطي الساخط بسؤاله عما يجري، فيما انشغل الطبيب بالبحث عن مفتاحه.

قال الشرطي وهو يركلُ قطعةَ زجاج مكسورة جانبًا: «الرب وحدَه يعلم! يبدو أن هناك جريمةَ قتل؛ شخصٌ ما أطلق عيارًا ناريًّا ...»

وفي أثناء حديثه سُمع دويُّ عيار ناري مرةً أخرى! وتلا هذا الإنذار المخيف صوتُ صرخاتٍ داخل المنزل وتهشُّمُ زجاج النافذة المُشَبَّكة. آنذاك كان الطبيب دولار قد وضع مفتاحَ المزلاج في القُفل. لو كان الباب ينفتح إلى الخارج لسقطَ ثلاثةُ أشخاص متشابكين على قارعةِ الطريق؛ ونظرًا إلى أن الباب كان ينفتح للداخل وجد الطبيب صعوبةً في فتحِه بسببِ الرجل صاحبِ الرداء الأبيض الذي كان يتصارع مع امرأة (ترتدي قميصًا أحمرَ) وصبيًّا (لا يكاد يرتدي شيئًا) فوق مِمسحةِ الأقدام.

هتف دولار في ذهولٍ تام: «بارتون!» لكنَّ بارتون التعِسَ الحظِّ لم يكن هو الذي فقدَ سيطرته على نفسه. غمغم بارتون بنبرةٍ توبيخية ناكرة للجميل: «لم يسمحا لي بالانقضاض عليه! سيتسبَّبان في مقتل الكثير منا رميًا بالرصاص!» وعندئذٍ استوعب الوافدون الجدد الموقف. فعلى الدَّرج، في نهاية الممر الضيق، رأَوا مسدسًا ضخمًا يحمله شخصٌ يرتدي منامةً ورديةً وينظر بعينين شرستين من خلف ماسورة المسدس.

انسل طبيبُ الجريمةِ أمام المجموعة التي شكَّلت لوحةً هوجارثية ساخرة، وحالَ بجسده بينهم وبين الرجل المسلَّح، وهو يهزُّ رأسه بتعبيرٍ لا يستطيع شخصٌ آخرُ رؤيته غير الرجل.

سمعوه يقول بصرامة: «أنا مندهش مما تفعله يا أوزي. ظننتك رجلًا عادلًا ينأى بنفسه عن التصرُّف بحمق في الليلة الوحيدة التي أتغيَّب فيها عن المنزل. إن كنت ترغب في ترويع الناس، فافعل في مكانٍ لا يضرُّ بممتلكاتهم؛ وإن كنت تنوي القتل، فها أنا ذا أمامك، أيها الفتى! صوِّب على أزرار الصُّدْريَّة فلربما أصبتني في فمي؛ هذا أفضلُ؛ والآن أطلِق النار!»

لكنَّ المجرم ذا الشرائط الوردية لم يخفض ماسورة مسدسه ليُحسِن التصويب. بل خفَضها تمامًا. وفتح عينه الجامحة الأخرى، وطرَفت عيناه بحزن شنيع.

تلعثم قائلًا: «أنا، أنا لم أقصدِ التسبب في أي أذًى. كان الأمر خُدعة فحسب، وسأدفع ثمن الباب.»

ردَّ الطبيب: «هل سيصير الأمر مقلبًا كبيرًا إن أطلقتَ رصاصةً على قدمِك؟ من الأفضل أن تسلِّمني ذلك الشيء قبل أن تفعلَ ذلك» ومدَّ دولار يدَه بثبات عظيم. أضاف: «لا، أعطني السلاحَ من طرَفه الآخر، إذا سمحت؛ ليس من الأدبِ تمريرُ السكاكين والشُّوك من طرَفها المستخدَم. شكرًا! والآن اهرُب قبل أن ينقضَّ عليك بارتون بمباركة عائلته.»

وقف الشاب ذو الثياب الوردية يحدِّق بنظرات جامحة، ثم صعد الدَّرج هاربًا وهو يكتم بكاءه.

قال الطبيب هامسًا: «اذهب خلفه يا بارتون، قبل أن يُقْدِم على تصرُّف غبي. يا عزيزتي السيدة بارتون، ستقصِّين على مسامعي ما حدَث كلَّه منذ البداية إلى النهاية لكن صباح الغد؛ اذهبي إلى فراشكِ الآن مثل روح طيبة، بنفس راضية لأنكِ منعتِ إراقةَ الدماء. بوبي، خذ دَوْرَقًا من خزانة المشروبات وأعطِ أمَّك شرابًا عذبًا قبل أن تخلد إلى النوم.» واستدار على عقبيه فيما أسرعت المرأةُ وابنها بمظهرهما غير اللائق مغادرَين المنزل. أُغلقَ باب المنزل الأمامي؛ وكان وزير الداخلية واقفًا وحدَه على مِمسحة الأقدام. فسأله الطبيب: «عجبًا، يا سيد فينسون، ماذا حدث للخادم المطيع؟»

أجاب توبام فينسون بخشونة: «ظننتك تريد التخلص منه. إنه ينتظر بالخارج كي يشرحَ لقوات الدعم أن ما حدث كان مجرد دعابة.»

قال الطبيب، وهو يمسح جبينه بظهر يده: «يا لها من دُعابة غير مقنعة بالمرَّة!»

ردَّ فينسون: «أنا سعيد باعترافك بهذا أيها الطبيب دولار. هل أفهم من ذلك أن ما حدث كله كان دعابةً سمجة تمرَّن الممثِّلون عليها بحرصٍ من أجلي؟»

فتح الطبيب عينيه اللامعتين.

قال: «أهكذا يبدو لك الأمر؟ عُد بذاكرتك قليلًا إلى الوراء يا سيد فينسون!»

أجاب الوزير: «لا داعيَ لذلك. لم يخطُر ذلك ببالي إلى أن وضعتَ الكلمة على لساني. لكنها مصادفة بالتأكيد، أيها الطبيب، تفوَّقت على مصادفة سرقة ساعتي وحقيقةِ أنكَ دونًا عن الآخرين من قبضت على السارق!»

ردَّ الطبيب: «لكن هذا أمر متوقَّع حدوثه دائمًا عندما يدير المرء ظهره، وسيظل هكذا دائمًا إلى أن ...»

توقَّف دولار عن الكلام ونظر إلى وزير الداخلية، فقال الأخير مستحثًّا إياه على الكلام: «إلى أن ماذا؟»

ردَّ الطبيب: «إلى أن تُصعِّب عمليةَ شراء المسدسات والذخيرة على الأقل، يا سيد فينسون، مثلما يصعُب الحصول على جُرعةٍ من حمض البروسيك السام! ها هو ذا شابٌّ مضطرب مُصاب بالصرع قد وُضع تحت رعايتي. لا أدير مستشفًى خاصًّا للأمراض العقلية ولا هو بالمريض المناسب. لو تركتُه يتصرف كما يحلو له، فهذا ما يحدث على الفور! ليت هذا يؤدي إلى قوانينَ جديدةٍ لاستخدام الأسلحة، لكن يجب ألا أدعَ حماستي تأخذني بعيدًا. يمكنك أن تجلس هنا وتدخِّن سيجارةً، ريثما أقوم بجولةٍ على الغرف للتأكد من أن الأوضاع تهدأ، وإن أردت القدومَ معي فسيسعدني ذلك.»

أُجريت الجولة بعد أن تجاذبا أطرافَ الحديث قليلًا في غرفة الطعام التي كانت على الطراز الإسبرطي كبقية منزل طبيب الجريمة المُميز. أضاف ذوقٌ مدروس في الأثاث السنديانيِ، الذي كان عتيقًا، لكنه كان غير مريح في الوقت نفسه، لمسةً صارمةً باردةً لحجرة طعام عامة؛ وعُزِّز هذا الإيحاء لدى الوزير عندما ألقى نظرةً سريعةً على غرفة الاستشارات المجاورة المتناهية الصِّغر التي تصيب زائرها بالدهشة لتشابهها، ربما في ضوء مقارنات الطبيب دولار، مع صومعة راهب وكابينة اعتراف في آنٍ واحد. ربما كانت الطاولة المنحوتة، الخشنة والدقيقة الصُّنع والباهتة جَرَّاء تعاقب السنين عليها، مذبحَ كنيسة في زمانٍ ما بالماضي؛ وبالتأكيد كان المقعد خلفها مقعدًا كنسيًّا. كان الأثاث الثقيل الحجم ثمرةَ اختيار عينٍ صعبةِ الإرضاء، وربما الثمرة الوحيدة لاختيارها. فكل شيء آخر من محتويات المنزل كان يعود إلى القرن العشرين النفعي الحديث الفائق النظافة. لم تكن

هناك ذرةُ غبار واحدة على مفرش الأرضية أو على سطح الصور اللامع. وكانت الجدران والأرضيات على نفس الشاكلة في الطابقين العلوي والسفلي. لكن عندما استرقَ الوزير نظرةً داخل إحدى الغرف بالطابق العلوي رأى زهورًا دفيئة متفتحة في أوعية زجاجية على طاولات زجاجية، كما كانت محتويات الغرفة هي الأخرى زجاجية. كانت الكتب نفسها مربوطةً بورق رقٍّ لامع كالزجاج؛ وتكدَّست بجوار الفراش، الذي استلقى فيه شابٌّ مغطًّى بالضِّمادات، منهمكًا في القراءة، في ضوء مصباح كهربائي أخضر.

عبَّر الطبيب عن أسفِه لما حدَث في الطابق السفلي؛ لكن المريض أجاب، دون أن يرفع ناظريه تقريبًا، بأنه نظرًا إلى عدم قدرتِه على الحركة لإنقاذ حياته فقد انهمك في القراءة طوال الوقت؛ ولم يزعجاه، وسُرَّ بلا شك بالتخلُّص منهما.

همس الطبيب وهما في طريقهما إلى الأسفل: «ذلك الشاب سيكون يومًا ما ... حسنًا، لا عليك! قبل أن يقدِم إليَّ، لم يكن يقرأ بإرادته الحرة أيَّ شيء سوى الروايات الرديئة أو الجرائد؛ والآن هو منغمِس حتى أذنيه في قراءة الأعمال الخالدة لشابٍّ واهنٍ آخرَ تغلَّب على علَّته بإرادته القوية، وهو الآن تحت إشراف الطبيب جونسون.»

سأل الوزير: «ماذا كانت علَّته؟»

أجاب الطبيب: «هوس الإحراق.»

هتف الوزير: «ماذا؟»

واصل الطبيب: «إنها الرغبةُ في إضرام النار في الأماكن. تولَّدت لديه هذه الرغبة في أثناء صباه؛ لكنه أُثني وقتئذٍ عن إشباعها بالضرب المبرِّح. فأمضى طفولته كلَّها خائفًا من العِقاب، وأبقاه ذلك مستقيمًا. لكنه ذات يوم، عندما التحق بجامعة أكسفورد، أضرم النار في غرفته.»

سأل الوزير: «أهو نوع من التأسُّل الرجعي، على ما أظن؟»

أجاب الطبيب: «إنها حالة شديدة التعقيد، وإذا سمحت لي، سأحكي لك تاريخَها كلَّه.»

قال الوزير: «بل يهمني أكثرَ أن أتعرَّف على طريقتك في علاجها.»

قال الطبيب: «حسنًا، غنيٌّ عن القول أنه مغطًّى بالضِّمادات بسبب إصابته بالحروق؛ لكن قد لا يخطُر ببالك أن ذلك حدث له عندما أقام بمنزلي، إن لم يكن على يديَّ تقريبًا.»

هتف الوزير: «هذا هراء يا رجل!»

قال الطبيب: «أنا المسئول على أي حال، وسيسهِم هذا في شفائه. ما حدث كان عبارة عن تجاوب الخيال غير المنضبط مع هوس الإحراق. لم يكن الشاب من قبلُ يعي مدَى خطورة الحرائق؛ لكنه يعرف الآن من بشرته المحروقة.»

تقوَّس حاجبا السياسي مثلما تقوِّس القطط ظهرها دلالةً على الغضب.

سأل الوزير: «لكنْ هذا تطبيق مُبالغ فيه للطب البديل، أليس كذلك؟»

ردَّ الطبيب: «يجب أن أعترف، يا سيد فينسون، أنني تجاوزت في ذلك الحدَّ المقصود. كلُّ ما قصدته كان أن يرى الشاب حريقًا كبيرًا. لذا نسَّقت مع دائرة الإطفاء كي تتصلَ بي عند اندلاع حريق هائل، ومع مساعدي أن يصطحب الفتى في جميع جولاته الليلية. كان هناك سببٌ وجيه آخرُ لهذا الترتيب؛ وبشكل عام كان ظهورهما معًا في موقع الحادث المروِّع لاحتراق مدرسة الفروسية طبيعيًّا.»

هتف وزير الداخلية: «أعرف ما ستقوله! هذا هو الشاب الذي اندفع للمساعدة في إنقاذ الخيول، وهرب بعد ذلك دون الإفصاح عن اسمه!»

قال الطبيب: «هذا صحيح. ذكر أنه لن ينسى صهيلَ تلك الخيول المحتضِرة حتى ساعةِ مماته! لقد اندفع في وسط المعمعة قبل أن يتمكن بارتون أو غيره من إيقافه؛ ولم يفلح المحتشدون إلا في إيقاف بارتون المسكين من اللَّحاق به. حسنًا، لا يمكنني أن أتلقى المديح على ما كان ينبغي أن أمنع حدوثه؛ لكني أظن أنه من المستبعَد جدًّا جدًّا أن يغويَ عنصرُ الإغراء صاحبنا الذي بالطابق العلوي!»

كانا قد عادا إلى الطابق السفلي أثناء حديثهما؛ ووقف توبام فينسون، الذي كان في المقدمة، مُحملِقًا في طبيب الجريمة، في صومعة رهبنته، وعلى وجهه قناعٌ غامض مُتكلَّف، وهو أحد أقنعته الفعَّالة؛ لكن حدث تغيُّر في ذلك القناع فلم يعُد مثلما كان، بعدما اخترقه شعاع الإعجاب الدافئ وتداخل معه ظلُّ شيء آخر. عندما اندفع الطبيب دولار أمام المسدس المعبَّأ وأقنع حامله بإنزال فوَّهته، كما لو كان يخاطب صبيًّا يوجِّه بندقيةً لُعْبَةً ويتحدَّى صبيًّا طائشًا آخرَ بإطلاق النار عليه وقتله؛ كانت نظرةُ الإعجاب نفسُها قد حلَّت على وجه الرجل الواقف خلفه. لكن آنذاك لم يرَ الطبيبُ هذه النظرة، وبعدما رآها الآن أُصيب بالانقباض قليلًا كأنه يخشى مما سيأتي بعدها.

وهذا ما حدث.

«لا أريد أن تريَني أو تطلعني على المزيد أيها الطبيب دولار. أستطيع أن أُميز الرجلَ الصالح بمجرد ما تقع عيناي عليه، والعمل الخيِّر عندما أراه يفعله. لعلَّ ما حدث كان

ضروريًّا وفقًا لظروف عملك الاستثنائية؛ لكن هل المصادفة المحضة هي التي قادتني إلى رؤيتك وأنتَ تعمل الليلة، أم أن هذا العمل الشاقَّ كان في انتظارك عندما وصلنا إلى هنا؟»

أجاب الطبيب: «أما زلتَ تشكُّ في الأمر؟ عجبًا أنتَ من أصررت على زيارة منزلي في هذه الليلة المبارَكة!»

قال الوزير: «بالضبط. هذا يبرهن على المصادفة الثانية؛ لكن مع كامل احترامي أيها الطبيب لا أصدِّق حدوثَ مصادفتَين من النوع نفسِه، في الليلة نفسِها، للشخصين أنفسِهما!»

سأل الطبيب بصوتٍ مبحوح: «وماذا كانت المصادفة الأخرى؟»

أجاب الوزير: «أنك قبضتَ على من سرق ساعتي وتركتَه يهرُب! هيَّا، أيها الطبيب، قدِّم لي معروفًا آخرَ، وسأبذل غايةَ ما في وُسعي لأجلك وللعمل العظيم الذي تؤديه. هذا، بالتأكيد، إن كنت لا تزال ترغب في اهتمامي بالأمر مثلما كنتُ سأفعل لو أنني قرأت رسائلك.»

هتف الشاب من أعماق قلبه: «إن كنت؟! إن اهتمامك هو الشيء الوحيد الذي أريده منك، وأنتَ الشخص الوحيد الذي أرغب في إثارة اهتمامه!»

تلألأت عيناه كمصباحين بنيَّين كبيرَين، واختفى منهما الحوَل من فرطِ التركيز، متلاشيًا من عظَمة الماثل أمامهما. كان يمكنه الارتجافُ أيضًا، أو هكذا بدا، حيث لم تكن حياته الغالية هي التي على المِحَك، وإنما عملُ حياتِه الأعزُّ عليه. وتأثَّر توبام فينسون في نفسه غايةَ التأثر؛ إذ كان متشبعًا بالفكرة ومتشوقًا؛ لكن لم يعُق هذا ذكاءه الحادَّ أو غريزته السياسية الباحثة عن صفقةٍ رابحة.

قال: «هيَّا. أرِني الشابَّ الذي انتشل ساعتي.»

سأل الطبيب: «أريك إياه؟ ماذا تقصد بذلك؟»

لم يجفُل الطبيب. لكن كشفت عينُه المُصابة بالحوَل عن إصابتها مرةً أخرى.

قال وزير الداخلية بثقة كبيرة، كما لو أنه كان على درايةٍ بما حدث طوال الوقت: «الذي سرقني هو أحدُ مرضاك. هل كنت ستكون في عجلةٍ من أمرك لصرف السارق وإصلاحِ ما فعله لو لم تكن مسئولًا عنه؟»

لم يُجِب الطبيب دولار ولم ينكِر كلامَ الوزير؛ لكنه ألقى نظرةً خاطفةً على الساعة العتيقة ذات العقربِ الواحد وبندولها المكشوفِ الذي مسَّ الجِدار وهو يتحرك في ضجة صاخبة. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لكن لا بد أنها كانت ليلةً مريعة على جميع المرضى فلم ينعموا بالراحة. تخلَّى الطبيب عن محاولة تبرير الأمر، وواجه ضيفه بملامحَ يائسة.

سأل: «إذن أتريد رؤيته ... الآن؟»

أجاب الوزير: «أجل. لديَّ أسبابي. لكن لن أتخذ أيَّ إجراءات ضده إن سمحت لي برؤيته. ولن يئدَ «ذلك» نواياي الحسنة في مهدِها!» كان واضحًا ما الذي سيئدها.

قال الطبيب، وكأنه يعتصر مخَّه مرةً أخرى: «ستراه. لكن هناك بعض الصعوبات التي قد لا تفهمها. ألا ترى أنني إن فعلت ما تطلُبه فسأكشف عن هوية مريضي؟»

ردَّ الوزير: «بالطبع. أراه عِقابًا مناسبًا، وهو كل ما سيناله. لكنك لا ترغب في أن تفقد سيطرتك. ألا تستطيع إرساله إلى الطابق السفلي متذرعًا بأي ذريعة بدلًا من أن تصحبني إليه؟»

أشرق وجهُ طبيب الجريمة كأنما سرت فيه الكهرباء.

هتف: «لا بأس في ذلك، سأرسله إليك! انتظرني هنا يا سيد فينسون. فهو قارئ آخرُ؛ وسينزل إلى الطابق السفلي كي يحصل على كتاب يقرؤه!»

انتظر الرجلُ العظيمُ الشأنِ وشخصيتُه المستبدة نوعًا ما تشعر بالرضا بهذا الترتيب بعد أن كادت تتعرَّض للإكراه لأول مرة. لقد تملَّك منه الاهتمامُ بشخصية طبيب الجريمة وعيادته الفريدة. ولم يكن ينوي مشاركةَ اهتمامه الجديد مع أقربِ زملائه حتى يتعمَّق في دراسة هذه النظرية والممارسة اللتين اكتشفهما حديثًا. قد يثْبُت عدم فاعليتهما على نطاقٍ واسع، ومع ذلك قد تضيئان الطريقَ إلى تشريعٍ مثيرٍ من ذلك النوع الذي يتطلب شخصًا مثل توبام فينسون كي يطرحه. كان الطموح الذي لا حدودَ له هو أحدَ إمكانات توبام الهائلة الذي يستجيب لنداء أي مهمة أخلاقية مغرية بما يكفي؛ لكنَّ شغفَه بالمغامَرة كان يتغلب على طموحه الذي لا حدودَ له؛ والمهمة الأخلاقية التي من شأنها إشباعُ الشغف والطموح الذي لا حدَّ له لهي مغريةٌ لأشد الناس صلابة!

لم يكن عليه إلا أن يُظهِر لحليفه الجديدِ سيطرتَه قبل أن يصادق على هذا التحالف؛ لهذا السبب أصرَّ على رؤية سارقه. لكن كان لديه سببٌ آخرُ أقل أهمية. فقد زوَّدته ذاكرتُه القوية بانطباعٍ آخرَ عن السارق بعدما سرق. وفي الفترة الفاصلة بين رحيل الطبيب وظهور المريض السريع التي لم تتجاوز دقيقةً تأكَّد ما كان يشك فيه.

استهل الوزير كلامَه، قائلًا: «أظن أننا التقينا من قبلُ أيها الرجل؟» أجفل الرجل بطريقةٍ مسرحية — كما كانت هيئته مسرحيةً من كل النواحي — إذ كان ملتحيًا ويرتدي ثيابًا رثَّة على نحوٍ مقصود متكلف. عثر فينسون على مفتاح الإنارة كي يرى مخاطبه

بشكلٍ أفضل. وتابع: «هذا تنكُّر رائع، أيًّا من كنت يا رجل! هل يُزَوَّد المرضى المرموقون هنا بهذا التنكُّر؟»

سأل الرجل الأشعث بصوتٍ خشن وعينين مسبلتين: «من قال لك إنه تنكُّر؟»

قال وزير الداخلية بابتهاج: «حسنًا، لا تبدو مريضًا مرموقًا، أم إنك كذلك؟ من ناحيةٍ أخرى لم يقنعني الزيُّ الذي ترتديه على الإطلاق؛ يبدو لي أنه سينهار لولا ما تسميه النساء بالمِشَدِّ، أليس كذلك؟»

انقضَّ الوزير على طرَف الزي الرَّث بينما كان صاحبه يولي ظهرَه في خزي. كان «المِشَد» عبارة عن مِعطف طويل مميَّز ارتداه صاحبه على نحوٍ معكوس؛ علاوة على ذلك، بدا المِعطف مألوفًا لتوبام فينسون؛ وفجأةً تذكَّر أين رآه من قبل، فانتصب في وِقفته وتجمَّد في مكانه.

لم يستدِر السارق لمواجهة الوزير. لكنه وضع الشَّعر المستعار واللحية بجواره على رفِّ المستوقد؛ ودفن رأسه العاري بين يديه؛ وتلألأ ضوء المصباح الكهربائي على الرقعة المستديرة من الشَّعر الفضي فوق أذنه الشديدة الحمرة.

هتف توبام فينسون بانفعال: «الطبيب دولار!» وكشفت نبرةُ صوته عن مفاجأته فازداد غضبًا فوق غضبه.

أجاب: «بلى! كنت أنا السارق ... وقد فعلتُ ما فعلتُ كي أصل إليك ... وأنتَ تعلم ذلك!»

كان صوت الطبيب المواجه للجدار صوتَ تمتمةٍ أجشَّ، ويشي بحرجٍ بالغ؛ ما أثَّر في نفس الوزير الذي كان يشعر بالإهانة مما حدث.

«هذه هي نقطة ضعفك إذن!» كان التعليق العادي الذي قاله الوزير قاسيًا أكثرَ من أي استهزاء. وتابع: «النشل والسرقة، ولا تزال يدك تحتفظ بمهارتها!»

ردَّ الطبيب: «أجل. هذا ما نجمت عنه الإصابة في رأسي.» كان الحرج أقلَّ في صوته الأجش، بفضل برود الرجل الآخر. واصل: «بدأ الأمر في المستشفى الميداني، وقوبل بالضحك والتشجيع، وتصرَّف المرضون بالمثل في مستشفى نيتلي! تعامل الجميع مع الأمر على أنه مزحة؛ وكان الطبيب يسأل عن ساعته أو منديله بعد كل زيارة؛ وكان النجاح الساحق عندما يظنُّ الطبيب أنني سرقت شيئًا ويتبين أنه كان في الواقع شيئًا آخرَ، أو أنني سرقت كليهما، أو أنني سرقت المفاتيح من جيبِ سرواله! وجد قاطنو العنبر الأمرَ مسلِّيًا وذاع صيتي، فيما امتلأ رأسي بالأفكار الانتحارية؛ إذ كنتُ أعلم أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من السرقة لإنقاذ حياتي، وبقية القصة أنتَ تعرفها.»

هتف الوزير: «هذا صحيح!»

أضاف الطبيب: «أمرت بصناعة هذا الزي القبيح خصوصًا حتى أتمكَّن من الركض خلفك مباشرةً حاملًا ما سرقته منك قبل دقيقة! كانت هذه هي محاولتي الأخيرة كي أجذبَ انتباهك وأثيرَ اهتمامك. والآن ...»

قال توبام فينسون وهو يضع يدَه الحانية على كتفَي الطبيب المتهدِّلتين دون أن يشيح بصره عن رأسه المُطرِق: «والآن ... والآن أظن أنك تحسُب أنك وأدْتَ مساعدتي في مهدِها، أليس كذلك؟ بل وأدْتَ أيَّ شكوك كانت لديَّ بشأنك، يا طبيبي العزيز! لقد أطلقتَ مشروعًا في صميم اهتماماتي وقُدتني إليه بطريقةٍ لم أعهدها من قبل. حسنًا، لا يمكنك تنحيتي الآن؛ ولديَّ من الغرور ما يكفي لأن أعتقد أنني جديرٌ بهذه الثقة. ما رأيك في أن تديرَ ظهرك أيها الطبيب دولار ونتصافح؟»

الفصل الثاني

الهراوة

اشتهرت الليدي فيرا مويل بسبب مشاركتها في قضيةٍ حقَّقت بعضَ النجاح بفضل دعمها. فهي من أقنعت وزيرَ الداخلية بمغادرة بالاس يارد معها، وتركته ليباشر مهامَّه الجسام وشارةَ الاتحاد الذي يبغضه مُثبتة على ظهره على غفلةٍ منه. صحيح أن مبرِّرات بعض تصرفاتها المتطرِّفة لم تكن تشفع لها، لكنها اقترفتها كلها بحماسةِ امرأة تقية، ما يعكس المقولةَ التي تقول إن آل مويل هم سلالة من المتمردين الإيرلنديين الذين صاهروا القديسين. وهكذا جمعت الليدي فيرا بين تمرُّد أجدادها والسلوك القويم لزوجاتهم، ونفَّذت أعمالها الشيطانية، وتحمَّلت عواقبها، بصرامة وحيوية وبأسلوب جذاب.

لكن لم تكن الليدي فيرا مويل في أفضل حالاتها عندما ذهبت لزيارة الطبيب دولار عشيةَ عيد الميلاد المجيد؛ إذ كان قد مضى شهران فقط على الإغارة الخريفية، التي كانت قد تسبَّبت في انسحابها وبعض من أصدقائها السياسيين من الشأن العام، في تلك الفترة تحديدًا. فيما عدا ذلك كانت الإغارة الخريفية انتصارًا للمُغِيرين بفضل الضباب الكثيف الذي أرسلته العنايةُ الإلهية، والذي حارب في صفوفهم كما حاربت النجوم في مساراتها سيسرا من أجل واحد من أولِ المحاربين في تاريخ البشرية. لم يكن قد حدث من قبل أن دُمرت ملكياتٌ خاصة على نطاق كبير مع وقوع القليل من الإصابات في جانب الملائكة المُدَمِّرين؛ لكن كانت هناك شائبة غير ضرورية في الأحداث، كان المغيرون أوَّلَ من أنكرها وأدانها.

لم يكتفِ رجلٌ وضيع من الطبقات الإجرامية العادية باستغلال الفرصة لنهبِ واجهة متجر مجوهرات كسرتها سيدةٌ بريئة، بل قتل بدم بارد شرطيًّا كان قد تدخَّل للحيلولة دون تنفيذه لجريمته الأنانية. ولحسن الحظ تمكَّنت الشرطة من العثورِ على هذا الشقي، من خلال تعقُّب الحلي الذهبية الصغيرة المسروقة، وأُودِع السِّجن وأُدين بسرعة، وهو الآن

في انتظار أن تُوَقَّع عليه أقصى عقوبة وهي الإعدام. لم يشكَّ عاقلٌ واحدٌ في جُرمه لكنَّ البعض سعى إلى إلقاء مسئوليةِ ما حدث على النساء! كانت تهمةُ التورُّط الأخلاقي التي روَّج لها بعضُ الصحفيِّين وخطباء المنابر وصمةَ عارٍ في جبين سالفي الذكر وأظهرتهم بمظهرٍ أحمق، وعلى الرغم من الضغوط التي مورست على وزيرِ الداخلية لإرجاء تنفيذ الحكم، فقد أبقى مصيرَ القاتل طيَّ الكتمان، وأصدر الأمرَ بتنفيذ الحكم بإعدام القاتل في آخرِ لحظة. ومع صلابة السيد فينسون إلا أنه عانى بشدة في ظل هذا الوضع المعقَّد: ومن حسن حظه أنه كان على وشْك المغادرة لتمضية عطلة عيد الميلاد.

أمضى وزير الداخلية آخرَ ساعاتٍ له في المدينة في ظروف بائسة سلبته الراحةَ بسبب معذِّبته العنيدة، الليدي فيرا مويل. كانت ناكرةُ الجميل قد احتفلت بإطلاق سراحها بمحاولة انتهاك حُرمة مكتب وزارة الداخلية والترصُّد للوزير في شارع وايت هول. أحبط حارس، لم تنتبِه له الليدي، محاولتها في مهدِها؛ لكن دفع ذلك توبام فينسون إلى احتساء الشامبانيا في ناديه، الذي سار إليه يتأبَّط ذراعَ نصيره الأخير ومستشاره السري الطبيب جون دولار الذي يقطن في شارع ويلبك. وقبل حلول الظلام كان الطبيب قد تعرَّض بدوره لهجوم من الليدي.

استهلَّت الليدي فيرا حديثَها بدقةِ خطيبٍ متمرِّس يعرف ما يجب أن يقوله: «يتعيَّن عليك أن تُلقيَ باللائمة على وزير الداخلية على هذا التطفُّل. فقد رفض، كما سمعتَ، الإصغاءَ إلى ما أردتُ أن أقوله هذا الصباح؛ لكن أبلغني التَّحَرِّي الخاص الذي كان يختبئ في الأرجاء أنك لست صديقًا للسيد فينسون فحسب وإنما طبيب خبير في علم الجريمة. لذا تضاعفت حاجتي للمجيء إليك، أيها الطبيب دولار، ولو عاملني السيد توبام فينسون باللباقة المعتادة ما استلزم الأمر التصرُّف على هذا النحو.»

ردَّ الطبيب بأكثرِ نبرةٍ استرضائية ممكنة: «أنا في غاية السرور لتصرُّفك على هذا النحو يا ليدي فيرا. فالسيد فينسون، لأكون صريحًا معك، ليس في حالةٍ ملائمة لمواجهة أي فضيحة أخرى، وهو ما خشي أن تتسبَّبي فيه. إنه يعاني حالةَ توتُّر شديد مع ما يملكه من قوة في الشخصية. ويُلزِمني تحري الصدق، أيتها الليدي فيرا، أن أضيف أنكِ وأصدقاءكِ كان لكم علاقةٌ بهذا الأمر، لكن السبب المباشر هو القضية التعِسة التي حسمها للتو.»

امتُقع وجهُ الليدي فيرا، المحاط بمعطفها الشتوي من فراء السمُّور وقبَّعتها غير المناسبة نوعًا ما للموسم، وهتفت: «هل حسمها بالفعل؟»

أجاب الطبيب دولار بجِدِّية بالغة: «أجل، هذا الصباح.»

سألت: «لن يشنق ذلك الرجل المسكين، أليس كذلك؟»

لم يتسلل نفَسٌ من بين الشفتين المفتوحتين اللتين كانتا شاحبتين وجافتين بسبب معاناة السجن، ولكنهما لم ترتعشا فيما انحنى الطبيب.

قال الطبيب: «إذا كنتِ تقصدين ألفريد كروتشر المُدان بجريمة قتل العريف سيمبكن في أثناء اضطرابات المطالبين بحق المرأة في التصويت، فليس بوسعي إلا أن أقول إن إيقاف التنفيذ سيكون سابقةً من الممكن أن تؤدِيَ إلى إلغاء عقوبة الإعدام من الأساس.»

أجابت الليدي فيرا وهي تُحكِم السيطرة على أعصابها: «أيها الطبيب دولار، من أجل هذه القضية تحديدًا، ولا شيء آخر، أردت التحدُّث إلى وزير الداخلية. لم أسمع مطلقًا عن القضية حتى صباح اليوم؛ إذ كنت مبتعدةً عن قراءة الجرائد، كما قد تعلم؛ وليس سهلًا أن يستوعب المرء قضيةً كاملة من خلال قراءة واحدة سريعة. هل تمانع أن تخبرني عن سببِ تأكُّد الجميع من أن الرجل هو القاتل؟ هل رآه أحد وهو يرتكب الجريمة؟»

ابتسم طبيب الجريمة وهو يهزُّ رأسه.

أجاب: «قلَّة من القتلة يُشاهدون في أثناء ارتكابهم جُرمهم يا ليدي فيرا؛ ومع ذلك فهذا الرجل كان سيصبح من هؤلاء القلة لولا أن الضباب حال دون رؤيته. شُوهد كروتشر بوضوح عبْر نافذة محل المجوهرات وهو يسرق، ثم شُوهد يتعارك مع العريف السيئ الحظ.»

سألت: «هل شُوهد العراك بوضوح مثل السرقة؟»

أجاب الطبيب: «ربما ليس بوضوح، لكن أدلةَ ارتكابه للجريمتين مُقنِعة بالدرجةِ نفسها. ولقد عُثر على بعض البضائع المسروقة في حوزة كروتشر؛ كما أن الطريقة التي حاول أن يبرِّر بها حيازته للمسروقات، حينما كان على منصة الشهود، كانت أقل سوءًا من محاولته المفجِعة للادعاء بعدم وجوده في مسرح الجريمة.»

هتفت الليدي فيرا، ربما بقدْرٍ أقلَّ من الشفقة والكثير من نفاد الصبر: «يا له من أحمقَ مسكين! لقد كان هناك بالطبع؛ فقد رأيته!»

أخذ تعليق الليدي الطبيب على حين غِرة.

سأل: «هل كنتِ هناك بنفسكِ يا ليدي فيرا؟»

أجابت: «أجل، كنت هناك!»

سأل الطبيب: «أأنتِ المرأة التي كسرت الواجهةَ من أجله؟»

أجابت المرأة: «بالطبع كنت أنا! لكن لم يطلب مني أحدٌ الإدلاء بشهادتي! وبسبيل المصادفة المحضة خرجت من السِّجن في الوقت المناسب كي أنقذَ رجلًا بريئًا من حبل المشنقة، فهو بريء من كل التُّهم المنسوبة إليه فيما عدا السرقة. أنا على يقين من ذلك!»

لم يعُد صوتها هادئًا على نحوٍ غير عادي؛ وكان ثمَّة انفعال شديد في نبرتها جعل قشعريرةً تسري في جسد الطبيب دولار. حدَّق إلى المرأة التعِسة بهلع، ونظر إلى مِعطفها الفاخر المتدلي إلى قدميها، في ضوء مصباحه الكهربائي الشديد السطوع؛ وحتى وهو ينظر إليها — ويقلِّب في ذهنه كلامها — ذاب كلُّ رعبه متحولًا إلى مشاعرَ عميقة لم يشعر من قبل. كانت هي أوَّل من استطاع الكلام وبدا صوتها أكثرَ هدوءً عن السابق.

قالت: «لديَّ سؤال آخرُ بشأن المحاكمة. ما هو السلاح الذي من المفترض أنه استخدمه في ارتكاب الجريمة؟»

أجاب الطبيب: «سكِّينه.»

عقَّبت السيدة: «لكن أليس الجُرح صغيرًا على أن تُحدثه سكين؟»

ردَّ الطبيب: «كان لها نصل صغير.»

سألت السيدة: «ولكن هل كانت هناك أيُّ آثار دماء على السكين؟»

اضطرت إلى الضغط على الطبيب للحصول على مزيدٍ من التفاصيل؛ ولم تظهر عليها أيُّ دلائل تردُّد مثلما ظهرت عليه رغم أنه طبيب!

قال: «أجل. كان لدى كروتشر تفسير، ولكنه لم يكن مُقنعًا.»

قالت الليدي فيرا بمرارة: «عادةً لا تكون الحقيقة مقنعة. قد تندهش إذا علمت أن الضربة لم تحدُث بسكين على الإطلاق. بل ... بهذا!»

أخرجت يدها اليمنى من فراء تدفئة اليدين اللامع؛ لكنها لم تكن تحمل سيفًا برَّاقًا وإنما هراوة سوداء قصيرة مدبَّبة الرأس مستديرة، ناولتها للطبيب دون أن تضيف كلمةً أخرى.

هتف جون دولار: «لكن جمجمته لم تكن مهشَّمة!» ثم نظر للحظة إلى ضيفته بعين طبيب نفسي. وأضاف: «كان هناك ثقب في الشريان السباتي ولا يمكنكِ فِعل ذلك بهذه الأداة إن حاولتِ.»

قالت الليدي فيرا: «اضرب الهراوة في الأرضية، ولكن لا تمسكها من طرفها.»

انحنى دولار متبعًا توجيهات السيدة؛ وفور أن ضرب الأرض بالهراوة، انبثق خنجر من الطرف المقابل للرأس المدبَّب؛ وعلِق النصل بكمِّه.

تابعت الليدي فيرا: «هذا ما حدث بالضبط. وأنا الفاعلة، أيها الطبيب دولار!»

سأل بصوت مبحوح: «أكان ما حدث قتلًا خطأ؟» نظر إليها كما لو أن الحادثة لم تكن مميتة؛ لكنه كان أقل سيطرةً على نبرة صوته.

أجابت باستسلام: «أراها كذلك؛ لكن قد لا يتفق القانون مع هذه التسمية. ومع ذلك لم أكن أعلم أنني أمتلِك مثلَ هذا السلاح من قبل؛ فقد اشتريته على أنه هراوة لا أكثر، من محل رهنٍ، صادف أن مررتُ بواجهته صباح يوم الاضطرابات. اخترت الهراوةَ لأنني رأيت أنها أداةٌ مناسِبة لتحطيم النوافذ، خاصةً مع الحبل الرفيع الذي يُلف حول الرُّسغ. كما فكَّرت — لا أمانع في أن أعترف لكَ — أنني لو عُوملت بغلظة يمكنني استخدامها كي أدافعَ عن نفسي؛ إذ لا يمكنني استخدامُ مطرقة على نحو جيد.»

كانت تتكلم بلا خجل مثلما لا يخجل الجندي من حربته بعد المعركة؛ ونظر الطبيب إليها نظرةً متفهمة. انهمك الطبيب في فحصِ آلية عمل الهراوة بذهن شارد. كان هناك زُنْبُرك مكسور. وهذا يفسِّر لماذا استحالت الهراوة إلى خنجر عند كل ضربة، وليس فقط عندما تهزُّها بشدة.

سأل الطبيب متلهفًا: «وهل عاملَكِ العريف سيمبكن بخشونة؟»

أجابت بتردُّد واضح: «بخشونة بالغة. لكن أظن أن الرجل المسكين كان منفعلًا مثلي تمامًا عندما حاولت ضربه لإبعاده.»

سأل الطبيب: «أظن أنكِ لم تكوني على دراية مطلقًا بما كنتِ تفعلينه، أليس كذلك يا ليدي فيرا؟»

ردَّت: «ليس هذا فحسب، أيها الطبيب دولار، ولكنني لم أعرف ما فعلته.»

هتف الطبيب: «حمدًا للرب على ذلك!»

واصلت السيدة: «ولكن ألا يمكنك تصوُّر ما حدَث لثانية واحدة؟ تلك هي المسألة برُمَّتها، وتفسير جميع ما حدث. انتهى الأسوأ في غضون لحظات، وسط الضباب المريع الكثيف، لكن، بالطبع لم أتصوَّر مطلقًا ما اقترفتُه. ظننت أنني طرحته أرضًا. ولم يخطُر ببالي ما حدث حتى صباح اليوم.»

سأل الطبيب: «هل كنتِ قريبة من الواجهة المهشمة حينها؟»

أجابت: «كنتُ قريبة جدًّا من الواجهة لكن بعيدة عن الأنظار بسبب الضباب.»

قال الطبيب: «ألم تريْ كروتشر إطلاقًا أو تشهدي تدخُّله في هذه المسألة؟»

أجابت: «لا، لم أرَ شيئًا بعدما فعلتُ ما فعلت. لقد فعلتُ فحسب ما شرحتُ سابقًا. أنا واثقة من أنه الرجل الضخم المذكورة أوصافه. لكنني سمعت كلَّ شيء بينما كنا

نتعارك. سمعت دوي صفَّارة الشرطة وصراخَ: «لصوص!» أتذكَّر أنني حينها تمنيت لو أن الشرطي سمع هذه الصفَّارة وأطلق سراحي. لكن أظن أنه كان في شدة الغضب مثلي تمامًا.»

قال الطبيب محاولًا ألا يكزَّ على أسنانه من الغضب: «وماذا فعلتِ بعدما حررتِ نفسك؟»

أجابت: «هربتُ بالتأكيد! عرفت أنني تجاوزتُ كثيرًا ما كنت أنوي فِعله؛ لكن هذا كلُّ ما عرفته، أو ظننته، حتى عندما وجدت الخنجر المريع مُشهرًا في يدي. حاولت إغلاقه مرة أخرى لكن بلا جدوى. لذا أخفيته في ردائي، وركضت في شارع دوفر باتجاه النادي الخاص بي، وهناك خبَّأته مباشرةً في حقيبةٍ كنتُ أحتفظ بها. ثم عدَّلت هندامي، وخرجتُ مرةً أخرى، بمطرقة مناسبة.»

زمجر الطبيب؛ فقد فاق الأمرُ قدرتَه على التحمُّل. كان هذا أولَ استهجان مسمُوع يصدر عنه؛ إذ كان قد أحكم السيطرةَ على أعصابه وهي تلقي على مسامعه أسوأ جزءٍ في القصة؛ وكشف وجهُ الفتاة عن ملاحظتها للتغيُّر الطارئ على ملامحه. تسلَّلت الحُمرة إلى وجهها أخيرًا. فحتى هذه اللحظة، حينما كانت تسرُد أخطاءها المُتعمَّدة كأنها إنجازات، لم تبالِ مطلقًا برأيه فيها أو في أفعالها. لم تكن ثمَّة عدوانيةٌ في الأمر؛ ظنَّ فقط أنها لم تكن تبالي بآرائه في هذه المسألة. لكن تبيَّن له أنه مخطئ في اعتقاده؛ فقد أظهر لها ما خشيت فقدانه، ولم تفلح صراحتها في إخفاء أثرِ ذلك في نفسها.

قالت بحرصٍ شديد: «لا تنسَ أنني لم أدرك فداحةَ ما فعلته. ولم أعرف ما حدث حتى هذا الصباح، حين سمعت عن القضية لأول مرة، ولاحظت بُقَع الدم على الخنجر، التي كنتَ تبذل غايةَ جهدك لئلا تنظر! انظر إلى البقع أيها الطبيب دولار. ليس هناك أدنى شك في طبيعتها، لكن سيسرني كثيرًا أن تُثبت وجودها بما يرضي جميع الأطراف.»

سأل الطبيب: «هل تشعرين بسعادة بالغة بذلك يا ليدي فيرا؟»

تبادلا النظرات بضعَ لحظات. ظهرت أمارات البؤس على وجهها؛ لكنها ترفَّعت بإخفاء مشاعرها فحسب. ولولا عيناها لبدت عديمةَ الرحمة وقاسيةً على نحوٍ غير معهود؛ فقد اتسعت عيناها الأيرلنديتان الزرقاوان وتلألأتا بحزن بلا دموع.

قالت بتوتر: «لا شيء سيغيِّر من حقيقة وقوع هذه الجريمة النكراء أيها الطبيب دولار، وإن كنتُ آمُل أن أعيش طويلًا حتى أعوِّض ما حدث حسب قدراتي البشرية المحدودة. لكن لا بد في هذا الاتجاه الآخر من إصلاح الأمور على الفور. لا فائدة من التفكير

فيما لا نستطيع تغييرَه حتى نغيِّر ما نستطيع إن تصرَّفنا بسرعة! ولهذا السببِ حاولت الذهابَ إلى وزير الداخلية مباشرةً ثم أتيتُ إليك. خُذني إليه، أيها الطبيب دولار، وساعدني في أن أقنعه أن ما أخبرتك به هو الحقيقة كاملةً ولا شيء آخر! تحقَّق من وجود بقع الدماء، إن كنت تظن أن هذا سيجعل من إقناع الوزير أمرًا سهلًا. ثم يمكننا أن نذهب إليه بالخنجر.»

أجرى الطبيب اختبارًا أوليًّا على البقعة. انحنى على المدفأة، وسخَّن الفولاذ بين أعمدتها، ثم تركه يهدأ في النافذة المفتوحة، قبل أن يتناول مقياسًا ويفحصه تحت المجهر برهةً من الزمن. فعل كلَّ ذلك بحماسةٍ شديدة، خفَّفت حدَّتَها دقةٌ ومهارة شديدتان. تابعت الليدي فيرا العمليةَ باهتمامٍ حيادي لكنها تأثَّرت رغمًا عنها بالطبيب الذي صبَّ كاملَ تركيزه على مهمته، فرحًا بوضوح بانشغاله بأي مهمة. لكنه عندما رفع عينيه من المجهر، هزَّ كتفيه بما يشبه الغضب.

هتف كما لو أنها صاحبة الاختبار: «لا جدوى من إجرائه، بالطبع، كما تعلمين! فسيستغرق الأمر ساعات لإعداد التحليل المطلوب.»

سألت الليدي: «ما الذي توصَّلت إليه حتى الآن أيها الطبيب؟»

أجاب: «ما توصَّلت إليه — وهو غير قانوني أو طبي بالمرَّة — أن هذه البقعةَ تشبه بقعةَ دماء يا ليدي فيرا.»

قالت: «إنها بقعةُ دماء بالتأكيد. هناك أمرٌ آخرُ سيساعدنا.»

قال الطبيب: «وما هو؟»

ردَّت السيدة: «إنها واحدة من أفضل نقاط الدفاع، حسبما توصَّلت إليه في هذا الوقت القصير، بشأن سكين السجين. إذا أخذنا هذا الخنجرَ، إما إلى وزير الداخلية، أو إلى سكوتلاند يارد إن كان وزير الداخلية لا يزال يرفض مقابلتي ...»

قاطعها الطبيب مصعوقًا من حماستها الانتحارية: «ليدي فيرا! أتدركين خطورةَ وضعكِ؟ لن تضطري إلى مواجهة الموقف فحسب؛ وهو ما فعلته على نحوٍ ممتاز! لكن ألديك أيُّ فكرة عن العواقب؟»

أجابت مبتسمة: «أظن ذلك. لا أعتقد أنهم سيشنقونني؛ لا يمكنني التظاهر بعكس بذلك، وإلا كان من قبيل التصنُّع. لكن هذا شأنهم بالطبع؛ ما يهمني هو أن أتبادل الأماكنَ مع رجل بريء.»

ردَّ الطبيب بدفء: «لن تفعلي ذلك أبدًا. ليس هناك رجل بريء في القضية؛ فكروتشر هذا لصٌّ وشاهدُ زور؛ بالإضافة إلى أنه سجين سابق أمضى نصفَ حياته في السِّجن! وسيحصل على عقوبة خمس سنوات بسبب السرقة وحدَها دون اعتبار لجريمة القتل؛ وسيرسلونه إلى دارتمور أو بورتلاند إن أنقذنا حياته البائسة. وهذا ما سنفعله بلا شك؛ لكن يا له من ثَمن، يا له من ثَمن!»

قالت الليدي فيرا، مشفقةً على الطبيب مما يشعر به من كدرٍ: «لا أريدك أن تزعج نفسك بأي شيء آخر سوى أن توصلني بالسيد فينسون. ولنترك البقيةَ عليه، كما يقولون؛ على أي حال لن يكون أمرًا مريعًا جدًّا لي. فأنا سجينة قديمة، إذا كنت تذكر!»

تألَّق وجهها بجرأتها الشهيرة؛ لكنه كان أشبه بتألُّق الزهور على شواهد قبر. لم يتملك الرعب من الأشياء التي ستحدث من عينيها الباسلتين مطلقًا، لكنه مسَّهما مسًّا خاطفًا سرعان ما تبدَّد دون أن يلاحظه الطبيب دولار. أدرك معنى نظرتها. وكان قد هدأ من رَوعِها بشأن الرجل المسجون، غير أنه أثاره في نهاية المطاف فيما يتعلَّق بالراقد في قبره. أصابها الأسى بعجزٍ لم يُصبْها به الرعب؛ فالسجون يمكن اقتحامها، لكن ليس السِّجن الذي أُودِع فيه أخٌ في الإنسانية جراء ما اقترفته يداها. ومع ذلك سيطرت على شعورها بالأسى، ودفنته في أعماقها أمام عينَي الطبيب، حتى حينما كان خِطابها الطائش يُدَوِّي داخله بوصفه أكثرَ الخُطب التي سمعها يومًا ما شجاعةً.

دوَّى كلامها في عقله بنداءٍ واضح وقاطع. عرف ما يريد وإن لم يكن بنفس السرعة التي اخترق بها عقلها. على مدار كل سنوات حياته، لم يعرف ما يريد جيدًا، بقدْر ما حدث عندما أعادت النظر في كلامها السابق الذي كان قد أنار عقله، وواصلت الحديث بنبرة مختلفة: «والآن، أيها الطبيب دولار، هلَّا تتوِّج مساعيك العظيمة باصطحابي إلى وزير الداخلية على الفور؟»

هتف بانزعاجٍ غيرِ مُبرَّر: «ما جدوى طلب الأمور المستحيلة يا ليدي فيرا؟ لا يمكنني اصطحابُكِ إلى توبام فيسنون، وإن أردتُ ذلك. فسيبدأ في التشكيك في قواكِ العقلية؛ وستواجهين كلَّ أنواع الصعوبات السخيفة. بالإضافة إلى أنه خارج المدينة.»

كشفت ملامحها عن شعورها بالاستياء بمجرد إدلائه بالمعلومة.

سألت: «هل أنت جادٌّ أيها الطبيب دولار؟»

أجاب: «تمامًا.»

سألت: «أنسيت أنني رأيتكما معًا في تمام الساعة الثانية تقريبًا؟»

أجاب: «أظن أن الوقت لم يكن متأخرًا هكذا. فقد غادر وزير الداخلية يوستن في الساعة ٢:٤٥.»

سألت: «إلى أين؟»

وبدت مذعورة.

أجاب الطبيب: «سأخبركِ، يا ليدي فيرا، إن تعهدتِ بألا تلاحقيه في القطار التالي.»

سألت: «متى سيتحرك القطار التالي؟»

أجاب: «ليس قريبًا. يوجد قطارٌ آخرُ واحدٌ فقط؛ فقد تناقشنا بشأن القطار الذي ينبغي أن يستقله. لكن لا تركبي القطار الآخر يا ليدي فيرا؛ يجب أن تتركي الأمرَ لي. أريدكِ أن تتركي المسألة كلَّها لي من اللحظة الراهنة إلى أن أتواصل معكِ من جديد.»

سألت: «متى سيكون ذلك أيها الطبيب دولار؟»

أجاب: «حالما ألتقي بالسيد فينسون.»

قالت: «هل ستضطلع بمسئولية نقْل جميع التفاصيل إليه؟»

ردَّ: «سأنقل إليه جميعَ التفاصيل بدقةٍ كما أخبرتِني بها.»

سألت: «هل ستبدو موثوقة من مصدرٍ غير مباشر؟»

قال: «ستكون موثوقة بما يكفي لتبرير تأجيل تنفيذ الحكم. هذا هو الهدف الأول؛ وهذه هي الخطوة الأولى لتحقيقه، صدقيني! لدينا مُتَّسع من الوقت ... حتى الثلاثاء القادم.»

ردَّت بازدراء واضح لتردُّده الذي ينمُّ عن حُسن نيته: «أوه! أعلم ذلك. لكن لا يمكننا إهدارُ لحظة بينما ذلك الرجل المسكين ينتظر الموت.»

قال الطبيب: «لا أظنه ينتظر الموت يا ليدي فيرا. فقد صدَّق الوزير على الحكم حديثًا؛ ولن يُعلن عنه إلا بعد غدٍ. لا أعتقد أنهم سينقلون إلى كروتشر نبأ التصديق على إعدامه في عيد الكريسماس.»

قالت: «يمكنهم نقْل البشرى إليه بدلًا من ذلك. أين السيد فينسون؟ لا تقلق، لن أحاول أن أعترض طريقه حتى تفعلَ أنتَ. هذا وعد؛ ولن أخلف وعدي مثلما أفعل مع النوافذ!»

تجاهل جون دولار تباهيها بصعوبة. كان بوسعه رؤيةُ ما يتوارى خلْف هَزْلها التراجيدي كما لو كانت مصنوعةً من البلور الشفَّاف، وانفطر قلبه انفطارًا وجد صعوبةً شديدة في إخفائه في نفسه؛ لكن هذا كان آخرَ شيء تطلبه منه الليدي فيرا على ما ظهر.

أعطاها المعلومات التي تريدها بصوتٍ أقلَّ ثباتًا من صوتها. وظن أنه لمح إشارةً طفيفة في عينيها تدُل على أنها أدركت الجهدَ الذي يبذله للسيطرة على مشاعره.

عقَّبت: «ظننت أن الدوق نفض يدَه من ابن اخته السيئ السمعة. حسنًا، أخشى أننا سنضطر إلى إزعاج هذا الاجتماع العائلي.»

قال الطبيب: «هذه مهمتي يا ليدي فيرا.»

قالت: «وأنا لم أشكركَ من قبلُ على الاضطلاع بها نيابةً عني! ولن أفعل أيها الطبيب دولار؛ فعبارات الشكر لا تتوافق مع قضيةٍ كهذه!» وأمسكت بيده بجرأة واضحة؛ كانت يده أكثرَ حرارة وثباتًا من يدها. تابعت: «ماذا عن القطار الذي ستركبه أنتَ؟»

قال الطبيب: «أخشى أنه لا يوجد قطار قبل السابعة. قد ذكر فينسون أنه سيركب هذا القطارَ في البداية.»

أكَّد الجدول الزمني مخاوفَه؛ فألقى بالجدول على الأرض، وسارع إلى دليلِ الهاتف بدلًا من ذلك. راقبته الليدي فيرا عن كثَب. ألقى نفسه في مقعده القديم من خشب السنديان، وفضح لمعانُ الطاولة القديمة وجهَه، كما لو كان منحنيًا على صفحةِ ماءٍ بُنيَّة صافية. لاحظت علامات القلق على وجهه لأول مرة؛ إذ لم يسمح لها بأن تتسرب إلى ملامحه قبل ذلك.

سألت: «ما رأيك في ملاحقة القطار بالسيارة؟»

تلعثمت للمرة الأولى.

أجاب دون أن يرفع نظرَه عن دليل الهاتف: «هذا ما أنوي فِعله بالضبط. سأتصل هاتفيًّا لأطلب سيارةَ أجرة.»

هتفت بابتهاج: «إذن لست بحاجة لأن تفعل ذلك! لدينا سيارتان على الأقل، في المرْأب، ستصدآن من قلةِ الاستخدام. سأعود إلى المنزل بسيارة أجرة وسأرسل إليك إحداهما مباشرةً، مع سائقٍ يعرف الطريق جيدًا، ومعطفٍ ستَعِدني بارتدائه أيها الطبيب دولار. جميع عائلتي خارج المدينة باستثناء أمي، ولن تعرف بغياب السيارة؛ فهي لا تتمتع بصحةٍ جيدة لاستخدام السيارات. لكن لا يجدُر بي الحديث عن أمي المسكينة وإلا سأجعل من نفسي أضحوكةً حقًّا. فسبب حالتها الحالية يرجع جزئيًّا إلى أفعالي، كما ترى، وبالطبع ستَزِيد المستجداتُ من سوء وضعها الصحي. لكنني لست متأكدة من ذلك، أيضًا! أمي من الشخصيات التي أخذت من الحداثة أمراضها، لا أفكارها المستنيرة، لكنها ستريني كيفيةَ التصرُّف عندما تتأزم الأمور. ستكون أول شخص يقدِّم الدعمَ لي في المسار الممكن الوحيد.»

لم تلقِ خطابَها بسلاسة تامة، حسبما قد يظن البعض، مع أن دولار لم يقاطعها إلا لطلب سيارة أجرة. توقَّف حديثها من تلقاء نفسه عندما ضلَّلتها نفسُها للحديث عن أمها المسكينة، السيدة أرماه، التي لا يخفَى على أحد انتقاداتُها الشديدة لمغامرات ابنتها. إذ كان دولار قد سمع من توبام فينسون في ذاك اليوم على الغداء أن مغامرةَ ابنتها الأخيرة أدَّت إلى تدهور صحتها تدهورًا شديدًا؛ ماذا ستفعل إذن عندما تسمع بالقرارات الوشيكة والفضيحة المأساوية على مدار تسعة أيام، والتي كانت أقلَّ ما يمكن أن تئول إليه هذه الأوضاع إلا إذا …

«إلا إذا!»

في عقل الطبيب كان هناك الكثير من الجمل المبتورة التي تبدأ بكلمات مضلِّلة، حتى صار لا يعي الكلماتِ الحقيقيةَ التي تفوَّهت بها الليدي، ولا يدري مما أجاب به إلا القليل. كان يشعر وكأنه في حُلم رأى فيه يدًا صغيرةً تُلَوِّح له بينما تختفي سيارة الأجرة عن الأنظار مُنعطفةً إلى اليمين؛ وفي الحُلم وجد نفسَه يصعد الدَّرج قافزًا ويخفي تحت مِعطفه السلاحَ الذي كانت اليد الصغيرة قد أنزلت به الموت؛ وأفاق ليجد نفسه مرتديًا أثقلَ ملابسه الشتوية ومعطفه الطويل، والسائق يطلب منه أن يضعَ فوق كل ملابسه معطفَ فِراء ملبَّد أرسلته السيدة مع السيارة.

بالفعل وصلت السيارة الطويلة السريعة — من نوع تالبويز المنيعة ذات الخمسة عشر حصانًا — إلى الباب في غمضة عين. أضاء المصباحان الأماميان أخاديدَ لندن الموحِلة؛ وخلفهما جلس رجلٌ يضع نظارةً مفلطحة، نفس الرجل الذي حمل المعطفَ والرسالة البالغة الأهمية. تكوَّر السائق الأنيق خلف عجلة القيادة؛ أما الراكب فجلس منتصبًا في المقعد المجاور له؛ شكَّل أفراد عائلة بارتون — رفاق الطبيب الأوفياء — لوحةً فنية ارتجالية في الخلفية. فوق دَرَج القبو، ظهرت الأم وطفلها — اللذان كانا قد ظهرا بمظهرٍ غيرِ لائق في السابق — مرتديةً ملابسَ الطاهية وخلفها طفلها مرتديًا ملابسَ الخَدم على عتبة الباب. أطل بارتون نفسه من إحدى النوافذ العلوية، وهو لا يزال يرتدي بدلته البيضاء — في أجواء عيد الميلاد الرطبة والحارة النمطية لأوائل القرن العشرين — ولكنَّ أثَر المسئوليات الثقيلة لهذه المنشأة الغريبة كان ظاهرًا على كتفيه البيضاوين بياضَ الثلج. ضغط السائق الأنيق على بوق السيارة بحَنَق. وانطلقت السيارة، ولم تتوقَّف إلا في شارع أكسفورد لزحام حركة المرور بسبب عيد الميلاد، لكن تحسَّن الوضع في إدجوير رود، وسرعان ما تحرَّكت باتجاه مدينة إدجوير نفسِها وإلستري وسانت ألبانز، وقطعت كل المُدن المضاءة والطرق الحالكة الممتدَّة في الليل بين عاصمة إنجلترا وأصغر مقاطعاتها.

بعدما قطعت السيارة بضعةَ أميال، قال السائق: «هناك القليل من المَطبَّات في هذا الاتجاه»؛ وانخرط في صمتٍ تام مدَّة خمسين ميلًا. لكنه قاد السيارة ببراعة، واستجابت ليديه الحاذقتين كما يستجيب حصانٌ يعرف سيدَه. أثبتت السيارة المكشوفة أنها يُعتمد عليها في الطرقِ غير الوعْرة باستثناء افتقارها إلى السرعات الفائقة؛ وأحسن السائق قيادتَها وانسابت عجلاتها فوق الطرق الممهَّدة كما ينساب الحرير من النَّول الصامت.

جلس دولار بجوار السائق محتميًا بالزجاج الأمامي الذي تلألأ وشكَّل إطارًا لمشهد الليل. اخترق الظِّلالَ الدقيقةَ عنقودٌ من الأضواء التي سرعان ما تبعثرَت وخبَت كشرارات غليون؛ بعد ذلك كسرت الظلامَ مصابيحُ الغاز التي أبقت الطريقَ أمام السيارة متوهجًا بين القرى. وكثيرًا ما كان طيفُ وجهٍ يظهر محلقًا على الطريق المنبسط أمام السيارة؛ لكنه لم يكن سوى وجهِ الطبيب القلِق، يُرى منعكسًا بغير وضوح على الزجاج الأمامي للسيارة.

ومع ذلك لم يكن الطبيب قلقًا في الحقيقة فيما قطعت السيارةُ أول خمسين ميلًا. في البداية شعر ببالغ الامتنان لانطلاقه في رحلته كما لم يخلُ الطريق مطلقًا من الاحتمالات المثيرة والمشتِّتة للانتباه. لكنهما توقَّفا في بيدفورد لتناول العشاء؛ خطرت هذه الفكرةُ للطبيب دولار فجأة، فيما كانت الساعة بين الثامنة والتاسعة مساءً؛ لكن السائق الخدُوم أعربَ عن استعداده للمضي قُدمًا بلا توقُّف، ولو وافقه الطبيب لكان خيرًا له. أدَّى توقُّف الرحلة إلى قطع السكون الحالم الناجم عن الهواء اللاذع والطنين الناعم الخافت للسيارة. وبين أحضان الفندق الدفيئة، بما احتوى من نباتات البهشية وبهجة أجواء الكريسماس، عاد الطبيب إلى الواقع بصورةٍ مباغتة وشغَلته مشكلته المُلحة بقيةَ الطريق.

في الوقت الحاضر، كان شغله الشاغل هو الوصول إلى وزير الداخلية في تلك الليلة؛ من تلك اللحظة فصاعدًا راح يستعيد المقابلةَ المنشودة ويصل إلى نتيجةٍ مختلفة كل مرة. كان يعرف، بالفعل، ما سيقوله؛ كان قد عرف ذلك قبل أن يودِّع الليدي فيرا مويل. لكن ماذا سيقول وزير الداخلية؟ هل ستكون الهراوة الملطَّخة بالدماء دليلًا كافيًا له؟ ستكون مدعومةً بقسَم رجل كان قد اختبر صدْق كلامه من قبل. هل هناك أدنى احتمال لأن يلغي ذلك الدليلُ غير المباشر تمامًا حكمًا قد اتُّخذ بالفعل، هذا إن افترضنا أن الرجل لم يُنقل إلى زنزانة الإعدام؟

كان مجرَّد التفكير في ذلك البائس التعِس الحظ يملؤه برعب واضح قوي. كان طبيب الجريمة قد حظي بفرصة النظر إلى زنزانة الإعدام ذات مرة؛ ولا تزال محفورةً

في ذاكرته. كان الباب مفتوحًا فيما انشغل ساكن الزنزانة البائس بممارسة التمارين في الفِناء المجاور. نظر داخل الزنزانة. لم تكن كئيبةً بقدْر ما كان ينبغي أن تكون. كانت هناك كتابات على الجُدران، وتسلَّلت أشعة الشمس عَبر القضبان، وقبع كتابٌ كبير مفتوح على لوحٍ خشبي بالٍ نظيف مُثبت في الجدار.

تذكَّر دولار كلَّ تفصيلة بدقة سوداوية. كان قد سار إلى الداخل ليتفقَّد الكتابَ ووجده مُجلدًا من كتاب «الكلمات الطيبة»، مفتوحًا على سلسلةٍ جديرةٍ بالثناء لسيدة شهيرة آنذاك بين أصحاب الفضيلة. لكن قارئ هذا الكتاب كان مُدانًا في قضيةِ ذبحِ امرأةٍ في أثناء عِراك على شِلن، ورآه دولار يذرع الفِناء الضيق جَيئة وذهابًا في بهجة، ويلقي ببعض النكات على السجانين الحاضرين، بابتسامةٍ على شفتيه المتشققتين وفي عينيه الزرقاوين الجريئتين. كان بوسعه أن يستحضر صورةَ الرجل كما رآه لعشر ثوانٍ منذ سنوات مضت. لكنَّ شفقته على السجين الذي كان ينتظر هو الآخر حكمَ الإعدام على جريمة هو بريء منها لم تكن تُقارَن بشفقته وأسفه اللامتناهيين على المرأة التي ارتكبت الجريمةَ بلا وعي، مع أن العقوبة على جُرمها كان من المرجَّح أن تكون مخفَّفة نسبيًّا.

لكن هل ستكون العقوبة مخفَّفة؟ ليس بالنسبة إلى الليدي فيرا مويل على أي حال! فهي إما ستفلت من العقوبة أو تواجه عقوبةً هي أسوأ من الموت. قد يؤدي الوضع بسهولة إلى موت أمِّها؛ وتصير المأساة مأساتين في النهاية مع بقاء الليدي فيرا المسئولة الوحيدة عما حدَث. ليتها لم تكتشف ارتكابَها للجريمة! لن يكون موت كروتشر خسارةً للمجتمع؛ فالمجرمون الذين أمضَوا حياتهم في السِّجن مثله من الأفضل إزاحتهم عن الطريق سواء كانوا مجرمين أم لا. كان طبيب الجريمة مقتنعًا بذلك. كان يرى كروتشر من المجرمين الذين لا يُرجى شفاؤهم؛ لذا فالإبادة هي الحل الوحيد.

في بعض الأحيان كان يقول بجِدية بالغة: «سأغلق الإصلاحياتِ لكن سأوسِّع غرفة الموت.» لكنه لم يفلح لحظةً في أن يحمل نفسَه على أن التوصُّل إلى استنتاجٍ منطقي في القضية الحالية الخاصة بألفريد كروتشر والليدي فيرا مويل. كان بوسعه السَّماح بذهابِ مجرمٍ محترف، بريء من الناحية الفنية في هذه القضية بعينها، إلى المشنقة أو هكذا ظن حينئذٍ. لكنه في أعماقه لم يكن ليسمح بأن يعانيَ أعتى المجرمين بسبب ذنوب الليدي فيرا. كان العامل الشخصي الذي طرحته هو ما جعل الأمر مستحيلًا! يا له من حِملٍ ثقيل على روحها! وأيُّ عقوبةٍ أفضلُ من مواصلتها العيش مع هذا العبء!

عند كيترينج انعطف السائق يمينًا صاعدًا التلةَ ثم هبط إلى الوادي في روتلاند، وتوقَّف دولار عن التحديق في صورته المنعكسة على الزجاج الأمامي؛ ودفعته حاجةٌ ملحَّة إلى التحديق إلى ساعته بدلًا من القلق بشأن المستقبل. أخذت السيارة تدور حولَ أكثرِ الجدران الحجرية طولًا وسماكة في إنجلترا الإقطاعية والذي انقسم فجأةً إلى برجين توءمين ضمَّتهما بواباتٌ ثلاثية. فوق القوس المركزي قبَعت وحوشٌ رمزية بدَت وكأنها ترتفع لتلامس النجومَ بمخالبها؛ وتحت القوس تدلَّى مصباح لامع؛ كانت البوابات الثلاث مفتوحة، ووراءها امتد ممرُّ السيارات محفوفًا بالمصابيح الإرشادية. كان من الواضح أن هذه المصابيح هي مراسمُ احتفال كبير بالكريسماس يليق بقلعة ستكورشام.

بعد عدة أميال، أحاطت السيارات، في شبهِ دائرة، بالنسخة القروية من «موكب حراس الحصان» اللندني التي أطل عليها فندق فاخر بظلاله الوارفة؛ وأضافت السيارة التي كانت حقًّا قادمةً من لندن ومضاتٍ جذابة إلى منطقة الضوء. وأمام الرُّواق المُعمَّد البسيط نسبيًّا في هندسته المعمارية وقف خادم في غاية الأناقة، ونظر إلى معطف الطبيب المُستعار نظرةَ استهجان، لكنه اندهش رغمًا عنه عندما سأل الأخير بسرعة عن السيد توبام فينسون، ووافق أن يستعلم عنه بدوره.

قال الطبيب وهو يدُس نصف سوفرن ذهبي في يد الخادم خلسة: «اسأل عنه، بسرعة وهدوء، وأعطِه هذه البطاقة. أريد مقابلةَ السيد فينسون، لا أحدَ غيره، لأمرٍ طارئ يتعلق بوزارة الداخلية.»

بعد قليل جاء شخصٌ مهيبُ الطلعة حيَّاه السائق الأنيق بإجلال؛ حتى إن دولار لم يستطِع الجزْم هل هو الدوق أم رئيس خدمِه، إلى أن استُدعي إلى الداخل بترفُّع بارع من الخادم الرفيع الشأن. تقدَّم الطبيب دون أن يخلع معطفَه ذا الفراء ونظارته، يتبعه على بُعد ذراع رئيسُ الخدم، وعلامات الاستهجان بادية على ملامحه بصورةٍ طفيفة، والتي لم تغفلها عينا السائق اللندني القوي الملاحظة.

لربما كانت مراقبةُ السائق البارع ستبعث سرورًا لا متناهيًا لمن يعيره انتباهه. كان صموده وكفاءته المتَّسمان بالصمت، وحماسته الهادئة في مغامرةٍ قد تدخل في نطاقِ اهتمامه المهني، لكنها من الواضح لم تتسبَّب في إثارةِ فضوله بشكلٍّ فج، سماتٍ نالت حتى إعجابَ دولار المُعذَّب بين الحين والآخر في أثناء الرحلة. لكنه حينئذٍ فوَّت فرصةَ الحصول على مكافأة سخية. إذ كان السائق الشعبي منهمكًا في إدارة محرِّك السيارة عندما عاد الخادم الأول وتفوَّه بأشياء وسط الضوضاء. بعد ذلك نظر تحت غطاء السيارة

وفحص المحرِّك بعناية بالغة. لكن بلغ الأمر ذروتَه عندما وصلت الشطائر على صينية فاخرة، وأُعيدت زجاجةُ البيرة وأُحضرت زجاجة شمبانيا لإشباع ذوق السائق المعاصر. لم يكد الخادم يقدِّم الشراب والطعام إلى السائق، حتى عاود الراكب الظهورَ في صحبةِ شخص آخر يخفي هيئته بملابسَ كثيرة مناسبة للقيادة بالإضافة إلى الدوق، الذي أشرف على وداعهما بنفسه، ولم يبدُ هناك فارقٌ بينه وبين رئيس الخَدم في نهاية المطاف.

تضاءلت أضواءُ ستكورشام الكثيرة وتبدَّدت وسط الظلام، ومرَّت المصابيح فوق السياجِ الدقيق من النباتات والأجمة السلكية عَبر القرى الميتة والمدن النائمة مرَّ السَّحاب في السماء. داخل الهيكل الطويل لسيارة تالبويز المنيعة جلس دولار خلْف رفيقه في رحلة الذهاب، وبجواره وزير الداخلية بسيجاره الضخم، وساد صمتٌ مشحون بالتوتُّر، فيما اجتازت السيارةُ مقاطعتين كاملتين، لكن قُطِع هذا الصمت بصورةٍ مباغتة عند تخوم المقاطعة الثالثة.

بحدَّةٍ سأل توبام فينسون كأنهما يواصلان حديثًا لم ينقطع قط: «ألا تزال ترفض الإفصاح عن اسمها؟» كان عُقْب سيجاره الثاني قصيرًا للغاية، فامتزج الغضب المنبعث من عينَي فينسون بغضبِ فمِه.

قال دولار بصوتٍ مكتوم فيما يشير إلى الكتفين المحدودبتين القريبتين منهما: «لا أستطيع.»

قال وزير الداخلية باستهزاء: «في تلك الحالة ليس لدينا أسرار. لكن ما الذي يجبرك على هذا يا دولار؟ يبدو أن المرأة لم تعاملك بأي تحفُّظ، لكن انظر إلى حالك وإلى تحفُّظك الشديد.»

قال الطبيب: «هذا سرٌّ من أسرار غرفة الاستشارة يا سيد فينسون؛ أنت تعلم جيدًا أن قداسة أسرار من يلجئون لاستشارتي بنفس درجة قداسة أسرار الذين يعترفون بذنوبهم.»

قال الوزير: «هل تتوقَّع أن ألغيَ الحكم الذي أصدرته بناءً على اعترافٍ من مصدرٍ مجهول غير مباشر؟»

قال دولار بنبرة قاطعة: «أجل ... بدايةً. لن يضيرك التأجيلُ الفوري للحكم لكني لا أطلب منك هذا بناءً على كلامي غير المدعوم بدليل في ستكورشام. أنتَ تعلم ما يقبَع في جيب معطفك الطويل. سلِّمه إلى المحلِّل الخاص بك؛ واطلب فتْحَ القبر، إن شئت، لتتحقَّق من تطابُق السلاح مع الجُرح؛ وإن لم يتطابق معه، فأرسل الرجلَ إلى منصة الإعدام.»

ردَّ الوزير: «أشكرك على النصيحة الغالية. لكن لا بد من حسمِ القضية للأبد؛ لا نريد أن نزيدَ من معاناة الشقي المسكين؛ إذ يكفي ما لاقاه حتى الآن.»

سأل الطبيب: «أنسيت يا سيد فينسون أنك كنت ستحكم لصالحه حتى من قبلِ ظهور هذه التطورات التي قلَبت موازين الحكم؟»

ربما كان من السِّمات المنذِرة بالخطر في علاقتهما الآخذةِ في التطور سريعًا أن الرجل الأصغر سنًّا لم يكن قد سُمِح له بعدُ بإسقاط الألقاب الرسمية عند مخاطبة الوزير الذي يكبُره بعشر سنوات. لكنها لم تكن اللحظةَ المناسبة لرفع الكلفة التي تشجِّع عليها ظروفٌ أفضل. ومع ذلك تجرَّأ دولار على التربيت على يدِ الرجل العظيم في أثناء حديثه معه؛ كانت هذه الإيماءةُ مثلَ ثَلْم النقطة المستدقَّة في سلاح الشيش؛ إذ أطفأت هذه الحركةُ الذكية غضبَ الوزير فضلًا عن أنها حسَّنت مِزاجه على أي حال.

هتف الوزير في محاولةٍ لحسم السؤال العام على نحوٍ ودي: «لا جدوى من ذلك يا رفيقي العزيز! يجب أن أعرفَ اسم السيدة، إلا إذا كانت عازمة على إحباط مساعيها.»

سأل الطبيب: «أتقصد أن تقول إما اسمها وإما حياة كروتشر؟»

لم تكن نيةُ توبام فينسون أن يقول أيَّ شيء من هذا القبيل، وشعر بالاستياء من أن يُنسَب إليه قولٌ كهذا. لكنه كان قد أخذ على نفسه عدمَ الانزعاج منه بعد الآن. لن يجديَ هذا نفْعًا مع رفيقه دولار؛ على الأقل لم يُجدِ نفعًا في الوضع الحالي؛ لكن أيُّ أحدٍ قد يكون في وضعٍ غير مُواتٍ بعد التعرُّض لضغطٍ سياسي شديد، وخوض رحلة طويلة، وتناول عشاء فاخر، وإبلاغه بتطوُّر غيرِ مناسب من ناحية التوقيت وكذلك مُحرِج. عاد السيد فينسون إلى صمته متأسيًا على غير وعي منه بسلوك السائق المهذَّب. استدفأ بطيات دِثاره فيما دفن رأسه بين كتفيه. عندما بلغت السيارة تخومَ هارتفوردشير بدأ يتحدَّث من جديد.

قال معقِّبًا في نهاية المطاف: «فيرا مويل كانت تابعةً لفرقةٍ من فرق شارع أوكسفورد. وأنا على دراية بكل تحركاتها ليلةَ المعركة؛ وإلا لتعين عليَّ معرفتها الآن. لو خطر لي أنها كانت المرأة ...»

قال دولار بخمول: «ما الأمر؟ كنتُ نعسانَ.»

لم يأتِ تعليقُ الوزير بالتأثير المطلوب بعدما كرَّره على مسامع الطبيب، لكنه أكمل جملته المبتورة بصرامة: «سأجعلها تتجرع كأسَ المرارة حتى آخر قطرة.»

ردَّ دولار بشفقة: «لا أستغرب ذلك.»

هتف الوزير: «مع هذا تطلُب مني أن أخاطر بمكانتي السياسية من أجل أشباهها!»

قال الطبيب: «لا أفهم ما تعنيه.»

سأل الوزير: «أتريد تعليقَ إعدام المجرم غير الحقيقي، وتدَع المجرمَ الحقيقي يواصل نضاله العسكري على الأرض؟»

أجاب الطبيب: «أرى أنها قد اكتفت من القتال.»

هتف الوزير: «قطعًا لا!»

قال الطبيب: «أنا كفيلها إن شئت. كانت حادثةً غيرَ مقصودة. لقد انفطر قلبها من جرَّائها، وأنتَ لا تعرفها، أما أنا فأعرفها! سأضمن ألا تخاطرَ بوقوع حادثة مثل هذه!»

قال الوزير: «وماذا لو انقلبت عليَّ؟ إن انتشر هذا الخبر، فستكون هذه نهايتي يا دولار.»

ردَّ الطبيب: «لن تفعل ذلك!»

تسلَّلت حماسةٌ واضحة إلى صوت الطبيب. لم يكن واعيًا لها، وكان توبام فينسون أكثرَ دهاءً من أن يجعله ينتبه ويأخذ حِذْره بقولٍ يستحثُّه فيه بوضوح على أن يُفضيَ بما عنده. لكنه غامر بطرح سؤال استدراجي، وفعل ذلك بلباقةٍ تُوحي بأنه لا يستجوب الطبيب.

قال متبجِّحًا: «لا أحاول الوصولَ إلى ما أريده بطرقٍ ملتوية. فقد تخلَّيت عن محاولةِ استخراج المعلومات منك، يا دولار؛ لكن هل ستحدُث فضيحة كبيرة إن تعيَّن علينا أن نلصقَ التهمة بالسيدة الشابة؟»

أجاب الطبيب الذي لم ينتبِه لمحاولةِ الوزير لاستدراجه: «لا يمكنني الإجابةُ عن مسألة الفضائح. من الممكن أن يؤديَ هذا الإجراء إلى انفطار قلوب — وربما إلى الموت — وسيجعلها هذا تعتقد أنها أجرمَت مرتين، والرب وحدَه يعلم العواقبَ الأخرى التي قد تنجُم! ولن يعود هذا بأدنى نفعٍ على أي أحد؛ لأنه سيبقى متعينًا عليك أن تحكم على كروتشر بحكمٍ مناسب في جنايته الأصلية.»

كانت الساعة الثالثة في صبيحة الكريسماس عندما أبصرا أضواءَ لندن من فوق تلَّةِ بروكلي؛ وبعد دقيقة وصلا إلى خطوط الترام عند السفح وما لبثا أن بلغا تخومَ المدينة.

أبتِ الرحلة أن تنتهيَ دون تصرُّفٍ دالٍ على شخصيةِ السيد فينسون المتفرِّدة. فورَ أن بلغا ميدا فيل، أعلن الوزير فجأةً عن رغبته في التحقُّق من الهراوة، في تلك الساعات الأولى من الصباح، من خلال متجر الرهونات الذي كان قد باعها صباح يوم الإغارة

الخريفية. أصاب هذا الإعلان طبيبَ الجريمة بالهلع؛ إذ ربما يتذكَّر الرجل بيعَه للهراوة لليدي فيرا مويل. كانت السيدة ذائعةَ الصيت بكل تأكيد؛ وكان أمله الوحيد هو أنه هو نفسه لم يكن قد قابلها قبل ذلك اليوم. راح الطبيب يتذرَّع عبثًا بذرائعَ مختلِفة؛ إذ جابهه الوزير بحججه السابقة بشأنِ عواقبِ التعطيل الفوري لإعدام ألفريد كروتشر، فخشي أن يلحَّ عليه أكثرَ من ذلك. لم يكن الطبيب يعلم سوى اسمِ الشارع الذي يقع فيه متجر الرهونات، لكن نباهة السائق الشعبي تدخَّلت مرةً أخرى، ووجدا نفسيهما يطرقان البابَ الحديدي للمحل الصحيح في الساعة الثالثة والنصف صباحًا. لاحت الأضواء في النافذة العلوية، ورُفع إطارها، ومنها انبثق وجهٌ غاضب.

قال أحد الرجلين المتدثِّرين بنبرةٍ كئيبة: «اسمي توبام فينسون. أنا وزير الداخلية، لكن لا يمكنني إجبارك على النزول والتحدُّث إليَّ لمجردِ أنني وزير الداخلية. سأجزل لك العطاءَ بشكلٍ أو بآخر إن فعلت ذلك.»

انشغل الوزير بالتنقيب عن حقيبته التي تحتوي على عملات السوفرن الذهبية وهو يتحدَّث إلى الرجل. في غضونِ دقيقة كان باب المكان قد أُغلق خلفهما، وجرَّ كائنٌ مُتذلل قدميه أمامهما فيما يريهما معتكَفه الخاص الذي كان لا يزال يتضوَّع برائحة توابل نفاذة.

قال الرجل ذو الرأس الأشعث البارز من الدِّثار: «أتذكر أنني رأيتها في المتجر. لكن لا أعلم كيف وصلت إلى هنا، يمكنني أن أقسمَ على ذلك في المحكمة يا سيدي! إنها أداة وحشية بغيضة، لكن أقسم لك أنها كانت موجودةً قبل أن أتولى زمامَ أمور المتجر.»

قال توبام فينسون وهو يحصي عملات السوفرن الذهبية في الحافظة الذهبية المتصلة بالساعة التي تحمل قيمةً عاطفية أو ذكريات لا علاقة لها بالوضع الحالي: «لا أبالي كيف أو متى جاءت إلى هذا المكان. ما أريد أن أعرفه هو هل تتذكَّر بيعَ هذه الهراوة؟»

أجاب الرجل: «أجل!»

سأل الوزير: «متى؟»

ردَّ الرجل: «قد يكون ... دعني أتذكَّر ... في وقتٍ ما في شهر أكتوبر أو نوفمبر.»

سأل الوزير: «أتتذكَّر من اشتراها؟»

أجاب الرجل: «أجل ... سيدة شابة!»

تنفَّس دولار الصعداء. لم يكن الرجل يعرف اسمَها؛ في البداية خشي بشدة أن يتذكَّر الرجل هيئةَ السيدة. لكن الطبيب ساعده واقترح عددًا من السِّمات البارزة التي لا تمتلكها

الليدي فيرا مويل دون أن يؤنِّبه ضميره على هذا التدليس. سقط الرجل في الفخ مباشرة، وتذكَّر أوصافَ المرأة التي هي من بنات خيال دولار، ونال في النهاية قطعةً ذهبية كبيرة، من خلال الربط بطريقة مقنعة جدًّا بين بيع الهراوة وتوقيتِ المداهمةِ الواسعةِ للنساء. بدا السيد فينسون في غاية الصرامة وهو يقود الطبيب إلى الشارع؛ وكان هو من أيقظ بخشونةٍ السائق، الذي كان يغطُّ بصوتٍ عالٍ فوق عجلة القيادة.

تمتم الوزير: «يعجبني ذلك الفتى. إنه يؤدي عملَه على أكمل وجه. وهكذا أنا! هلَّا تنزلني أولًا في ميدان بورتمان؟»

أصدر دولار أمرَه للسائق، وانسابت السيارة عَبر الطرقات الفارغة بحيوية ونشاط، كأن السائق والسيارة غادرا المرأب من فورهما. لم يكن هناك مخلوق واحد في ميدان بورتمان، وكانت نوافذ المنازل كلُّها مظلِمة باستثناء منزل وزير الداخلية. كان قد ورد اتصالٌ إلى منزل الوزير من ستكورشام بعد مغادرته، وفُتح الباب أمام الوزير فيما نقد هو السائقَ بعملات السوفرن الذهبية المتبقية، قبل أن يقبض على يد دولار بحرارة.

قال توبام فينسون: «لا يمكنني أن أدعوك إلى الداخلِ هذه المرة. فعلاوة على تأخُّر الوقت لا بد أن أُجريَ بعض الاتصالات العاجلة وأتواصل مع بنتونفيل، وأقُضَّ مضجعَ الحاكم!»

شهق الطبيب: «هل تأجَّل الحكم؟» كانت هذه هي العبارةَ الوحيدة التي خرجت من شفتيه.

أومأ وزير الداخلية إيجابًا بتجهُّم بالغ، لكن ارتسمت على محيَّاه ابتسامةٌ فيما أغلق الباب بسرعة حتى لا يقبض جون دولار على يده مرةً أخرى. سُمِع من الداخل صوتُ إغلاق المزلاج على عجلٍ.

استدار دولار ببطء، وهو يتساءل إن كان بوسعه أخيرًا أن يخبر السائقَ عن مغامرةِ الليلة التي أدَّى فيها دورًا بطوليًّا. لكن لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك. نظر إليه السائق ببلاهةٍ ثم انهار فوق عجلة القيادة مرةً أخرى. لكنه لم يكن نائمًا هذه المرة، وإنما فاقدًا للوعي تمامًا؛ وكانت نظارة القيادة مائلة تمامًا على وجهه، وتدحرجت قبَّعته عن مكانها، وتناثر شعره فوق رأسه.

كان شعر فتاةٍ، وكانت الفتاة هي الليدي فيرا مويل.

الفصل الثالث

حالة مستعصية على الشفاء

١

كان على هيئةِ ألفريد كروتشر سَمت المجرمين، في توافقٍ مع حقيقته. كانت عيناه تفيضان بمكرٍ سوقي، وشفتاه خشنتين قاسيتين؛ ولم يكن يمكن لأي ملابسَ فاخرة أن تخفِّف من فظاظة ملامحه أو الإيحاء ولو للحظة بأنه رجلٌ نبيل أو مُنعَّم مهذَّب. ولكن في كثيرٍ من الأحيان، كان مظهره المهلهَل يوحي بإجرامه، بخلاف صباح يوم خروجه منتصرًا من السِّجن، فقد تضاءل رأسه المستدق تحت قبعة مُستعارة، واختفى قوامه المخيف في معطف من ماركة باربوري، أضفى عليه لمسةً رصينة لا تتناسب مع ذوقه.

ولم يكن هذا هو التغيير الوحيد الذي طرأ على السيد كروتشر خلال هذه الأزمة السارة في مساره المهني. التمعت عيناه الجاحظتان في عجب، ما أخمد بريقَ انتصاره نسبيًّا؛ وانصبَّتا بافتنان غير مقصود على الرجل الطويل، صاحبِ القبَّعة المستعارة، الذي لم يكن قد رآه قبل الساعة، لكنه هرول في أعقابه، تاركًا جوف السِّجن، ومتجهًا إلى السيارة المتلألئة تحت أشعة الشمس، فيما وراء مبنى السجن.

هتف كروتشر، في ردة فعلٍ متأخرة، فيما امتنع عن القفز داخل السيارة كما طُلب منه: «مهلًا! لم أسمع اسمك جيدًا بالداخل، فضلًا عن أنني لا أفهم علاقتك بي وبشئوني الخاصة. إن أتيت بطلب من محاميَّ، فأرغب في معرفة السبب؛ وإن كنت في مهمةٍ دينية، فخُذ أشياءك، ودعني وشأني.»

قال السائق: «اسمي دولار. لم أحضُر في مهمة قانونية ولا دينية، ولا حتى طبية، مع أنني طبيب. بل جئت بناءً على طلب صديق لك، وقدِمتُ في سيارته، لأرى ما يمكنني أن أفعلَه لأعوضك عن كلِّ ما مررت به.»

صاح كروتشر بعدم تصديق مثيرٍ للانتباه: «صديق لي!»

ابتسم الطبيب ابتسامةً جافة، وهو يقول: «هو أحدُ الأصدقاء المجهولين الكثيرين الذين فُزت بصداقتهم في الآونة الأخيرة يا سيد كروتشر. كما أنني أرغب في أن أتخذك صديقًا لي ولو في جولة صغيرة ووجبة إفطار في منزلي. هناك الكثيرون ممن يتعاطفون معك، بدرجةٍ لن يدركها خيالك، بل إن البعض على استعدادٍ لأن يُظهِروا لك تعاطفَهم بالطريقة التي تروق لك. لكن لن أقفَ هنا إلا إذا كنت تريد مظاهرةً جماهيرية أولًا.»

قرَّر السيد كروتشر تجاهُل الشكوك التي تثيرها مظاهرُ العطف في نفسه، واتخذ مقعده في السيارة دون أن يتفوَّه بكلمة أو يلقي نظرةً على حَفنة المارة الفضوليين الذين بدءوا يحتشدون على الرصيف. وسرعان ما اندهش من حماقته التي دفعته إلى التردُّد بدايةً. خرجت السيارة بسرعة من ظل السِّجن إلى الشمس الربيعية المشرقة، وانسابت فوق نهر التايمز المتلألئ، وشقَّت طريقها عبْر الازدحام المروري للساعات الأولى من النهار، دون عقبات أو صعوبات. أمسك الرجل النبيل لسانه، وترك نفسَه لنظرات الراكب الفاحصة الجانبية، كما يليق برجل نبيل. لكن معاينة كروتشر للطبيب لم تفصح عن الكثير عندما بلغا شارع ويلبك، باستثناء أنه بدا ذكيًّا جدًّا على أن يكون شخصًا غريب الأطوار وغليظًا مقارنةً بتصوُّره عن معشر فاعلي الخير.

أزالت وجبة الإفطار أيَّ شكوك كانت باقيةً لدى السيد كروتشر، ولو كان محنكًا بما يكفي لولَّدت فيه الشكوك بدلًا من إزالتها. كان الفطار إنجليزيًّا يليق بحاكم أجنبي؛ إذ اشتمل على سمك موسى، وكُلى، وبيض ولحم خنزير، وخبز ساخن، وقهوة فاخرة أنست السيد كروتشر اشتهاءه للمشروبات الكحولية. استغرب الرجل تقديمَ مثل هذه الوجبة السخية على طاولة قديمة سوداء عارية من أي غطاء، فضلًا عن المقاعد الجلدية ذات المسامير الضخمة التي تليق بمتحفٍ لا بمنزل رجل نبيل. لكن السيجار، الذي قدَّمه الطبيب لاحقًا دون أن ينضم إليه في تدخينه، ارتقى لأعلى معايير الزائر مقارنةً بما سبق فأثنى عليه أيما ثناء.

قال الطبيب بابتسامةٍ أكثرَ دفئًا: «يمكنك تدخين الصندوق بأكمله إن أردت المُكث معي.»

هتف كروتشر بعد أن عادت إليه شكوكه: «أمكثُ معك! ولمَ أفعل ذلك؟»

أجاب الطبيب: «لأن هناك أماكن أسوأ، يا كروتشر، وقد تركك أحدها محطَّمًا قليلًا.»

هتف كروتشر بأنينٍ غاضب: «قليلًا! لقد أساءوا معاملتي، أيها الطبيب، إن أردتَ أن تعرف. لقد أمضيت شهرين من الأشغال الشاقة دون أن يصدُر في حقي حكم، وشهرًا

آخرَ في زنزانة الإعدام من أجل جريمة لم أقترفْها! تلك هي المعاملة التي تلقيتها منهم، وهي معاملةٌ قاسية لا تليق بكلب مسعور. وما الذي فعلته؟ سرقتُ الأشياء التي وجدتها أمامي، من شدة الجوع، وواجهة محل المجوهرات كانت مكسورة بالفعل بعد أن هشَّمها شخصٌ ممن لم يمروا من قبلُ بما مررت به من إغراءاتٍ وتجارب. لا أقول إن ما فعلته كان صائبًا، فلا تسِئ فهْمي؛ لكن هذا كلُّ ما فعلته، وليس تلك التُّهم التي ألقَوها عليَّ جزافًا ولم يستطيعوا إثباتها. لقد عجزوا عن إثباتها، لأنني لم أرتكبها في الأصل؛ لم يستطيعوا شنقي، لأنهم لم يتجرءوا على ذلك؛ لكنهم مع ذلك جعلوني أعاني. لقد أهدروا عشر سنين من عمري؛ لقد عرَّضوني لمحنة لن أنساها حتى مماتي. ولم يكفِهم ذلك، فاحتجزوني مدة شهرين عصيبين آخرين، بلا قاضٍ ولا هيئة محلَّفين، وأطلقوا سراحي بعدما صرتُ، على حدِّ وصفك، «محطَّمًا قليلًا»، أما أنا فأعرف أنني صرت ميتًا وإن كنتُ حيًّا أتنفس.»

مسح كروتشر المحطَّم جبينه الرطب بسبب آلام البلع وعينيه اللتين لم تدمعا إطلاقًا، قبل أن يستخدم قداحة لإشعال سيجار «أوبمان» الذي كان قد أهمله.

علَّق الطبيب بنبرة خالية من التأثُّر: «ما تقوله هو عادل تمامًا، لكن من العدل أيضًا أن تتذكَّر أن آخرين كانوا يدافعون عنك منذ فترة، ونتيجةً لذلك أُطلِقَ سراحُك هذا الصباح. أعترف أنني خشيت أن تطول مدةُ بقائك في السِّجن؛ لكنني على ما يبدو لم أكن مستوعبًا تفاصيلَ جنايتك الحقيقية. أما فيما يخصُّ معاناتك الجسدية والعقلية، فيمكنني أن ألاحظ بعضَ آثارها، وعلى الأقل هذه يمكنني علاجها. وهذا ما دفعني إلى اللقاء بك، وربما وجب التنويهُ في الحال، أنها لم تكن فكرتي. لقد كانت فكرة ذلك الصديق المجهول الذي حدَّثتك عنه؛ لكني على استعداد لتنفيذها. إنني أدير ما يشبه دارَ رعاية في منزلي، وهناك فراش جاهز لك إن كنت ترغب في شَغْله.»

قال كروتشر، متخيلًا الشاش والأربطة في وَجَل: «دار رعاية! ما بي من خَطْب لا يستدعي الذهاب إلى دار رعاية.»

قال الطبيب، وهو ينظر إلى الصحون الفارغة: «الراحة علاج لكل الأمراض — الراحة والحِمية الغذائية — هذا ما أعتقده.»

سأل كروتشر، فيما يفكِّر في الكُلى على وجه التحديد: «ولكن ألن يكلفني ذلك الكثير؟» وأوضح بمرارة شديدة: «فأنا مفلس كما ترى.»

قال الطبيب بعبوس: «صديقنا يُصِرُّ على التكفُّل بنفقاتك.»

سأل كروتشر: «ومن هو صديقنا الرائع، أيها الطبيب، ومتى سيحضُر، أو ستحضُر، إلى المنزل؟»

ضحك الطبيب فيما دفع مقعدَه إلى الوراء. «هذا هو الشيء الوحيد الذي ليس مأذونًا لك بالسؤال عنه؛ لكن اصحبني إلى الأعلى وتفقَّد الغرفةَ قبل أن تتخذ قرارك وترفض عرْضي.»

قبعت الغرفةُ في أعلى المنزل، من الناحية الخلفية، وهي أقلُّ فخامة من الغرف التي كان وزير الداخلية قد تفقَّدها سابقًا، لكنها كانت مؤثَّثة بالدرجة نفسِها، وأكثرَ جاذبية في ضوء الصباح، وبها نار تطقطق في المدفأة. بجوار المدفأة قبع مقعدٌ أبيضُ من الخوص، وطاولة زجاجية زاخرة بآخرِ الإصدارات الأدبية وأبسطها، الشهرية والأسبوعية؛ وكانت منافض سجائر وعُلب ثقاب موضوعة في مكان بارز؛ وبها سرير طُويت أغطيته البيضاء النظيفة استعدادًا لعناق الضيف الجديد، وكانت منامة زاهية ورداء حمام معلَّقين في خطافات نحاسية لامعة.

فسَّر الطبيب: «المرحاض في الغرفة المجاورة. يمكنك أن تستأثر به تقريبًا لنفسك، لكن غرفتك هي قلعتك الخاصة.»

وأشار الطبيب إلى مزلاج جيد على باب الغرفة.

سأل كروتشر بارتياب: «ألن تحبسني من الناحية الأخرى؟»

أجاب الطبيب: «بالطبع لن أفعل؛ يمكنك الاحتفاظُ بالمفتاح؛ لكن أنتظر منك أن تلزمَ غرفتك وبطبيعة الحال، ألا تغادر المنزل. لستَ سجينًا بشكلٍ من الأشكال؛ لكن إذا خرجت من المنزل، يا كروتشر، يؤسفني القول إنه لن يمكنك العودة إليه. لن يفلح العلاج الذي أقدِّمه إلا بهذه الطريقة؛ فما تحتاجه أولًا هو الراحة التامة وعدم التعامل مع العالم الخارجي كما لو كنت في زنزانة انفرادية.»

سأل كروتشر فيما ينظر بعينيه الجاحظتين إلى الطعام: «وماذا عن الطعام الصحي المفيد؟»

ردَّ الطبيب: «ستحصل على الكثير من الوجبات المُشبِعة. قد لا تكون مشبِعة مثل وجبة الإفطار هذه لأنك لن تمارس أيَّ تمارين رياضية. لكنها ستكون مشبِعة على أي حال.»

سأل: «هل سيكون هناك ولو القليل من المشروبات الكحولية، أيها الطبيب؟»

أجاب: «مع الوجبات، وباعتدال، بالتأكيد؛ لكن لا تطلب مني الشرابَ المهدئ قبل النوم ولا تحاول تهريب المشروبات الكحولية إلى المنزل.»

هتف كروتشر بإصرارٍ متعفف: «لا يمكن أن أُقدِم على مثل هذا التصرف! أنا طوع أمرك، أيها الطبيب، وعلى استعداد لتسليم نفسي متى تشاء.»

وحلَّ أزرار صُدرته البالية في لمحِ البصر.

قال الطبيب: «مهلًا، إن كنت حقًّا ستأتي إلى منزلي، وتمكث هنا، فسأتصل بالخيَّاط الخاص بي، الذي لن يستغرق إلا القليل من الوقت ليحضُر.»

هتف كروتشر: «خيَّاطك! ما جدوى حضوره؟»

أجاب دولار بصراحة تلقائية: «هذا سؤال جيد! هذا الصديق الوفي، الذي كان أول من أصرَّ على براءتك والذي تَدين له بما لا يخطُر على بالك، يتحرق شوقًا لأن يمنحك بدايةً جديدة في الحياة وملابس جديدة لهذه الحياة.»

أعلن ألفريد كروتشر دون تحفُّظ لأول مرة: «حسنًا! أرى ذلك أمرًا رائعًا. لن أحاول سؤالك عن هذا الشخص مرة أخرى، لكن سأعيش على أملِ أن أعرفه يومًا ما، وأشكره على ما أسداه إليَّ من معروف، كما يليق برجلٍ.» وأضاف: «لا يفعل جميع الناس هذا، ولكنه ما يجب أن يفعله الأغنياء، أن يمدوا يدَ العون لشخص فقير مثلي عُومل معاملةً سيئة بلا ذنب. لكن لا ينظر الجميع إلى الأمر على هذا النحو، وهذا ما يجعل المرءَ ينظر نظرةً أفضلَ إلى العالم عندما يقابل أولئك الذين يفعلون ذلك.»

قال الطبيب بنبرةٍ لم يفهمها مريضه الثرثار على الإطلاق: «أتفق معك.».

وذهب المريض الفاضل إلى أبعدَ من ذلك بأن قال: «أشعر بالامتنان لهذا الصديق، ولك أيضًا، سيدي، إن جاز لي القول.»

انتهز الطبيب الفرصةَ لكي يتكلَّم بصراحة بدوره.

وقال: «أؤكد لك، يا كروتشر، أنه لا داعيَ لذلك. أقول لك بوضوح شديد إن جميع الخدمات التي أقدِّمها لك تعود إلى اتفاقٍ تجاري مسبق مع ذلك الصديق الذي يهتم بمسيرتك المهنية بشكلٍ استثنائي.»

قال هذا الكلام، ولا سيما الجمل الاعتراضية، بنبرة امتعاض، مما استدعى نبراتٍ وجملًا أخرى إلى ذاكرة السيد كروتشر القوية. في غمضة عين كانت هذه الجُمل قد تجمَّعت مع نظيرتها في عقله المتشكك، وظهرت دلائلُ ذلك على وجهِه بوضوح شديد، حتى إن دولار شعر بالارتياح عندما وجد نفسه، لا أحد غيره، محلَّ الريبة.

قال كروتشر بغضب مكشِّرًا عن أنيابه: «تتحدَّث كأن ما حدث عكس رغبتك. هل كنت تظن طوال هذا الوقت أني من فعلها؟»

ردَّ الطبيب: «لا أفهم ما تقصده يا كروتشر.»

غمغم كروتشر بصوتٍ مبحوح من فرط انفعاله: «أقصد الجريمةَ الكبرى — أول جريمة — التي كدتُ أُشنَق بسببها!»

قال الطبيب بنبرةٍ غيرِ متوقَّعة: «لا؛ لا أظن ذلك مطلقًا»؛ ثم تنهَّد وكأنه يأسف على أن مريضه قد أساء فهْم نواياه تجاهه.

كان هذا على الأقل التفسيرَ الذي توصَّل إليه المريض لتصرفات الطبيب غير المُرضية في مجموعها؛ ولو أن بعض الشكوك كانت لا تزال تراوده فإنها كانت عديمة الأهمية مقارنةً بما يوفِّره منزل الطبيب من وسائل الراحة. كان الفراش والغرفة أفخمَ ما استخدمه ألفريد كروتشر في حياته؛ وكانا بعد ما لقيه في السِّجن مثل دخول الفردوس بعد معاناة عذاب شديد في جحيم دانتي. مدَّد كروتشر أطرافه الضخمة على الفراش في سكينة لا يعكِّرها شيء، وغطَّ في النوم وهو يحلُم بالأطقم اللامعة الفاخرة التي أخذ الخيَّاط قياساتها، ولم يستيقظ إلى أن حلَّ المساء.

عندما استيقظ كروتشر من نومه أخيرًا، أعدَّ الخَدم وجبةً خفيفة مُشبعة، وكان هذا أقلَّ ما يمكنهم فِعله لتعويضه عن عدم إيقاظه لوجبة الغداء؛ لكن تذمُّره الواضح في هذا الصدد قد نُسي وسط شهيته النهمة لوجبة العشاء والانتقاء الماهر اللامتناهي للأطعمة الفاخرة. كانت شرائح اللحم والبصل أقوى فصل في دراما رومانسية مثيرة لمست شِغاف قلبِ هذه الشخصية القاسية. ولو أن لائحة الطعام كانت قد قُدمت لألفريد كروتشر، كان سيختار شرائحَ اللحم والبصل، متبوعةً بطبق ريربيت الويلزي؛ وهذا ما حدث بالفعل، كما لو كان سحرًا. لا يمكن قولُ الكثير عن الشراب؛ كان المريض سيسعد بمقدارٍ كبير قوي المذاق من البيرة. لكن ما ناله كان كميةً قليلة من شراب جيد، حسب تقدير السيد كروتشر؛ وقرَّر ألا يشتكيَ من جودة الشراب أو كميته حتى لا يترك انطباعًا سلبيًّا.

أدار المريض عينيه في مَحجِريهما، عندما راقبه الطبيب مرةً أخرى، وغمغم قائلًا: «لقد عاملتني معاملةً ممتازة. معاملة ممتازة، بلا أدنى شك. لم أتذوق شرائحَ لحم فاخرة مثل هذه من قبل. كما كان النبيذ ذا نكهة قوية. لم أكن يومًا شرِّيبَ خمر، لكن هناك أوقات تبدو فيها مفيدة.»

ردَّ دولار بجِدِّية: «ستتناول الخمر بصفةٍ مستمرة، لأغراض علاجية. لكن لا تتوقَّع الحصول على النوعية نفسِها التي حصلت عليها اليوم. ستتناول ثلاث وجبات في المستقبل، لكنها ستكون وجبات أخف. اليوم الأول كان مختلفًا، وحاولت أن أضع نفسي مكانك،

وفي الحقيقة أشعر بالسعادة لأنه يبدو أني أفلحت في ذلك في المجمل. لكن تذكَّر أنك هنا لتبقى بعيدًا عن الأنظار، ولن يتحقق هذا بتناول كميات كبيرة من الطعام. هذا يكفي اليوم، يا كروتشر! تفضَّل الأزهار التي أرسلها لك صديقك السري، والسيجار الذي وعدتك بالحصول عليه هذا الصباح. يمكنك أن تحكم على الواهب من هِباته.»

لعلَّه كان من الجيد أن ألفريد كروتشر لم يحاول التريُّث في فهمِ هذه المقولة؛ لأن هذه الزهور النادرة كانت بلا قيمةٍ له مثل حبات ماس معلَّقة في عنق أحدِ أقرانه من الخنازير، أما صندوقُ سيجار «أوبمان» فكان ذا قيمة كبيرة له بنفس القدْر الذي يمثِّله حوضُ فضلات لخنزير. أشعل سيجارًا على الفور؛ ولم تمضِ سوى ساعات قليلة حتى غطَّ ذلك النائم القانع في نوم عميق مرةً أخرى، بعدما أوصد باب غرفته وأغلق مزلاجه تماشيًا مع مبادئه الشخصية، فيما أخذت النار المتوهجة تخبو تدريجيًّا في المدفأة.

٢

ربما يكون سقوط قطعة فحم هو ما أيقظه من نومه. كان هذا أولَ ما خطرَ ببال كروتشر البريء. لكن ذلك الصوت لا يصدُر إلا عن وابلٍ من الفحم — وابل خفيف لكنه متواصل — ينهمر بجلجلة معدنية حادة غريبة. والأكثر من ذلك أن الصوت لم يكن ينبعث من المدفأة بأيِّ حال من الأحوال، بل على ما يبدو من النافذة في الطرَف المقابل من الغرفة.

أرهف كروتشر السمعَ راقدًا في فراشه حتى لم يعُد من الممكن خداع حواسه المتحفزة. ثمَّة شخصٌ ما قريب من نافذة غرفته، وتذكَّر كروتشر، بقلق واضطراب، أن نافذته هي النافذة العلوية الوحيدة التي يمكن اختراقها عبْر السطح الرصاصي؛ لذا فإنها كانت تحتاج لتأمينها إلى قضبانٍ حديدية بطبيعة الحال إلا أنها لم تكن مؤمَّنة. كان هو نفسه قد فكَّر في أمرِ النافذة غير المؤمَّنة والسقف المؤدي إليها، في اللحظات الأخيرة ليقظته، واعتبره حلًّا غير مستبعَد لمشكلة الويسكي.

لكن الوضع الحالي هذه المرة كان مختلفًا؛ بل كان مريعًا؛ ويستدعي تنبيهَ أهل المنزل بلا تردُّد أو تأخير. كان لا بد أن تكون هذه اللحظة عظيمةً لشخص مثله ذي خبرة في السرقة، كان قد أمضى سابقًا سبعة أعوام في السِّجن بسبب عملية سرقة طامحة؛ لكنَّه ضَعف الشخصية الذي كان قد أسفر عن فشل تلك العملية، عندما حاصره صاحب البيت المسن بمسدسٍ غير محشوٍّ، جعل السيد كروتشر عاجزًا عن تقدير الوضع الحالي كما يجب. كان كروتشر في غاية الاضطراب حتى إن ذلك منعه من أن يتذكَّر حادثة

السرقة السابقة، أو يشعر للحظة وكأنه مثل سائقٍ يركبُ حافلةً في عطلته المثالية أو ممثلٍ موجود في الحيِّز المخصَّص للجمهور وليس على خشبة المسرح. شَعر كروتشر بغضب مرير لتعرُّضه لهذا الترويع في الليل مع أنه كان مريضًا في دار رعاية؛ وتحلَّى بقليل من الشجاعة (ولمحة من فضيلة بدائية) عندما فُتح مزلاج النافذة بنفس قدْر الضوضاء الذي كان هو نفسه سيصدره. وقبل أن يحدث أيُّ شيء آخر، كان السيد كروتشر قد عاد ليرتمي على وسادته وأخذ يغط بصوتٍ عالٍ.

ثم رُفع إطار النافذة ببطء شديد، وعبَر شخصٌ النافذة، ثم تحسَّس الأرضية بحذرٍ شديد، وفي تلك اللحظات، التي بدت لألفريد كروتشر وكأنها دهرٌ كامل، عانى الأخير معاناةً تفوق بكثيرٍ ما لقيه في زنزانة الإعدام عندما اقترب موعد تنفيذ حكم الإعدام. انحنى الوحش المجهول فوقه، ولامست أنفاسُه الحارة وجهَه، غير أنه لم يلمس جسدَه المتجمِّد خوفًا.

قال صوتٌ مبارك، فيما تسلل شعاع ضئيل من الضوء إلى جَفنيه المطبقين: «ألفي! هذا أنا يا ألفي!»

ومرةً أخرى تظاهر ألفريد كروتشر بأنه استيقظ للتو، مستعيدًا رباطةَ جأشه. وقال بصوت مبحوح ممزوج ببكاء جنائزي: «شودي! هل أنا نائم وأحلُم مثل طفل رضيع؟! عجبًا، ماذا تفعل هنا، بحق الجحيم، يا شود؟»

قال شودي: «أتيت لرؤيتك أيها العجوز. بالأحرى أردت أن أسألك ما الذي تفعله في منزلٍ مثل كهذا؟»

همس المريض المتحمِّس: «أستمتع بحياتي. أعيش في رفاهية، دون أن أبذل أيَّ مجهود، على نفقة عجوز لعين!»

وقصَّ على مسامع الرجل، الذي كان لا يزال على مقربةٍ شديدة منه، الأمورَ التي لا تُصَدَّق التي حدثت في يومه الأول في الحرية، بدايةً من تعرُّفه على الطبيب دولار، في ضواحي السِّجن الذي كان سيكون مقرَّ إعدامه وقبره القبيح.

قال شودي: «أعرف. لقد رأيتك تخرج من السِّجن في صحبته وتستقل سيارته مثل سيدٍ مهيب. كنت أنتظرك بسيارة أجرة ...»

سأل: «أكنت هناك للقائي يا شود؟»

أجاب: «هذا صحيح. بهذه الطريقة اقتفيت أثرَك إلى هذا المنزل. استغرقتُ بعضَ الوقت للعثور على غرفتك؛ لكن لديَّ صديقٌ قديم يعمل في المرأب. قادني هذا الصديق إلى الجزء الخلفي من المنزل ولم أصدِّق عينَيَّ عندما رأيتك من النافذة!»

قال: «لا بد أن هذا حدَث في أوَّل اليوم، أليس كذلك؟ لقد قضيت أغلبَ اليوم في الفراش. يا له من فراش وثيرٍ يا شودي! سأنام عليه حتى يصير رأسي مثل البطاطا المهروسة قبل أن أفكِّر في مغادرته.»

قال شودي بحزم: «لن تفعل. ستأتي معي يا ألفي. لهذا السبب جئتُ إلى هنا.»

ردَّ ألفي بحزمٍ مماثل: «لن أذهب. أعرف متى أكون في وضعٍ مُواتٍ، وأنا كذلك الآن.»

أومأ شودي بتظاهُر بارع بالشفقة: «أتفق معك تمامًا!» كان قد أبقى مصباحه الكهربائي مضاءً طوال الوقت؛ فاتضح في ضوئه المعاناةُ التي لقيها صديقه وانعكست على عينيه الجاحظتين ووجنتيه الغائرتين وشفتيه المرتخيتين ونظرته المتوترة. أضاف: «لا بد أن هذه التجربة أخذت منك ما أخذت يا ألفي!»

تذكَّر كروتشر بانقباض: «وكل هذا من أجل فَعلةٍ لم أقترفها.»

وافقه الأخير بحماسة فاترة: «هذا صحيح. ولكن لهذا بالضبط أتيتُ إلى هنا، يا ألفي. لم تحسَب أنني اضطلعت بمهمةٍ كهذه لمجرد أن أمسك بيدك، أليس كذلك؟ فعلت ذلك، فقط لأنه بدا لي أنك لم تقترف تلك الجريمة، فتعيَّن عليَّ أن أراك بأيِّ وسيلة ممكنة قبل أن ينقضيَ اليوم.»

سأل ألفي بتورية: «ولمَ العجلة يا صديقي؟» لكن صديقه، البارع في سردِ القصص، مثل غيره من رُواة الأحداث الحقيقية، ما كان ليخبره عن التفاصيل الأساسية، حتى يبديَ جمهوره اهتمامًا شديدًا ويطلب المعلومات بشغف.

جلس كروتشر في فراشه، فيما أخذ شودي الساخط يتفقَّد الغرفةَ على أطراف أصابعه، وخلال ذلك رأى، في ضوء مصباحه الكهربائي، البابَ المُوصد بإحكام والصندوقَ المغري الذي يحوي سيجار «أوبمان». دون استئذان أخذ سيجارًا، وقبل أن يواصل جِلسته على الفراش، كان قد دَخَّن سيجارين.

كرَّر شودي السؤال، وكأنما مرَّت ثوانٍ وليس دقائق على هذا السؤال المُبهم: «لمَ العجلة؟». أجاب: «لا يوجد ما يدعو للعجلة حسب علمي — ليس الليلة على الأقل — لكن قد يوجد قريبًا؛ لذا أردت أن أخرجك من هذا المكان. إذا لم تكن قد ارتكبت هذه الجريمة، يا ألفي، ألا ترى أنه لا بد أن شخصًا آخرَ قد فعل؟»

قال كروتشر، همسًا: «أكمِل حديثك!»

قال: «حسنًا، إذا لم تكن أنت من قتل ذلك الشرطي في أثناء تلك الاضطرابات — وكلانا يعلم أنكَ لم تفعل — فهذا يعني أن شخصًا آخرَ قتله!»

سأل كروتشر: «أتقصد أنك تعرف من فعلها؟»

كان قد ساد صمتٌ قصير مفعَم بالتوتر؛ وكانت ثمَّة لحظةُ توتُّر أخرى انشغل شودي خلالها بنقل المصباح من يده اليسرى إلى يده اليمنى، وأخذ نفَسًا من سيجاره، ثم أطلق سحابةً من الدخان فوق رأس رفيقه المضطجع في فراشه.

أجاب: «أعرف ما يقوله الجميع، يا ألفي.»

ردَّ كروتشر: «لقد تردَّدت أقاويلُ كثيرة حول هذه المسألة من قبل. ماذا يقولون؟»

قال شودي: «إحدى السيدات المطالِبات بحق المرأة في التصويت ...»

قاطعه كروتشر: «قتلت الشرطي؟»

أجاب: «بالضبط، يا صديقي.»

هتف كروتشر: «لم يخطر هذا ببالي قط!»

قال شودي: «أليس هذا احتمالًا يستحق بعضَ التفكير فيه؟ عجبًا، أنتَ ترتجف بشدة مثل ورقة شجرة ملعونة!»

قال كروتشر: «لا غرابة في ذلك! كنتَ ستفعل مثلَ هذا لو أنك كنت قد مررت بما مررت به ... يا شود!»

ردَّ شود: «ماذا تقصد يا ألفي؟»

قال كروتشر: «أدركتُ الآن كيف حدثت الواقعة اللعينة برُمَّتها!»

عقَّب شودي: «توقعتُ أنك ستفعل.»

قال كروتشر: «الفاعل هي السيدة التي كسرت واجهةَ متجر المجوهرات من أجلي!»

قال شودي: «هذا ما يقولونه.»

سأل كروتشر: «هم؟ من تقصد؟»

ردَّ شودي: «الكثير من الأشخاص. تتردَّد هذه الأقاويل في الأرجاء؛ وقد ألمح بعض مروِّجي الإشاعات إلى هذه المسألة. واجه توبام ورطةً كبيرة على كل الأصعدة؛ يقولون إنه تكتَّم على الأمر لأنها من سيدات المجتمع الراقي.»

سأل: «ما اسمها يا شودي؟»

أجاب: «الليدي مويل ... الليدي فيرا مويل، على ما أظن. وهناك شيء آخرُ نسيتُ أن أخبرك به.»

قال كروتشر: «أفرِغ ما في جَعبتك.»

قال شودي: «رأيتها آتيةً إلى هنا عصر اليوم، بينما كنت أراقب البابَ تحسبًا لخروجك.»

هتف كروتشر: «يا إلهي، يا شودي! دعني أجلس. لا يمكنني التنفُّس وأنا مضطجع.»

قال شودي فيما استحثَّ ذاكرته: «كانت تحمل باقةَ زهور. يبدو أن لها صديقًا في هذا المنزل.»

قال كروتشر بتجهُّم: «أنا ذلك الصديق. أمسك مصباحك وسَلِّط الضوءَ على المغسلة؛ لقد أحضر صاحبُ المنزلِ نفسُه هذه الزهور مع علبة السيجار هذه.»

تدفَّق ضوء المصباح على وعاء زهور جميلة، وتمتم شودي قائلًا: «ورود في شهر مارس! بالطبع، إنها زهور لرفيقي ألفي! عجبًا، لقد وقعت الفتاة في غرامك أيها الساذَج!»

قال ألفي وأسنانه تصطك من فرط الانفعال: «سأذيقها الويل! لا تنسَ أن حبل المشنقة أوشك أن يسحق عنقي بسبب هذه المحتالةِ الصغيرة!»

تحرَّك شودي ناحيةَ الفراش بمصباحه الساطع وسيجاره المتوهج وقال: «لن أنسى ذلك. وهذا ما أتى بي إلى هنا رغم ما في الأمر من خطورة.»

كرَّر كروتشر بنبرة مختلفة في كل مرة: «إنها الفاعلة المجهولة إذن!» وراح يزعج شودي بسؤاله المتكرر: «كانت هي الفاعلة، أليس كذلك؟» حتى أصرَّ الأخير أن ينتبه إليه جيدًا حتى لا يكرر كلامه مرة أخرى.

قال شودي: «ألم أخبرك مرارًا؟ لمَ آتي إلى هنا وأتحمَّلُ كلَّ هذه المخاطرة لأسمع تُرَّهاتك! ألا يمكنك أن تُنصِت من باب التغيير؟ توجد مهمةٌ كبيرة إن كنت تمتلك الشجاعة الكافية.»

لكنها كانت بسيطة، مثل معظمِ المهام الكبيرة؛ وعرَضها شودي بمهارة بالغة؛ وفي غضون بضع دقائق بدأ السيد كروتشر يتأمل مقترحه المبدئي والعملي إلى حدٍّ كبير.

اضطُر كروتشر إلى الاعتراف: «سأجني بعضَ المال من هذه المسألة، وإن لم يكن بالقدْر الكبير الذي توهِم نفسك بالاعتقاد في وجوده. لكني أعتقد أنها تريد إعطائي بدايةً جديدة في الحياة على أي حال.»

نبَّهه الآخر، قائلًا: «سيكون هذا المال بدايةً ونهاية يا ألفي! عِلاوة على ذلك، سيكون انتقامك؛ لا تنسَ ما عانيته.»

قال كروتشر بتلهُّف: «أنا على أتمِّ استعداد! ولكن ... ألا تفهم الأمر؟ لقد عانيتُ الكثير، وهو ما يجعلني أريد أن أنعمَ بالراحة هنا لبعض الوقت. لم أعُد الرجلَ الذي كنتُ عليه. أحتاج إلى مهلةٍ لالتقاط الأنفاس. لا داعيَ للعجلة، أليس كذلك؟ فلن تهرب الفتاة.»

قال شودي: «هذا ما ستفعله الفتاة بالضبط، يا ألفي؛ أن تهرب إلى الخارج في أي وقت ... وربما تتزوج في أي وقت شخصًا على شاكلتها. وربما تكتشف عندئذٍ أن السعي

إلى الانتقام قد صار أكثرَ صعوبةً وتعقيدًا. لدينا فرصةٌ سانحة أخرى، وقد نفقدها في أي لحظة.»

كانت الفرصة الأخرى مغريةً على نحوٍ قوي غريب لشخصيةِ ألفريد كروتشر ومِزاجه، كما كانت مغريةً بالقدْر ذاته لدهائه، الذي كان سمتًا قيمًا من سماتِ شخصيته. لكنه لم ينعم بمثل هذه الراحة من قبل؛ لم تكن الراحة قدَره؛ كما لا يمكن بسهولة استبدالُ منجم ذهب، بكلِّ ما يحمله من مجازفات ووعود وردية معروفة، بالرفاهية الحالية الملموسة (وبداية جديدة في المستقبل القريب).

انتهت المناقشة بالوصول إلى حلٍّ وسط ومغادرة شودي المنزل خُفية مثلما دخل. لكنه لم يغادر قبل أن يشير، عبْر النافذة المفتوحة وشبكة المداخن الكبيرة، إلى زاويةٍ مضيئة مكشوفة في الطابق السفلي. في الأيام القادمة، سيُضبط المريض، في أوقات معينة، وهو يختلس النظر إلى هناك، أو حتى يأتي ببعض الإشارات الوقحة والماكرة.

كانت حكاية تلك الأيام التالية، لو عُولجت كما تستحق، ستشكِّل قِسمًا من القصة، ذا أهمية مزدوجة، لأنه كان سيتعمق في الجوانب النفسية وتعقيدات الأحداث والشخصيات المعنية، ولأسباب قد تتضح لاحقًا. لكن في اللحظة الحالية شغَل ألفريد كروتشر موقعَ الصدارة في القصة وليست أحاديث المناجاة مع النفس دارجة في السرد القصصي. ومع ذلك تضمَّنت تعاملاته الحياتية مع الآخرين نقاطًا مثيرة للاهتمام. لم يكن كروتشر ينام كثيرًا، لكنه كان يقرأ أكثرَ مما قرأ في حياته كلِّها؛ وكانت قراءاته — وإن لم تكن ذات دلالة على صلاحه — تشير، على الأقل، إلى الطريق الذي كان سيمضي فيه مجرى حياته لولا تدخُّل شودي المؤثِّر.

اختار المريض، القابع في الطابق العلوي من الجزء الخلفي للمنزل، من القائمة الصغيرة للكتب الموصَى بها التي خطَّها الطبيب بيده، كتابًا يحمل عنوان «مدَّة حياته الطبيعية». انخرط في قراءته بادي التأثر، بجبين مقطَّب يتعرَّق من حين لآخر. وعندما انتهى من قراءته، أُوصي بأن كتاب «لا يفوت أوان الإصلاح قَط» كتابٌ أفضلُ من نفس النوعية؛ وقال الطبيب له باستخفاف مدروس: «وذلك على الرغم من اسمه.» فهِم كروتشر المغزى من كلامه، وسرعان ما كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، مثلما حدث سابقًا عندما تسلَّل شودي إلى غرفته، قبل أن يعرف هويته؛ وسُمع في عُزلته وهو يعبِّر عن إحباطه وغضبه من بعض الشخصيات، وقاده هذا إلى التساؤل عن الكيفية التي كان مبتكر شخصية توم روبنسون سيصور بها شخصيته لو أنه كان قد التقى به. وفيما كان يعيد

الكتاب، أثارت هذه التأمُّلات نقاشاتٍ أطولَ مع الطبيب، وكانت السببَ في زيارات أطول من جانب الطبيب، الذي كلما وقعت عيناه على كروتشر وجد نفسه معجبًا به؛ إذ رأى لديه الدافع والإلهام لإثبات نفسه، كما لو كان صار أخيرًا مصممًا على الارتقاء بنفسه.

ثم ذات صباح، أقبل الطبيب يحمل مراجعةً نقديةً وقصيدةً طويلة مكتوبة حديثًا، فيها من الجراح والمداواة ما فيها؛ لكنها لم تحظَ بفرصةِ الإتيان بأيٍّ من الفعلين؛ لأن ألفريد كروتشر لم يكن في الغرفة العلوية الخلفية؛ إذ كان قد غادر المنزل مرتديًا حلَّة من حلله الجديدة ذات الألوان الأكثر بهرجةً.

٣

ترك قطارُ روما السريع باريسَ مزدانة بنُدف خضراء دلالةً على القدوم المبكر لفصل الربيع؛ واخترق هديره هدوء المساء الذي استحال إلى ليلة مُخملية يزيِّنها قمرٌ فضي متلألئ. لم يكن القطار الشهير يعجُّ بالركَّاب؛ فلا يستطيع الجميع دفْع أجرةٍ قدرها جنيهان وثمانية شلنات وسبعة بنسات من أجل سرير في قطار النوم قد لا يكلِّف، في سويسرا مثلًا، أكثرَ من بضعة وعشرين فرنكًا. بدا أن غالبية من دفعوا هذه الأجرة الباهظة حظوا مقابلها بقسطٍ وافر من الرفاهية؛ حتى السيدة التي كانت تسافر بمفردها في أول عربة نومٍ، وإن امتنعت عن تناول العشاء في عربة الطعام، راحت تكوِّن سلسلةً من المعارف بمزاج رائق كانت قد افتقدته في الأشهر الماضية. تلك كانت هي. لكنها كانت لا تزال أبعدَ ما تكون عن الليدي فيرا مويل المناضلة في العام الماضي.

كانت الليدي فيرا مسافرة في طريقها إلى أمِّها، التي كانت صحتها قد اعتلت بشكل كبير في عيد الميلاد المجيد، وكانت الآن تستكمل تعافيها في روما. كانت الليدي أرماه لا تعطي مَرضها قدرًا كبيرًا من الأهمية بعكس ابنتها المشاكسة التي كان قد قيل لها (من بقية أفراد عائلتها) إنها المسئولة الوحيدة عن مرضِ أمها؛ في الحقيقة ربما كان في هذا الابتلاء بعضُ الخير لليدي فيرا؛ إذ امتنعت عن تصرُّفاتها الطائشة؛ لذا وفي «القطار الفاخر» أدركت الحكمةَ الإلهية الرحيمة من هذه المسألة.

صار ألفريد كروتشر حرًّا طليقًا؛ كان ذلك هو النبأ السار. في بعض اللحظات كان هذا النبأ أمرًا أعظم من استرداد الليدي أرماه لعافيتها. لكن في وقت لاحق، تلقَّت الليدي فيرا خبرًا أعظم أبهجها وهي في القطار. لم يكن كروتشر المسكين حرًّا فحسب، بل إن الطبيب دولار العزيز أعرب عن أنه يحدوه بعضُ الأمل بشأنه أخيرًا! كان قد أخبرها بذلك

في اليوم الذي غادرت فيه إلى باريس؛ ولم يكن قد قال شيئًا كهذا من قبل. كان التقييم الأولي لطبيب الجريمة عن أحدث مرضاه شديدَ التشاؤم؛ كما كان قد وفَّر له مأوًى في منزله معربًا بوضوح عن أنه ما فعل ذلك إلا تلبيةً لرغبتها. لم يكن ألفريد كروتشر «طرازه المفضَّل» وكانت نهايته وشيكةً لولا تدخُّل الليدي فيرا.

كانت تنتمي إلى الفئة التي لم يجِد الطبيب بأسًا في أن يصفها بأنها الأكثرُ نزوعًا إلى الإجرام من غيرها. أدركت ذلك جيدًا وولَّد ذلك لديها الكثيرَ من المشاعر المختلِطة فيما تابع القطار مضيَّه في طريقه. شعرت بأنها محورُ اهتمام الطبيب لأغراضٍ طبية نفسية بحتة؛ وأنها في ضآلةِ عينة تحت المجهر؛ وشعرت بأنها وحيدة على نحوٍ لم تشعر به في حياتها من قبل …

كان شعورها بالوحدة هو أبسطَ مشكلاتها. كانت تسافر لأول مرة من دون وصيفتها. كانت هذه المرأة الوفية (وهي مناضلة طامحة متعطشة للدماء على نحوٍ غير معهود في زمانها) قد رافقت سيدتها العزيزةَ يوم الأحد في باريس (من أجل لقاءات المنفيين بسبب القضية)؛ ولكن فيما كانتا تغادران الفندق، وصلت برقيةٌ تستدعيها لأن والدها كان على فراش الموت. كانت إستر ستترك والدَها يموت من دونها لكن سيدتها الغالية — الحديثة العهد بالبِّر — ودَّعتها بقبلةٍ على وجنتها لتمضيَ في مهمتها الكئيبة.

كانت التدفئة أكثرَ من اللازم في مقصورة القطار؛ وكان هذا معهودًا في القطارات إلا إذا اشتكى الراكب من ذلك في الوقت المناسب. عبَّرت الليدي فيرا عن استيائها بقوة لكن بعد فوات الأوان؛ لذا لم تظهر نتيجة شكواها حتى الساعات الأولى من الصباح وقبل بلوغ القطار محطةَ مُودان. وطوال فترة انتظارها هناك ظلَّت مستيقظة، على الرغم من أنها كانت قد عهدت بمفاتيحِ مقصورتها لمحصِّل التذاكر، فيما أحدثت أصوات أولئك الذين كانوا قد نسَوا هذا التدبير الوقائي تغييرًا مرغوبًا في «حبل أفكارها الطويل جدًّا». وأولت ما كان يقوله المسافرون الآخرون كاملَ انتباهها، وأبقته مركَّزًا عليهم بتصميم خالص.

حظيت الليدي فيرا بجيرة مهذبة؛ إذ كان رجل وزوجته مشهوران نوعًا ما في مقصورةٍ مجاورة لها، ورجل دين مسن في الأخرى. نسجت في مخيِّلتها قصةً حول رجل الدين الموقَّر وانخرطت في أفكارٍ وتخمينات حول حال الزوجين. كانت هذه الوسائل البريئة هي طريقتها لتسليةِ نفسها عندما تتجنَّب المشاغبة الفوضوية في سبيلِ أشياء لا يعلمها إلا الرب. فيما عدا ذلك كان مزاجها رائقًا وهادئًا لم يعكِّره شيء، إلا أمر بسيط قبل أن تُسَلِّم عينيها للكرى على تهويدة القطار السريع المتواصلة. كان ذلك الأمر مسألةً غيرَ مهمة على

الإطلاق تتعلق بشابٍّ يرتدي حلَّةً مبهرجةً، وكان أحد رجلين إنجليزيين عاديين للغاية، ومع ذلك كان نزيلًا في الفندق نفسِه الذي نزلت فيه في باريس، وأدلى بـ «ملاحظة عابرة» لإستر في المصعد، وحملق في السيدةِ إستر بعجرفة واضحة ليس في باريس فحسب، بل كلما مرَّ بها في هذا القطار نفسِه، قبل وقت العشاء وبعده.

بدا لفيرا مويل أنها لم تحظَ بوقت كافٍ على الإطلاق بين تفكيرها العابر في هذا الشخص والضوء الساطع البغيض الذي أيقظها من نومها. في البداية أعشى الضوءُ بصرها لأنها كانت نائمةً في الفراش العلوي على بُعد بوصات من سطوعه المؤلم. وشعرت بالراحة عندما برزَ رأسٌ بين هذا الضوء وبين عينيها.

تغاضت الليدي فيرا بسرعة عن شعورها بالغضب. في البداية منعها شعورها بالنُّعاس من اتخاذ أي إجراء، كما أنها كانت مسافرة قديمة؛ لذا لم يكن يليق بها أن تثيرَ ضجة بسبب مجرد تصرُّف غبي لا أكثر. لم تستطِع رؤيةَ وجهِ الرجل، لكن رأسه كان أشبه بالرصاصة، بل إن الرصاصة تشعر بالإهانة عند مقارنتها به، وزاد من بشاعةِ منظر رأسه انبثاقُ ضوء مصباح كهربائي خلفه وسط الظلام الحالك. حسبت أن هذا الوجه لأحد المسئولين الحمقى، وأمرته بلغةٍ فرنسية وبحدةٍ بالغةٍ بمغادرة مقصورتها. لكن الرجل لم يتحرك قيدَ أنملة. وفي لمح البصر لاحظت فيرا مويل ثلاثةَ أشياء مريعة: أولها أن ذلك الرجل هو صاحب الحلة المبهرجة، وثانيها أنه كان قد أغلق باب المقصورة خلفه، وآخرها أنه كان يوجِّه مسدسًا آليًّا إلى صدرها.

عندما انفرجت شفتاها لتتكلم، تمتم قائلًا: «إن نطقتِ بكلمةٍ يمكن لأي أحد سماعها، فستكون آخرَ كلمة تنطقين بها في حياتكِ! ابقَي هادئةً ولن أعاملكِ بقسوة؛ ولا حتى بنصف القسوة التي عاملتِني بها!»

هتفت الفتاة بانفعال ناتج عن مشاعرَ كثيرة ليس من بينها الخوف: «ألستَ ... أوه، ألست كروتشر؟»

قلَّدها كروتشر مستهزئًا: «أنا كروتشر. ولأنك أحسنتِ التصرُّف، سأضع المسدس جانبًا ... أرأيتِ؟ ... لا خداع!» ثم أسقط المسدس في جيبِ حلَّته الزاهية المُربعة التصميم المصنوعة من الصوف. وختم كلامه بزمجرةٍ تتناسب مع تهديده: «أظن يمكنني التعامل معكِ بلا مسدس ... أجل! كما يمكنني العضُّ أيضًا!»

قالت الليدي فيرا بنظرة ثابتة ممزوجة بالأسى: «هلَّا تتفضل بمغادرة المقصورة؟»

قال كروتشر بشراسة مباغتة: «لا، لن أتفضل. بعد أن أقضيَ عليكِ! مثلما كدت تقضين عليَّ! إن سمعنا أحد، فسيُطعَن في شرفكِ؛ لكن يا إلهي لن يخطر ببالهم مقدارُ السوء الذي بداخلكِ!»

لم تستغلَّ الليدي فيرا توقُّفه المتعمَّد عن الكلام. كان المجرم يُعرب عن مقصده بدقة بالغة غير مألوفة من جاهل مثله؛ فبدا أنه ربما يكون قد تدرَّب على هذا الكلام كثيرًا قبل أن يلقيَه على مسامعها. لكن بالنسبة إلى الفتاة في الفراش العلوي كانت هذه معاملةً مُستحَقَّة. رأت أنها عقوبةٌ مخفَّفة على الفعلة الشنيعة التي اقترفتها — بصرف النظر عن أنها لم تكن في كامل وعيها، مدفوعةً بقضيةٍ عادلة أو بحالة جنون مفاجئ — وعُوقب بسببها عقوبةً شديدة باستثناء أنه لم يذهب إلى حبل المشنقة. كان له كلُّ الحق في أن يقول لها بعد ذلك ما يحلو له، وحتى أن يقوله في تلك اللحظة وتلك الظروف، بكل ما يملك من قسوة طبيعية ومكتسبة. ألم يكن لها باعٌ كبير فيما آل إليه من قسوة؟

أضاف كروتشر بنبرة ماكرة ذات مغزًى: «وهذا حتى أخبرهم.» اضطرت إلى استحضارِ ما قاله قبل هذا التوقُّف المؤقت؛ وعندما فعلت ذلك، طلبت منه مجددًا، بتصميم لا يلين، مغادرةَ المقصورة.

وعدته قائلة: «سأراك في الصباح. أنا ذاهبة إلى روما.»

ضحك الرجل بازدراء. وقال: «لستِ بحاجة لأن تخبريني إلى أين أنتِ ذاهبة! فأنا أعرف كل شيء عنكِ، وأعرفه منذ مدة. لقد كنتُ ألاحقكِ يا عزيزتي! خطؤك أننا لم نتواجه من قبل. أعرف أنه ليس بالمكان المناسب للمواجهة، لكنه أفضل من المكان الذي زججتِ بي إليه!»

أنشأت الليدي فيرا تقول: «لكنني عدتُ ... وأخرجتك»، لكنْ ثمَّة شيءٌ ما جعلها تعدِل عن استكمال الجملة. واصلت كلامها بتواضع: «لقد كنت أبذُل غايةَ ما في وُسعي من أجلك. ظننت أنك ستأذن لي بأن أمنحك بدايةً جديدة في الحياة.»

هتف: «بداية جديدة! أريد ما هو أكثر من ذلك سيدتي!»

سألت: «حسنًا، ماذا تريد؟»

جال ببصره في أنحاء الأرفف المُثقلة بحقائب اليد الخاصة بها.

قال بسرعة: «حقيبة مجوهراتك. أين هي؟»

أجابت: «تلك الحقيبة، في الزاوية، عند قدمي.»

قد تكون استجابتها السريعة نابعةً من لهفتها للتخلص منه؛ لكن ألفريد كروتشر، بخبرته الكبيرة في الخداع، لم يكن لتنطليَ عليه حيلتُها بهذه السهولة.

قال: «إذن يمكنكِ الاحتفاظُ بها، مع حبي! سأزعجكِ بأن آخذَ الخواتم بدلًا من ذلك ... وبقيةَ ما تخفينه من مجوهرات حول عنقكِ!»

شحَب وجهُ الفتاة في ضوء المصباح الكهربائي. كانت تجلس في استعداد مريب لتشيرَ إلى مكانِ حقيبة المجوهرات؛ بينما كانت يدها الأخرى، التي بها معظمُ خواتمها، قد اندفعت غريزيًّا إلى عنقها؛ إذ كانت تسافر بكنوزها الثمينة كما هي عادة السيدات، وحول عنقها التفَّت قلادة ماسية ودَلَّاية وعِقد من اللآلئ، تحسبًا للسرقة.

قالت: «لنفترض أني رفضت و...»

ألقت نظرةً سريعة على الجرس.

ردَّ كروتشر: «عندئذٍ سأفضي بما لديَّ من أسرار.»

أسندت ظهرها إلى الجدار وسألته: «وماذا لديك من أسرار؟»

أجاب: «ما رأيتُه تلك الليلة! سأحكي ما رأيته وكنت في غاية الحُمق ولم أستوعبه حتى خرجت من السِّجن وسمعت جميعَ الشائعات! هل يكفيكِ هذا؟ لو لم يكن كذلك، فستكفيكِ البقية؛ لكنها ستزجُّ بك في السِّجن مباشرةً، ولا أبالي بمن يؤازركِ. هناك قانون للأغنياء وآخر للفقراء. بهذا القانون كنتُ سأُقاد إلى حبلِ المشنقة من أجل جريمةٍ لم أقترفها، وتُستُّرَ عليكِ وأنتِ من اقترفتِ الجريمة! لكنني أومن بأنه لا بد من أن يلقى القاتل عقابَه ولو كانت سيدة تتمتَّع بدعم المِلك من فوق عرشه! هذا سيدمركِ، على الأقل؛ سيجلِب الهلاك لكِ ولأسرتكِ، وسيَفطُر قلوبكم!»

لم تشعر بالحاجة لسماع المزيد. جرَّدت عنقَها من القلادة والدلَّايَة وعِقد اللآلئ، وأصابعها من الخواتم؛ قبَعت الخواتم والقلادة واللآلئ والدَّلاية في راحة يده الضخمة في كومةٍ برَّاقة، وأمسك بهذه الأشياء للحظة في انتصار في ضوء المصباح الكهربائي، فانعكست في تلك اللحظة على مرآةٍ كان يخفيها جسدُه الضخم.

كانت هذه هي مرآة باب غرفة الملابس الصغيرة التي تقع بين كل مقصورتين في القطار الفاخر؛ لكنها في لحظةِ ابتهاجه بالنصر هذه كفَّت عن عكس صورةِ ألفريد كروتشر أو غنيمته المسروقة. كان الباب قد فُتِح؛ وبرَز منه رجل يرتدي معطفًا أسودَ من فرو السمور وينتشر الشيب في رأسه؛ كشف الرجل عن يديه النحيفتين، اللتين التفَّتا حول عنق كروتشر، بمهارة فتَّاكة لقاتل محترف.

تراجع الاثنان للوراء في صمت. بدا على أحدهما نيةُ القتل من أسنانه المطبقة، وعلى الآخر أمارات الموت من عينيه الجاحظتين ووجهه المحتقِن وعنقه المطوَّق بالأصابع

المتشابكة الشاحبة حتى الأظافر من فرط الضغط. شاهدت الليدي فيرا الرجلين، مثلما يشاهد ولدُ الظبيةِ الأصَلَةَ التي تهاجمه تُضرب حتى الموت في اللحظة المناسبة، حتى انغلق البابُ الواصل بين المقصورتين خلف الرجلين، وانعكس قوامها المثالي في المرآة وحدَه. واصل القطار مضيَّه في طريقه، وأصدرت العربة بكاملها صريرًا وارتجَّت، كما هو حال العربات في القطارات دون استثناء للقطار الفاخر، غير أن ساكنة هذه المقصورة تحديدًا لم تلحظ ذلك بعضَ الوقت.

فور أن استعادت رباطة جأشِها، بدأت فيرا مويل تدرك بعضَ الأشياء تدريجيًّا، بردةِ فعلٍ عكسية. يمكننا القول إنها أدركت عدمَ ملاحظتها بعضَ الأشياء التي كان من المفترض أن تلاحظها بحلول ذلك الوقت. كان أهم ما لاحظته هو عدم صدور أيِّ صوت من المقصورة خلف باب المرآة، وعدم حدوث أيِّ ضجة أو ازدحام غير مُبرَّر في الممر. ماذا حدث؟ هذا ما عرفته في الحال.

كان القطار قد توقَّف في محطةٍ بلا اسم، في مكانٍ ما، في إيطاليا. أتاح ذلك فرصةً للتطلع من النافذة، ومنها انبثق رأسُ الفتاة المضطربة، وتطلَّعت إلى خط السكة الحديدية. وفوجئت عندما رأت ألفريد كروتشر، صاحب السروال الزاهي والمعطف الجديد الصارخ مثل سرواله، يقفز إلى رصيف المحطة المنخفض؛ وكان رجل الدِّين الموقَّر يتأبط ذراعه بل يُحكِم قبضته عليه من كُمِّه!

شعرت الليدي فيرا مويل بأن القطار قد استغرق وقتًا طويلًا في الوصول إلى روما، لكن عندما شارفت الرحلةُ على نهايتها، توقَّفت عربة النوم عن التمايل والضوضاء مثل عربات القطار الأخرى المتواضعة، حتى إنها لم تلحظ مرورَ بلدة كامباجنا بمناظرها الطبيعية الريفية الشاحبة في الخلفية. سمعت طَرْقًا خلف ستارة المقصورة المنسدلة — التي عكست تحوُّل الفراش الآن إلى أريكة من الجلد المنقوش وقماش القطيفة الموهيري — بما يوحي أن المسافرةَ صاحبة الوجه الشاحب والعينين اللامعتين الجالسة إلى المنضدة الصغيرة في الزاوية لم تنعم بليلةٍ هانئة.

هتفت بالفرنسية في انزعاج متوتر: «ادخل!»

فُتح الباب وأُغلق خلف الوجه المكفهِر والجسد الطويل الممشوق القوام لجون دولار.

هتفت: «الطبيب دولار! لم أكن أعرف أنك في القطار!»

تهدَّج صوتها من فرطِ فرحتها؛ وارتجفت يدُها على نحو مثير للشفقة فيما استقرت في يده للحظة.

قال: «لم تظهري أبدًا كما تعلمين. كنتُ في المقصورة المجاورة طوال الوقت منذ غادر القطار من باريس.»

سألت: «المقصورة المجاورة في أي جانب؟»

تحرَّك رأسه بحدة تجاه انعكاس صورته على باب المرآة.

هتفت الفتاة: «ولكن كان رجل دين يمكث هناك!»

قال دولار بابتسامة ساخرة: «هناك مكث الكاهن الأعظم لديانة جديدة لن تؤمني بها بعد الآن أبدًا. أتأذنين للكاهن بأن يجلس قليلًا يا ليدي فيرا؟»

نظرت إليه بعينين هادئتين. أجابت: «بالتأكيد، أيها الطبيب دولار، إن كان هذا سيسهِّل من شرحك لما حدث.»

ردَّ بجرأة: «لم أكن أنوي الشرح على الإطلاق. أردت أن يؤديَ لباسي الكنسي هذه المهمةَ نيابةً عني؛ لكن الشَّعر المستعار طار بفعل الرياح من النافذة في الجهة الأخرى من جِنْوَة. كنتُ أتسكع طوال اليوم على أملِ أن أحظى بفرصة اللقاءِ بكِ. لكن شعرت أنه لا يمكنني تأجيلُ الأمر أكثرَ من ذلك. أردت أن أعطيَك هذه الأشياء.»

ووضع على المنضدة الفاصلة بينهما القلادةَ الماسية والدَّلاية وعِقد اللؤلؤ وحَفنة الخواتم التي كانت تضعها في الليلة السابقة.

هتفت، بدموعٍ شاكرة لم تنهمر قط، لكن أضفَت طابعًا رقيقًا جذابًا عليها، بشكل تعجَز الكلمات عن وصفه: «لقد أجبرته على التخلي عن المجوهرات!»

قال ضاحكًا: «بالطبع. لم يكن الأمر في غاية الصعوبة.»

قالت: «وأنا ظننتك شريكه عندما رأيتكما تعبُران الرصيف معًا!»

قال: «كنت أبثُّ في قلبه الرعبَ من إلقائه في سِجن أجنبي حتى اللحظة الأخيرة. لكن كان لديه شريك في القطار؛ كان يقف متأهبًا خارج مضجعكِ فاستدرجته إلى مضجعي وأفقدته الوعي. ولولا ذلك لكنتُ قدمتُ إليكِ مبكرًا؛ لكن من ناحيةٍ أخرى كان من الأفضل الإمساك بالرجل ومعه مجوهراتكِ؛ حتى لا يجد مخرجًا من الأمر. وقد تنفَّس الاثنان الصُّعداء عندما اكتفيتُ بطردهما من القطار في المحطة التالية. هذا الشريك هو نفس الرجل الذي تسلل إلى منزلي للقاء كروتشر في الليلة الأولى من إقامته بمنزلي.»

سألت: «هل أخبراك بذلك؟»

أجاب: «لا، علِمت به في حينها. سمعت محادثتهما كلَّها، حتى الأجزاء من المحادثة التي لم أتمكَّن من سماعها، تمكَّنت خلالها من استنتاج الخطة التي نفَّذاها بالفعل الليلةَ

السابقة. لديَّ قاعدة تنص على ألا أتنصَّت على أبواب المرضى، مثلهم في ذلك مثل الآخرين، لكن لن أخجل من أني أقدمتُ على هذا الاستثناء.»

نظرت إليه بعينيها الرطبتين الرقيقتين نظرةً فاحصةً.

وقالت: «لكن سمحت له بالبقاء، من أجلي!»

أجاب: «ليس تمامًا، يا ليدي فيرا.» كانا ثنائيًّا صادقًا. قال: «لقد وضعني ذلك محلَّ اختبار؛ وجدت نفسي أمام مكيدة يجب أن أحبطَها. في البداية — وأظنكِ تعرفين هذا — لم أرغب في الاقتراب من ذلك الرجل على الإطلاق. كانت حالته تستعصي على العلاج بما لا يحتمل الشك؛ وكانت نهايته المثالية هي حبل المشنقة، حقًّا أو ظلمًا.»

هتفت الفتاة: «لا تقل هذا ... أو قُله! فهو يجعلني أرغب في مسامحته رغم كلِّ ما حدث!»

قال: «حسنًا، كان انطباعي الأول صحيحًا تقريبًا. لم يكن علاجه ممكنًا. لكن لم يخطُر ببالي مطلقًا أنه سيُقدِم على جريمة يتحتم عليَّ التصدي لها؛ تلك هي وظيفتي الأساسية على أي حال، كما تعلمين، وقد أضفى ذلك ملمحًا جديدًا على القضية. بدا الأمر كأنْ ... كأنْ يظن المرء أن شخصًا مصاب بالسرطان ثم يتبيَّن له أنه يخطِّط لإطلاق النار على مستشار وزير المالية قبل موته! أعتذر عن هذا التشبيه يا ليدي فيرا»، وضحك واستغل ضحكها ليضيف: «لكن الرجل صار قضيةً جديدة في الحال. ومن سخرية القدَر أنني كدت أنجح في علاجه في نهاية المطاف — قدمتُ له معروفًا على أي حال — لولا تلك المكيدة التي تحمستُ لإحباطها!»

تطلَّعت الليدي فيرا إلى أجمةِ الأشجار الشاحبة المُتساقطة الأوراق التي كانت تمرُّ سريعًا في الخلفية. كانت غير منتبهة إليه في اللحظة الراهنة.

قالت في نهاية المطاف: «كنت حمقاء للغاية. ليتني استمعت إليك ورضيت بتقديم المساعدة بشكل آخر. أنا آسفة.»

أجاب الطبيب دولار: «أنا لست آسفًا! كان تصرفًا طائشًا شجاعًا؛ لكنه كان مثلَ بقيةِ تصرفاتكِ!»

هزَّت رأسها بحزن، فيما مرَّ كلمح البصر نهرٌ بنيٌّ، محاطٌ بأشجار الزيتون، تحت القطار مثل طفلٍ يلعب لعبة نَط الحبل.

قالت بقليل جدًّا من العدوانية: «لم أغيِّر آرائي. لكني على استعداد للتضحية بحياتي من أجل التراجع عن الكثير مما فعلته؛ ولا أقصد تلك الجريمةَ فحسب، بل أفعالًا أخرى لا

حصر لها!» ونظرت إليه بعينين تفيضان شجاعةً وتواضعًا. وقالت: «لقد نلت ما أستحقه في النهاية، وأستحق ما سيحدث لي لو تكرَّر الأمر من جديد.»

سأل: «ماذا تقصدين؟»

أجابت: «أقصد لو تكرر ابتزازي من ذلك الرجل المسكين!»

قال: «لن يتكرر. فقد زرعتُ الخوفَ في قلبه.»

قالت: «سيفكر في حيلةٍ أكثر مكرًا.»

قال دولار، بمسحةٍ بها مزيج من الثقة والتحفُّظ في اعتقاده الجازم غير المعهود: «إنه لا يتميز بالمكر ولا بالقوة ولا بالمبادرة ولا بأي شيء آخرَ باستثناء قوةٍ غاشمة محضة. ما هو إلا أداة فتاكة لا أكثر. لقد أذعن لي في لحظة.»

هزَّت الليدي فيرا رأسها مرة أخرى، لكنها كانت تنظر إلى وجهه بحزم هذه المرة.

قالت بقناعة رزينة: «أشعر أنني سأكون صيدًا سهلًا له ما دام أحدنا على قيد الحياة. وسأنال جزاءَ ما اقترفته يداي.»

تخلى دولار عن محاولته لتحريرها من الوهم عن طريق الخداع؛ واستخدم نهجًا متطرفًا على نحوٍ مفاجئ للغاية، لكنَّ هذين الاثنين كان أحدهما يفهم الآخر جيدًا.

وجد نفسه مدفوعًا لأن يقول: «لا بد أن تتزوجي يا ليدي فيرا»، لكن أسلوبه افتقر إلى الإبداع إلى حدٍّ كبير. كان نفس الأسلوب الذي ربما كان سيستخدمه وهو يخبرها بأن تسلِّم مفاتيح غرفتها إلى حمَّال الفندق في روما. كان ذلك، في الحقيقة، هو النهج الذي أراد اعتماده، بَيد أنه خرج محمَّلًا بالمشاعر أكثرَ مما تصوَّر.

أجابت بهدوء: «لا يمكنني الزواج أبدًا. فيداي ملطختان بالدماء.»

قال: «يمكنكِ الزواجُ من رجل على دراية بهذه الحقيقة!»

طرأت ارتعاشة على نبرته الثابتة، ولاحظ هو ذلك التغييرَ في خجل؛ لكن أعينهما تعانقت بصراحة وبلا خجل.

قالت: «لا يمكنني الزواج من أي أحد، أيها الطبيب دولار.»

قال: «الرجل الذي أعنيه ليس أهلًا لأن يحلَّ رباط حذائكِ! لكن سيوفر لكِ الحماية، وسيقدِّم لكِ الدعم، ولن تكوني السببَ في نجاحه فحسب، وإنما أيضًا السبب في تحقيق حلمه ... ولا أتحدَّث عن حُلمه الصغير فحسب ...»

أوقفته بيدها. ومدَّت يدها لتتناول يدَه فوق المنضدة الصغيرة.

قالت: «الرجل الذي تتحدَّث عنه يستحق امرأةً أفضلَ مني بعشرة ملايين مرة! لكن لا يمكنني الزواج منه أو من غيره. وأنتَ، وحدَك، تعلم السبب!»

عادت تنظر بعينيها المفعمتين بالشجاعة إلى المناظر الطبيعية لريف كامباجنا؛ امتدَّت أرض براح عشبية شاحبة إلى الأفق خلف القطار؛ ولم يكن لأشجار الصمغ تأثير يُذكَر على هذا اللون الشاحب السائد؛ كما جذب انتباهها سقفٌ مموَّج عصري، تُثبته بضع صخور بدائية، في أثناء مروره السريع أمام زجاج النافذة؛ وعندما استدارت الليدي فيرا، وجدت نفسها وحيدة تمامًا في المقصورة.

الفصل الرابع

المفتاح الذهبي

هتف الشاب الواقف أمام رفٍّ الكتب، وهو يولي ظهرَه المنحني على نحوٍ سابق لأوانه للطبيب دولار، الذي كان جالسًا إلى مكتبه القديم المصنوع من السنديان: «كان شيلي محقًّا تمامًا!»

ردَّ الطبيب، وهو يرفع نظرَه عن الوصفة الطبية غير المكتملة التي مع ذلك جفَّ حِبرها: «إنه لا يخطئ أبدًا عندما يتعلق الأمر بالشِّعْر.»

جفَل الأخير شاعرًا بالخجل. بدا الشاب حسنَ المظهر ظاهريًّا، لكنه من داخله كان في حالةٍ من الفوضى، وكان ذا شعر كثيف دهني مصفَّف للخلف بإحكام بطريقة عصرية، مبرزًا ملامحَ وجهٍ مقبول، على الرغم من الشحوب والإنهاك البادِيَين عليه. وكان يرتدي حلَّته المسائية كاملة؛ لأن مرضى طبيب الجريمة كانوا يحضُرون في جميع الأوقات.

سأل بخجل مُبالغٍ فيه: «هل قلتُ شيئًا؟»

قال دولار مبتسمًا: «كنتَ تفكر في شيءٍ ما بصوتٍ عالٍ. لا تدعِ الأمر يقلقك؛ إذ لا ينذر بسوء. ما خَطْب شِعْر شيلي يا سيد إيدنبورو؟»

قال الشاب: «أتحدَّث عن جزئية معينة في أحد خطاباته. صادف أن فتحته على فقرةٍ أعجبتني.» ثم أعاد الكتاب إلى مكانه.

خمَّن الطبيب ممازِحًا: «أنتَ لا تقصد ذلك الجزءَ المتعلق بحمض البروسيك أليس كذلك؟»

سأل إيدنبورو بوجهٍ ما كان، من براءته، لِيفلح في خداعِ طفلٍ صغير: «ما هذا؟»

ردَّ: «إنه تفويضٌ صغير من شيلي إلى تريلاوني، للحصول على مقدارٍ صغير من «زيت اللوز المر العطري» كما أسماه، ليتسنى له «الإمساك بالمفتاح الذهبي لغرفة السلام الأبدي.»

قال الشاب في نهاية المطاف: «هذا هو الخطاب المقصود. يُستحسن أن أكون صادقًا معك. ولكن لا أعرف كيف عرفت!»

ضحك الطبيب ضحكةً صغيرة حانية.

أجاب بنبرةٍ مطمئنة: «من مجردِ معرفةِ اسم الكتاب. إنها فقرة شهيرة للغاية، كنتَ قد أعربتَ للتو عن توقِك إلى مفتاحٍ مجازي فضي على الأقل يفتح لك غرفةً تجد فيها راحةً مؤقتةً من صراعاتِك!»

قال: «قلتَ إنك ستعطيني واحدًا، أيها الطبيب دولار.»

ردَّ الطبيب فيما ينهض من مقعده العتيق: «وأدركت الآن أنني لن أفعل ذلك. لا، لن تذهب قبل سماعِ أسبابي، وما سأقترحه عليك بدلًا من ذلك. هذه المفاتيح، يا سيد إيدنبورو ...» ومزَّق الوصفةَ غير المكتملة إلى فُتات، مضيفًا: «... ذهبية أم فضية، ليست مفاتيحَ في الحقيقة وإنما عتَلات يستخدمها اللصوص في تدنيسِ وانتهاكِ الغرفِ التي يقتحمونها. لا بد أن الأمر كذلك فيما يخص الراحةَ الليلية التي تريد الحصولَ عليها بأي ثَمن؛ وربما يصدُق أيضًا على السلام الأبدي الذي استهان شيلي به. لكن للمصادفة لديَّ ما يشبه «غرفة السلام» في منزلي. إنها آخرُ إبداعاتي. لقد وجدتَ تسميةً مناسبةً لها؛ لذا أحب أن أكافئك بأن أعرض عليك أن تمكثَ فيها الليلة.»

قال: «هل تقصد أن لديك غرفةً ستساعدني على الاسترخاء بدلًا من الأدوية المهدئة؟»

بدا الشاب إيدنبورو محتارًا، لكن أفكاره في اللحظة الحالية كانت مشتَّتة. كان قد سمع عن غرابةِ أساليبِ الطبيب دولار، وأنه مع ذلك كان الشخصَ المثالي لإيجاد حلٍّ لمشكلته، وعرف ذلك من مصدرٍ موثوقٍ هو وزير داخلية إنجلترا، وكان ذلك في الأمسية نفسِها على العشاء. وهكذا قدِم من ميدان بورتمان مباشرة، وهو يتوقَّع رؤيةَ معجزات ووصفات سحرية؛ لكن لم يتوقَّع شخصيةَ جون دولار ولا حديثه غير المهني ولا الحول الطفيف، الذي في زاد الواقع من جاذبية عينيه، ولا ثقته المرحة والحانية، ولم يتوقَّع (على الإطلاق) دعوتَه الجادة والعفوية لأن يمضيَ ليلته في منزله.

قال الطبيب الغريب: «هذا ما أقصده بالضبط. إنها أكثرُ غرفة هادئة في لندن، كما أنها لها مميزات صغيرة أخرى. وقد جعلت صديقنا توبام يجرِّبها في أثناء إضراب الخبز. وقرَّر أن من شأن وزير المالية أن ينام هناك نومةً هانئة لا يعكر صفوها شيء!»

ضحك إيدنبورو ضحكةً جعلته يبدو مثل تلميذ في مدرسة؛ لكنه توقَّف عن الضحك بغتةً، كأن صوته جلب له شعورًا بالخزي والألم.

قال: «سأضحي بالغالي والنفيس لأنعمَ بليلة واحدة هانئة. لكنك تتعامل بكرم بالغ، يا سيدي، خاصةً مع شخص غريب لا تعرف عنه أيَّ شيء.»

أجاب الطبيب: «سأعرف المزيدَ من المعلومات في الصباح، يا سيد إيدنبورو، ولكنها يمكن أن تنتظر حتى الصباح، فلا داعيَ للعجلة. يكفيني ما أعرفه الليلة وهو أنكَ صديق لوزير الداخلية، وأنكَ في أسوأ حالاتِك في وقتٍ يلزمك فيه أن تكون في أفضلها.»

ضرب إيدنبورو جبينَه كأنه ممثِّل شاب واقف على خشبة مسرح، لكنه فعل ذلك بعفويةٍ مثيرة للشفقة تعجز عنها كل الأعمال الفنية التاريخية.

هتف بخوف شديد: «إنه يوم الخميس. يا إلهي، سأتزوج يوم الخميس، واليوم هو يوم الأحد! كيف سأفعل ما هو متوقَّع مني أن أفعله، وأنا لم أحظَ بقسطٍ من النوم؟ وكيف سأنام وأنا ...»

سارع دولار إلى قطْعِ فترة صمت محُمَّلة بالمعاني حتى لا تطول: «دعْ هذا الأمر لي. دعْ كل شيء لي، واصعد مباشرةً إلى الطابق العلوي. إنني أُبقي الغرفةَ على استعداد لاستقبالِ زائريها في جميع الأوقات؛ سأجهِّز لك منامة، وسأرسل رسولًا خاصًّا في الصباح إلى أي مكان تريده ولأي غرض تشاء. هيَّا يا عزيزي! أتحرَّق شوقًا لاختبار «غرفة السلام» الخاصة بي اختبارًا حاسمًا؛ لأنني أعرف يقينًا أنها ستحقِّق نجاحًا باهرًا!»

كانت ثقة الطبيب دولار أقلَّ، وهو ينزل إلى الطابق السفلي بعد قليل، ويجلس بجوار هاتفه وعلامات الجِدِّية بادية على وجهه. في غضون دقيقة كان قد غادر المنزل، وسرعان ما وصل إلى ميدان بورتمان، وفتح له السيد توبام فينسون الباب.

تحدَّث الطبيب، لاهثًا ونافد الصبر على صديقه ذي النفوذ: «لقد كان هذا تصرفًا سيئًا للغاية من جانبك.»

أقسم الوزير بوداعةٍ آسرة: «لم أستطِع تمالُك نفسي يا صديقي العزيز. أراد أن يذهب إليك مباشرةً، ولم أستطِع الاتصال بك دون أن أفضحه.»

قال دولار وهو يتفقَّد ساعته: «لدي خمس دقائق لأسمع فيها منك ما كان يجب أن تخبرني به قبل أن ألتقيَ بصديقك العصابي.»

سأل الوزير: «ألم يحكِ لكَ كلَّ التفاصيل عن نفسه؟»

أجاب دولار: «لم يخبرني إلا نذرًا يسيرًا لا يكفي على الإطلاق في حالةٍ كهذه، تكون فيها المسبِّبات أهمَّ من النتائج. بالطبع كان بوسعي أن أصرَّ على معرفة كافة التفاصيل، لكن الضغط عليه كان من الممكن أن يزيدَ من سوء الوضع فينهار تمامًا الليلة. ما فهمته،

مع ذلك، هو أنه أحد مساعدي اللورد الأعلى، كما أنه صديقك وعلى وشْك الزواج، وفي غاية القلق بشأن الزواج، أو بشأن شيء له علاقة بالزواج.»

انبرى توبام فينسون، الذي يمكنه التصرُّف بحيوية بالغة متى شاء، يقول: «سأتناول النقاطَ التي ذكرتها بالترتيب. جورج إيدنبورو ليس فقط أحدَ مساعدي ستوكتون، وإنما أقرب مساعديه وأوثقهم. إنه ليس صديقي بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فقد جمعتني به صداقةٌ لأسباب عائلية، ووجدته شابًّا مهذبًا للغاية. لكن الفتاة التي سيتزوجها — إن كانا سيتزوجان — تنتمي إلى طبقتنا.»

هتف الطبيب: «إن كانا سيتزوجان! أتقصد أنها ستعدِل عن الزواج في الأسبوع الأخير؟»

أجاب الوزير بجِدية: «قد لا يكون لديها أيُّ خيار. تلوح في الأفق نُذُر عاصفةٍ قد تطيح بجورج إيدنبورو في أي لحظة.»

سأل دولار: «عاصفة مفاجئة؟»

أجاب فينسون: «لم أتوقَّعها على الإطلاق. لم أسمع بالأمرِ من ستوكتون إلا يوم الجمعة ليلًا. لكنه كان على درايةٍ به. ليته أعلمني مبكرًا، نظرًا إلى أني السبب في إيصاله بإيدنبورو.»

قال دولار: «هل يتمتع بمهارة معينة؟»

قال الوزير: «أجل؛ يجيد الرسم قليلًا؛ في الحقيقةِ لم يكن سكرتيرًا بالمعنى الحرفي للكلمة، بل الرسَّام الخاص للورد الأعلى. إن ستوكتون مذهلٌ جدًّا في ملاحظة التفاصيل الصغيرة والإشارة إليها، ولكنه يفتقر إلى الكفاءة عندما يتعلَّق الأمر بفهْم التعقيدات الفنية. ما يحبه هو أن يرى التفاصيل على الورق كما يتخيَّلها؛ لذا فإنه يباشر عمليات التدقيق بصحبة إيدنبورو ومسودة رسم، وفي البداية يأخذ إيدنبورو ملاحظاتٍ مرسومة لكل منحًى، ثم يتعاونان على معالجة التحسينات المستحيلة. علمتُ بهذا الليلة من الفتى نفسه. ويُظهِر لك هذا الفرصَ الكثيرة لديه لتسريب المعلومات ... أو ... بيعها!»

سأل دولار: «هل الأمر بهذا القدْر من السوء؟»

أجاب الوزير: «يُقسم ستوكتون أنه كذلك. أجد صعوبةً في تصديقه. لكنه قدَّم لي أدلة وتفاصيلَ دقيقةً عن مخطَّط واحد على الأقل عبَر بطريقةٍ ما إلى بحر الشمال في بداية السنة. وأقرَّ إيدنبورو أنه إما أضاعه وإما سُرق منه. يبدو أنه كان أكثر حذرًا — أيًّا كان منظورك إلى الأمر — أثناء الصيف. لكن تكرَّرت المشكلة هذا الخريف. وعبَر مخطَّطُ

حوضِ سفنٍ بحرَ الشمال، ليستقرَّ في أرض الوطن بوسائلَ يُستحسن ألا نخوض فيها، وأعلن ستوكتون أن هذا المخطَّط تزويرٌ رديء لمخطَّطٍ آخرَ رسمَه إيدنبورو قبل ذلك بستة أسابيع.»

سأل دولار: «لمَ وصلت النسخةُ المزيفة لا الأصلية؟»

ردَّ الوزير: «تقبَع النسخة الأصلية في أرشيف اللورد الأعلى منذ ذلك الحين؛ ويقول إنه لا بد أن النسخة المزورة قد رُسِمَت من الذاكرة؛ ولديه من الأسباب المنطقية ما يجعل إيدنبورو المتهمَ الوحيد في القضية.»

سأل دولار: «أسباب لا يؤخذ بها قانونًا على ما يبدو، أليس كذلك؟»

أجاب الوزير: «بالضبط؛ لذا حتى الآن لا وجود لقضية ولا اتهام. لكن لديَّ تخوُّف كبير من أن كمائن قد نُصبت؛ لذا أخذت على عاتقي مسئوليةَ تحذير الرجل المجنون.»

سأل دولار: «أفعلت ذلك الليلة؟»

أجاب الوزير: «أجل؛ كانت هذه أولَ فرصة للقائه، ولم يكن هذا ممكنًا إلا بدعوة العروس الصغيرة المسكينة هي الأخرى إلى العشاء. كان عبئًا ثقيلًا، يا دولار، أن أشرب نَخبهما، عالمًا بما يلوح في الأفق! كان عزائي الوحيد أن إيدنبورو كان على درايةٍ مثلي بالتطوُّرات؛ كانت بادية على وجهه، للمنتبه كفايةً؛ لذا دخلت في الموضوع مباشرة عندما اختليت به. كان صريحًا للغاية، من وجهة نظره. أخبرني أن الشكوك التي تحوم حوله تدفعه إلى الجنون؛ وقال إن النوم يجافيه لياليَ كثيرة.»

سأل دولار: «رغم عدم وجود اتهام مباشر؟»

أجاب الوزير: «رغم عدم التصريح بكلمة واحدة بشأن تورُّطه في عمل نسخة رديئة من خريطته!»

قال دولار بهدوء: «هذا أسوأ ما قلتَه لي حتى الآن. لا بد أنه أصر على براءته، أليس كذلك؟»

أجاب الوزير: «بلى، وهو يبكي بحرقة!»

سأل دولار: «وماذا كان انطباعك يا سيد فينسون؟»

أجاب الوزير: «راودني شعورٌ مختلِط للغاية حيال كلامه. شعرت أنه كان يقول الحقيقة، غير أنها لم تكن كاملة. كانت تفوح منه رائحة التورط في جريمة، وإن لم يكن المجرم الحقيقي.»

عقَّب الطبيب ببعض التردد: «لا بد أن حالته الجسدية أكَّدت شكوكك. وفوق ذلك سيتزوج الشقي المسكين في غضون أربعة أيام!»

قال الوزير: «في هذا الأمر خاصة، أشعر بالشفقة على الفتاة.»

سأل دولار: «ولكن أليست الفتاة صديقتك هي الأخرى؟ هل يمكنني معرفة اسمها؟»

قال الوزير: «لوسي تريفلين.»

سأل دولار: «أهي قريبة للأميرال تريفلين؟»

أجاب الوزير: «إنها ابنةُ ذلك البحَّار المتمرس، لكنها أكثرُ حيوية منه! لم أرَ فتاةً شابة مثلها تمتلك روح بحَّار مخضرم وسلوكه. لو أن الأمر بيدها لركبت البحر؛ وحيث إنها لا تستطيع ذلك، صارت عضوًا فعَّالًا في الرابطة البحرية، وخطيبةَ أمين سر اللورد الأعلى. أيمكنك الإتيان بمفارقةٍ أكثرَ عبقرية أو قصة أكثر تراجيدية من هذه عندما يخرج الأمر إلى العلن؟ لا بد أن يخرج الأمر إلى العلن قبل يوم الخميس، يا دولار، إن كان ذلك ممكنًا أصلًا!»

سأل دولار: «بغضِّ النظر عن تلك المسألة، هل هما متوافقان؟»

أجاب الوزير: «متوافقان للغاية، فيما عدا التوافق المادي، لكن الشاب سيجني المزيدَ من المال في المستقبل. لديها طاقة ونشاط يكفيانهما هما الاثنين ويتشاركان الأذواق نفسها. أخبرتك أنه يجيد الرسم قليلًا، أمَّا هي ففنانة بارعة، وإن كان يصعب تصديقُ ذلك، إذا رأيتها وهي تعلِّمه التزلجَ في نادي الأمير أو وهي تنافسني في الجولف! لوسي تريفلين هي امرأة رياضية من الطراز الأول؛ مثلما كانت فيرا مويل امرأةً مثيرة للشغْب من الطراز الأول.»

هبَّ جون دولار واقفًا على قدميه.

قال بحدَّة: «حسنًا، لقد مكثتُ أطولَ مما كنتُ أنوي. لقد تعهَّدت بأن أصعدَ إليه لتفقُّده خلال نصف ساعة لأرى هل غلبه النُّعاس أم لا. وأعتقد أنني سأجده نائمًا. ولكن هل للنوم ليلةً فائدة تُرجى في مثل هذه الفاجعة التي ستئول إليها الأمور؟!»

أشار الوزير: «أو في مثل هذا اللغز؟ لو نجحت في سبْر أغوار هذا الموضوع، يا دولار، فربما نعرف كيفيةَ التصرف.»

ردَّ الطبيب بسرعة: «لستُ محققًا»، وفور أن خرجت تلك الكلمات بصرامة من شفتيه المتصلبتين، حتى استرختا في ابتسامة عذبة. تابع: «قلتُ لك هذا من قبل، يا فينسون، ولن أتعجبَ إن جعلتني أكرِّره على مسامعك مجددًا. إنني أسعى إلى الحيلولة دون ارتكاب الجرائم، لا أن أنشغل بالجرائم التي وقعت بالفعل ولا مجال لإصلاحها. لكن في هذه القضية، قد يكون الكشف عن الحقيقة هو لبَّ الوقاية، لذا سأبذل غايةَ جهدي في ذلك، بينما لا يزال لدينا متَّسع من الوقت.»

غدا دولار إلى الوزير عابسًا متذمرًا؛ وراح مرحًا مستبصرًا، يفيض حيويةً ناجمة عن خطورة الأمر، كما هي عادته. لكن كان الوضع جادًّا للغاية، مثلما كان دولار نفسه، خلف القناع الظاهري الجذاب الذي يضعه دون أن يدريَ في جميع الأوقات العصيبة. وعند نقطةٍ بعينها تأكَّدت ثقته على الفور؛ فقد وجد الرجل الشاب في غرفة السلام غارقًا في نومٍ يليق بالاسم الذي كان قد منحه عن غير قصد لذلك المعقل السحري.

ولكن لم تكن هذه القضيةُ من النوع الذي يمكن لطبيب الجريمة أن يُحجِم عن التدخل فيها. قضى كل ساعة من ساعات الليل يصعد الدَّرج وينزله؛ وفيما بين ذلك إما انغمس في قراءاتٍ مُقبِضة مثل «الحالات الإيضاحية للهوس المؤقت»، في المجلد الرابع المريع من كتاب «الطب الشرعي» لكاسبر، أو غاص أكثرَ في تكهناته المُقبِضة بالمثل.

في الصباح، كان الطبيب هو من تولَّى حمل حقيبة سفر المريض إلى الطابق العلوي، وأيقظه من نومه، وشاهد موجةَ الذاكرة وهي ترتفع فيما غصَّ حلقه بكلمات الشكر. وآنَ الآن أوان التحقُّق من نسخة السيد فينسون بشأن مشكلات الشاب؛ لكنه انتظر جورج إيدنبورو كي يفضيَ له بمكنونات صدره، وانتظر بلا جدوى حتى آخرِ خمس دقائق، عندما استهل الفتى حديثه بكلمات الشكر وانتهى بقصته كاملة.

لم تختلف روايته عن رواية الوزير الموجزة إلا في القليل، لكنها أكَّدت لدى دولار أكثرَ من انطباع كان يُفَضِّل أن يثبُت خطؤه. في الحقيقة كان حديث الشاب عن الشكوك التي لا تُطاق أكثرَ انسجامًا مع عذاب ضميره أكثرَ من أي شيء آخر؛ لأنه أتْبَعه بإقرار بأن أحدًا لم يصرِّح بهذه الشكوك بأي شكل من الأشكال. شعر طبيب الجريمة بالأسف لطرحه هذا السؤال في البداية؛ لكنه كان السؤال الوحيد الذي طرحه. لكن بعد أن حضَّ إيدنبورو على أداء تمارين رياضية قدْر المستطاع، ومَدَحَ براعة الآنسة تريفلين في التزلج، لم يجد ذلك المرائي المتردد صعوبةً كبيرة في الحصول على دعوة فورية لتناول الشاي في نادي الأمير للتزلج.

غادر إيدنبورو بوجهٍ يكاد يتهلل لوجود بادرة انفراجة؛ بَيد أنه لم يكن قد تحدَّث عن محبوبته حتى تعرَّض الطبيب فجأة لسيرة التزلج. بدا أن التزلج هو الصلة الوحيدة التي كان لا يزال يمكنه بواسطتها أن يفكِّر في محبوبته دون أن يشعر بالألم أو الخزي؛ وفي وقت لاحق شاهد الطبيب إيدنبورو واقفًا على الجليد، بنفس النظرة المليئة بالفخر والفرح على وجهه.

كانت ذروة اكتظاظ حلبة التزلج بالمتزلجين في فترة بعد الظهيرة، واستحال السطح الأملس العاكس لحلبة التزلج إلى لوحٍ معتِم، وكأن عملاقًا صغيرًا كان يخربش على سطحه بماسة كبيرة. حلَّق المتزلجون مثانيَ، يدورون مثل لاعبي السيرك، فيما اتبع المتدربون الفرادى تعليماتِ المدرِّبين المندفعين في منتصف الحلبة، ودوَّى صوت الزلاجات كحفيفٍ مجلجل يكاد يصمُّ الآذان. ومن بين هؤلاء المتزلجين كان جورج إيدنبورو، الذي أتى يتزلج على ساقٍ واحدة، وجبهته تتصبَّب عرقًا، ليختار لضيفه مكانًا جيدًا للجلوس خلف الحاجز.

قال بتوتُّر: «أنا سعيد جدًّا بقدومك في الوقت المناسب لمشاهدة رقصة الفالس. كان لديَّ يوم طويل حافل خارج المدينة، ووصلت إلى هنا في وقتٍ متأخر أكثرَ مما توقعت. لوسي تكتب خطابًا في صالة الانتظار، لكنها ستأتي بعد لحظات لتشارك في العرض، وبعد ذلك سنتناول الشاي معًا.»

أدرك دولار أن رقصة الفالس على الجليد، مع أنها تستغرق قرابةَ ربع ساعة، تمثِّل تحديًا كبيرًا للجميع باستثناء أولئك الذين يتقنون إلى حدٍّ ما هذا الفن الدقيق والمبهر، لما تتطلبه من مهارة وتركيز وجهد مكثَّف. اعترف إيدنبورو بأنه هو نفسه لا يملك المهارةَ والإتقان الكافيين للمشاركة في هذه العروض، ودلَّل عدم اتزانه على الحلبة على صحة كلامه. بعد أن اتخذ إيدنبورو مجلسه بين المتفرجين، دوَّى صوت ناقوس، فبدأت الفرقة العزفَ، وتفرَّق المبتدئون، وتشبَّثت الأيادي الواثقة بالخصور الطيِّعة، ودارت الزلاجات الطويلة ثلاث دورات في الهواء، قبل أن تهبِط على الحلبة في طرَفها الآخر، وصارت الحلبة متاهةً متداخلة من المتزلِّجين الذين كانوا يرقصون برشاقة وتناغم.

لم يكن دولار قد رأى شيئًا كهذا في حياته من قبل؛ إذ كانت حلبات التزلج على الجليد الصناعي لا تزال في مهدِها في لندن قبل الحرب، ومنذ ذلك الوقت كان منشغلًا عن متابعةِ آخرِ التطورات. في البداية تابع دولار ثنائيًّا من المتزلجين ثم ثنائيًّا آخرَ، وفي كل مرة كان يبدو له الثنائي أمهرَ وأكثرَ رشاقة من نظيره السابق. لكن لم تنتهِ رقصة الفالس القصيرة الأولى، إلا بعد أن تنحَّت المجموعة من تلقاء نفسها، لتفسح المجال لفتاة قوية داكنة ترتدي رداءً أحمرَ، ورجلٍ داكنِ البشرة لامع العينين أسود الشارب.

قال دولار: «هذا الثنائي هو الأفضل بين المتزلجين؛ تلك الفتاةُ ذاتُ الرداء الأحمر ورفيقها الأجنبي الضخم الجثة.»

هتف إيدنبورو بسرور: «أتظن ذلك؟ لا بد أنك تحسِن الحُكم؛ فهذه الفتاة هي لوسي!»

قال دولار ببعض الارتباك: «لم أقصد الإساءةَ إلى شريكها. إنه أفضل من أي راقص فالس آخرَ باستثناء الآنسة تريفلين.»

ردَّ إيدنبورو بنبرةٍ مختلفة: «إنه ماركيز إيطالي. اسمه البغيض هو روكي. أنا لا أحبُّه. لكنه متزلج بارع.»

انتهت رقصة الفالس الأولى، وتبِعتها بسرعة رقصتان أُخْريان، وتكلَّم إيدنبورو بطريقةٍ أفضل عن شريك الآنسة تريفلين التالي. كان شابًّا حديثَ السن مفعمًا بالحيوية، عاد إلى وطنه من إيتون في إجازة مؤقتة، لكن الآنسة تريفلين، التي كانت تفوقه خبرة، تكيَّفت مع اندفاعه، ورقصت معه بحماسة تضاهي حماسته.»

قال إيدنبورو فيما كانت محبوبته تفرُّ بحياتها من قبضة ذلك المتهوِّر: «أنا سعيد بانتهاء الرقصة. اللعنة على ذلك المدعو روكي!»

رقصت الفالس مع المتوحِّش الوسيم مرةً أخرى؛ كان مظهره متماشيًا مع وصفه بذقنه البارز وعينيه المتغطرستين وإدراكه لبراعته. لم يُخفِ إيدنبورو كرهه لروكي، وبدا انزعاجه بوضوح عندما مرَّ الثنائي أمامه بحيوية مفرطة بغرضِ إثارة استفزازه. شعر دولار نفسه بالانزعاج، وظل هكذا حتى نهاية الرقصة، عندما رفع روكي السيدةَ عاليًا قبل أن يسلِّمها لمنافسه، بلمحةٍ من التبجُّح الواضح.

لكن تغيَّر ذلك الانطباع فور أن فتحت الآنسة تريفلين شفتيها العنيدتين. كانت لديها أسنان جميلة، وصوت مرِح، وعينان تشِعَّان جرأةً لطيفةً مرحة. تذكَّر دولار إشادةَ توبام فينسون، ورأى أنه يوافقه في كل شيء فيما عدا تلك المقارنة البغيضة. في الحقيقة، لم تكن هناك امرأتان أكثر اختلافًا من لوسي تريفلين وفيرا مويل؛ لكن لم يحيِّره أحدٌ ممن التقى بهم في الماضي، بما في ذلك لوسي تريفلين، مثلما حيَّرته فيرا مويل، قبل أن يستأذن في الانصراف.

تحدَّث العروسان عن الحفل والهدايا وعطلة الزواج، وكأنه لن تستطيع أيُّ قوة على وجه الأرض العبثَ بخططهما!

حَدَّث دولار نفسه، قائلًا: «لم يتبقَّ سوى ثلاثة أيام!» وسرعان ما انقضى يومان بلا مفاجآت أو أحداث غير متوقَّعة، باستثناء اختفاء طبيب الجريمة نفسِه. كان قد أهمل عيادته من أجل القضية الحالية؛ ولم يُعثر له على أثرٍ عندما كانت الحاجة ماسَّة إليه، لا في ليلة الثلاثاء ولا في صباح الأربعاء؛ والغريب في الأمر أن جورج إيدنبورو كان هو من لجأ إليه، بعد أن ازداد شحوبًا فوق شحوبه، وكان حينئذٍ يتحدث في الهاتف بصوتٍ هَلِع.

في مساء الأربعاء، أدار الطبيب مفتاحه في قُفل الباب، ليجد العريس، الذي كان زفافه في اليوم التالي، يندفع نحوه من غرفة الانتظار.

هتف إيدنبورو: «أخيرًا!» وبدا في غاية الشحوب على ضوء المصباح الكهربي حتى إن دولار لم يُشعل المصباح في غرفة الاستشارات أو يسأله أيَّ سؤال وهو يغلق الباب خلفه.

كان هذا اليوم واحدًا من تلك الأيامِ المعتدلةِ الطقسِ على غير العادة في ذلك الوقت من السنة الذي يبقى فيه أفضلُ الخَدم في العمل بنشاط وجدية؛ فتح الطبيب النافذةَ الطويلة ذات المصراعين التي تفضي إلى الدَّرج الصدئ الذي ينتهي بالحيز المسيَّج القذر المُهمل بما يحتوي عليه من حصًى متسخة وشجيرات محتضرة. في الوقت ذاته، لم يجلس إيدنبورو كما طلب منه دولار بحكم العادة، وإنما وقف بقدمين راسختين عنيدتين أمام المدفأة، وأظهر التوهج تكوُّرَ يديه المضطربتين في هيئة قبضتين، لكنه لم يُظهِر وجهَه الذي كانت نظرة واحدة إليه تكفي لملاحظة اضطرابه.

أنشأ يقول بمرارةٍ كبيرة: «ليتك تركت ملاحظةً تخبرنا بمكانك!»

ردَّ دولار: «فعلت ذلك للتو. تركتها في غرفتك. أردت أن أراك على الفور. بَيد أن القدَر أخذ على عاتقه أن يرسلك إليَّ.»

واصل إيدنبورو كلامه، غيورًا من انشغال دولار عنه، وقال: «ألم تسمع آخرَ الأخبار، حيث كنت؟»

قال الطبيب وهو يرتمي في أحدِ المقاعد: «لقد سمعت الكثير! يُستحسن أن تكون محددًا فيما تقصد، وبأقصى سرعة ممكنة، يا صديقي العزيز. فلدي موعدٌ بعدك مباشرةً.»

ردَّ الآخر بتهكُّم: «أوه! لا حاجة للكثير من الكلام. أتذكُرُ المرة التي قدِمتَ فيها، أيها الطبيب، إلى نادي الأمير للتزلج؟»

أجاب: «نعم.»

تحدَّث الاثنان كأن ذلك حدث منذ بضعة أسابيع.

«أتذكُرُ عندما قلتُ لك إنني قضيت يومًا عصيبًا خارج المدينة؟»

أجاب الطبيب: «نعم.»

قال: «كنت أقصد بذلك أنني أمضيت الوقتَ مع رئيسي — اللورد الأعلى ستوكتون — أتطلع إلى مجموعته الجديدة من الغواصات.»

سأل الطبيب: «أظنك تقصد رسوماتها الأولية؟»

قال: «هذا صحيح، وباشرت رسم المسوَّدات الاعتيادية. تلك هي وظيفتي، أو كانت كذلك! كنتُ آلة التصوير التي تسير على قدمين الخاصةَ بستوكتون حتى عصرِ أمس؛ ثم طُرِدت شرَّ طردة هديةً لعُرسي، ويُحتمل أن أُسجَن هديةً لشهر العسل!»

تهدَّج صوته الخشِن، على الرغم من استخدامه المفاجئ للهجة العامية والسخرية. دُفِعَ دولار دفعًا إلى اتباع سياسته الوحيدة.

قال: «لن أتظاهر بالجهل. سمعت بالأمر من وزير الداخلية. وعلمت بنَسْخ أحدِ رسوماتك الأخيرة ...»

هتف: «نَسْخ!»

قال الطبيب: «حسنًا، تقليدها على نحو سيئ، إن شئت القول.»

توقَّف الطبيب عن الحديث وكأنه انتهى من كلامه أو أن التصحيح قطع حبْلَ أفكاره.

سأل إيدنبورو بتجهُّم: «ماذا بعد؟ هل عِلمت كيف حصلوا على النسخة المقلَّدة؟»

أجاب: «من مكتب البريد، حسبما فهمت، في طريقها إلى الخارج.»

قال إيدنبورو: «مكتب البريد الخاص بنا. ما أعرفه أن ذلك الإجراء من شأنِه اندلاع الحرب بين الدولتين!»

«ألديك أيُّ فكرة عن الكيفية التي وصلت بها إلى هناك؟» سأله الطبيب بفظاظة؛ ولكن هذه المرة كان يقصد أن يكون فظًّا؛ ولم يبالِ عندما غضِب رفيقه غضبةً واهنة على الفور.

هتف إيدنبورو: «ماذا تقصد أيها الطبيب دولار بحق الجحيم؟ لا أعرف عن الموضوع أكثرَ — كنت سأقول، أكثرَ مما تعرف — لكن بدأت أظن أن لديك معلوماتٍ أكثرَ مما تتظاهر!»

قال دولار ببساطة: «لا أظن أنني تظاهرت بأي شيء.»

سأل إيدنبورو بحدة، مرتابًا غاضبًا: «حسنًا، ماذا تعرف إذن؟» وأضاف بسخرية صبيانية عندما تأخَّرت الإجابة: «أظنك تعرِف المسألةَ كلَّها، أليس كذلك؟»

قال الطبيب بجِدية وببطء شديدين، كأنه يُدفَع لأن يحدِّد مصيرَ أحدهم، إما الحياة أو الموت: «بلى؛ أعرف المسألة كلَّها.»

لم تنبعث صرخةٌ مفاجئة من إيدنبورو. منعه اعتزازه بنفسه من ذلك. لكن بدأت ركبتاه ترتعشان في ضوء المدفأة، ويداه المرتخيتان تنتفضان.

هتف في نهاية المطاف: «لا أصدِّق ما تقوله. أخبرني بما تعرفه!»

ردَّ الطبيب: «أعرف جميعَ الشكوك التي ساورتك، وأمرضَتك، وحرَمتك لذة النوم ... منذ فترة طويلة!»

نقلت نبرة الطبيب المشفقة ويده الحانية قناعتَه الكئيبة أكثرَ مما فعلت كلماته. وحينئذٍ كان المريض هو من ارتمى في المقعد، والطبيب منكبٌّ فوق كتفيه المنحنيتين والمرتعشتين.

تابع الطبيب: «يا عزيزي إيدنبورو، لستَ أول رجل تخونه، فيما يبدو، امرأةٌ ما بدم بارد ... أو دعني أقول امرأة بعينها. تذكَّر كلامي جيدًا. قلتُ فيما يبدو. ما كنتُ لأدين أعتى المجرمين دون سماع أقواله. أردتُ أن أستمع إلى الآنسة تريفلين أولًا، وفي أعماقي بصيصُ أمل، غير منطقي بالمرة، في أن لديها تفسيرًا غير متصوَّر لما حدث. لكن إن صحَّت بشأنها أسوأ الظنون، فسيكون العكس صحيحًا في حالتك؛ فلم أقابل رجلًا لقي ما لقيت وتحمَّله في جلَد مثلك يا صديقي العزيز!»

تنهَّد إيدنبورو ورأسه مطرق قائلًا: «ما الذي يدفعك إلى الشك فيها؟»

قال: «إنه ليس مجرد شك؛ فلا تخادِع نفسك يا إيدنبورو. أعرف يقينًا أن الآنسة تريفلين قلَّدت المخطَّطَين الأخيرين اللذين أُثيرَت بشأنهما هذه المشكلة كلُّها، وسلَّمتهما طوعًا لآخرين. ما أشكُّ فيه هو أنها جعلتك تريها المخطَّطَين الأصليين، بمجرد الانتهاء منهما، متذرعةً بشغفها بالشئون البحرية.»

قال إيدنبورو، كأنه لا يصدِّق ما يقوله أو كأن فكرةً أخرى خطرت له: «هذا صحيح تمامًا. لقد فَعَلَتْ ذلك.» ثم هتف، وهو يهبُّ واقفًا على قدميه: «لكن الشغف هو رأس هذه المشكلات! شغف أبيها؛ أو حياته في الحقيقة! أليس من غير المعقول أن ابنته — بصرفِ النظر عن جميع الأمور الأخرى التي اكتشفتها بشأنها — هي الفاعلة في هذه الحادثة، دونًا عن أي أحدٍ آخرَ؟»

أجاب الطبيب متنهدًا: «يؤسفني أن أقول إن الأمور غيرَ المعقولة تحدُث بنفس قدْر تواتر الأمور غير المتوقَّعة. في الحقيقة لا يهيِّئنا علمُ الجريمة إلا لهذين الأمرين تقريبًا. تذكَّر الأمهات المثاليات اللواتي كان أول ما لجأن إليه لإراحة عقولهن المضطربة هو قتل أطفالهن! إن انعكاس الانفعالات المسيطرة لهو أحدُ الأدلة على الإصابة بالجنون.»

هتف إيدنبورو: «لكنها ستكون مجنونة بالتأكيد لو أنها من ارتكبت هذه الجريمة. لكن هذا ما لا يمكنني أن أصدِّقه ولن أصدِّقه. يمكنني تصديق ذلك دقيقة ثم أعود أنكره في الدقيقة التالية، مثلما كانت تراودني الشكوك بشأنها ثم كنت أسخر من شكوكي،

طوال هذا الوقت العصيب. دائمًا ما كانت نظرة واحدة إلى وجهها كاشفة، وستكون كذلك في الوقت الحاضر.»

قال دولار وهو يتفقَّد الساعة: «حسنًا، سنرى ذلك قريبًا. لكن أود أن أحذِّرك أن الأدلة التي بحوزتي دامغة.»

سأل إيدنبورو بحدةٍ، في نوبة جديدة من العناد الأعمى: «هيَّا؛ فلتطلعني عليها إذن؛ ما أدلتُك؟»

قال دولار: «أنت تجبرني على أن أفعل، يا صديقي العزيز! الرب وحدَه يعلم أن لديك كلَّ الحق في ذلك، ولا يمكن أن يزيد ذلك الأمورَ سوءًا أكثرَ مما هي عليه. يتألف الدليل الذي بحوزتي من إقرار شامل غيرِ مباشر لوغد، لاحظتُ أنك كرهتَه فَوْرَ رُؤيته، ويعمل بمهنةٍ أمضيتُ الأسبوع في التحري بشأنها. لستُ بحاجة لأن أخبرك بأنني أقصد روكي السيئ السمعة.»

«روكي!» همس إيدنبورو بالاسم في محاولته الثانية كأن لسانه يرفض التلفُّظ بهذا الاسم البغيض. لكنه تجمَّد حينئذٍ في مكانه كما لو أنه استوعب الأمر في نهاية المطاف. أضاف بصوت عقلاني متوعد: «حسنًا، لا بد أن أعيشَ حتى أرسله إلى الجحيم، مهما كان ما سأفعله.»

قال دولار: «سيتعيَّن عليك أن تعثر عليه أولًا. لقد عاد إلى رؤسائه — من غير بني جلدته — فقد طرده الآخرون منذ مدة طويلة. وقد أخذت على عاتقي أن أفعل المثل، بدلًا من أن أسلِّمه للشرطة، وأتسبَّب في ضرر يفوق بكثيرٍ ما قد يُرجى من نفع.»

لكن إيدنبورو لم يكن يستمع إلى كلمةٍ واحدة مما قال؛ إذ كان يحادث نفسه، وتحدَّث جهرًا فور أن أُتيحت له الفرصة.

قال: «الآن عرفت لماذا كانت مولعة بمهنتي البائسة ... وبالقوات البحرية عمومًا، أليس كذلك؟ ... لا، لا أتخيَّل أن الأمر كان احتيالًا طوال هذا الوقت ... وكانت تتظاهر ببغضِها مثلي لذلك الرجل الفظ! أعتقد أنها هي الأخرى كانت تبغضه، لولا براعته في رقص الفالس ... لا، لم أشعر مطلقًا بالغَيرة منه، ولا في الوقت الحاضر ... بل إن ما أشعر به أسوأ بكثير، نحو هذا اللعين المنعدم الشعور!»

أبدى إيدنبورو تجردًا يعجز عنه فيلسوفٌ يلفظ أنفاسه الأخيرة. لكن دولار لم ينتبِه لهذا التحول؛ إذ كانت أذنه المترقِّبة قد التقطت رنين جرس كهربائي.

قال بصوتٍ متصالح متعجِّل: «إيدنبورو، آن أوان أن تُظهِرَ معدِنك الحقيقي. لقد أبقيت، حتى الحين، رأسك مرفوعًا وتحليت بالشجاعة؛ فلا تحنِ رأسك الآن وستصير

بطلًا! ما زلتُ لا أستطيع أن أتخيل كيف ستدافع الآنسة تريفلين عن نفسها، لكني أتوسَّل إليك أن تستمع إلى ما ستقوله؛ فقد دخلت المنزل في هذه اللحظة حسبما أعتقد.»

قال: «لوسي ... هنا ... هل كنتَ تترقَّب وصولها؟»

أجاب دولار: «أخبرتك أن لديَّ موعدًا آخرَ. لكنك أتيت أولًا، وتوالت الأحداث، وربما يكون هذا هو الأفضل للجميع. كان لا بد أن تسويا الأمر بينكما ... اليوم. لا أمانع البقاءَ إن كنت ترغب في حضوري ... لكن لا أحدَ على وجه الأرض يمكنه مساعدتك!»

أشار إيدنبورو هامسًا مذعورًا: «فيما عداك! لا يمكنني أن أواجهها بمفردي؛ لا يمكنني أن أثق بنفسي!»

كان هناك طرْقٌ على الباب لكن دولار لم ينتبِه إليه. قال بلطف: «يجب أن تفعل يا إيدنبورو. وأيًّا كان ما ستقوله لك — قليلًا أم كثيرًا، وربما يكون كثيرًا — لا بد أن تسمعه بأناةٍ حتى النهاية. هذا واجبك يا رجل! لا تخشَ تلبيةَ ندائه بحق الرب!»

قال إيدنبورو هامسًا: «لكني بالفعل أخشى مواجهتها! أخشى مواجهتها لأجلها بقدْر ما هو لأجلي. لن أخزيها، ولو كان روكي يقول ...»

انفتح الباب استجابةً لدعوة دولار بنبرةٍ حاسمةٍ بالدخول. كان الطارق هو الصغير بارتون، الذي جاء ليبلغه أن الآنسة تريفلين في غرفة الانتظار.

قال دولار: «أدخلها. لديَّ ما هو أكثر من مجرد أقوال روكي، يا إيدنبورو.»

نظر الشاب المُشتَّت حوله، مثل حيوان بري حبيس في قفص يبحث عن مخرج للهرب، ورأى المخرج في اللحظة الأخيرة.

قال بأنينٍ مشحون: «لن أكون الرجل الذي يخزيها مهما كان ما فعلته! إن كان ثمَّة تفسير، فلا داعيَ لأن تعرف أنني على دراية بالأمر؛ ولو لم يكن ثمَّة تفسير، فالسلام!»

تسلَّل إيدنبورو من النافذة المفتوحة، وخرج إلى الدَّرج الحديدي، فيما أشعل دولار المصباح الذي أحال ضوء الغسق بالخارج إلى ظلام؛ وانفتح الباب، بينما كان دولار يغلق الستائر باستماتة، في إشارة أخيرة إلى إيدنبورو ألا يتحرك من مكانه وأن يستمع على الأقل إلى كلِّ ما سيقال.

قالت الآنسة تريفلين بسرعة قبل أن يتبدَّد صوت خطواتها القوية: «عِمت مساءً أيها الطبيب دولار، أهناك خطْبٌ ما؟»

أجاب الطبيب: «أمنَ الممكنِ أنكِ لا تعرفين الأمرَ؟»

قالت: «أهو أمرٌ له صلة بجورج؟ أنت طبيبه، أليس كذلك؟» وجَّهت سؤاليها هذين بسرعةٍ أكبر، ولكن بحرص على ألا تُظهِر أيَّ بادرة قلق.

هتف الطبيب بانزعاج مباغت من وقفتها المتحفِّظة ونظرتها الثابتة: «لقد توجَّه إليَّ لطلب المشورة، لكن المسألة أوطد صلة بكِ. لا جدوى من اللف والدوران يا آنسة تريفلين! أريد أن أتحدَّث معك بخصوص الماركيز روكي.»

قالت: «حقًّا!»

كانت الآنسة تريفلين قد أجفَلت عند سماعها للاسم، لكن بدت عيناها أكثر إشراقًا وجرأة، ولم يتخلَّ وجهها الحازم عن عناده وهدوئه.

واصل الطبيب: «لقد فرَّ الماركيز روكي من البلاد بالأمس يا آنسة تريفلين.»

قالت: «كنت أتساءل عن السبب في عدم مجيئه إلى نادي الأمير!»

قال دولار بحزم: «لقد لاذ بالفرار بسبب الفضيحة التي أنتِ متورطة فيها. كان يتاجر في الأسرار البحرية — أسرار هذه البلاد، يا آنسة تريفلين — ويقسم أنكِ من بعتِها له. أهذا صحيح؟»

قالت الفتاة بعد أن ظهرت عليها بوادرُ الانفعال للمرة الأولى: «مهلًا، أتقوم بهذا الاستجواب من تلقاء نفسك أم نيابةً عن السيد إيدنبورو؟»

أجاب الطبيب: «من تلقاء نفسي تمامًا.»

قالت: «هل كنت تتقصى الحقائقَ بناءً على رغبةٍ منك فحسب؟»

أجاب: «يمكنك التعبيرُ عن الأمر على هذا النحو.»

سألت: «هل أنت محقِّق وطبيب كما يبدو؟»

قال: «أتوسَّل إليكِ، يا آنسة تريفلين أن تخبريني إن كانت هذه الأقاويل صحيحة!»

قالت: «لتنقلَ الإجابةَ إلى مريضك، أليس كذلك؟»

قال دولار بنبرةٍ غير صادقة، لكنها تفيض بحزن أعمق: «نعم. لن أخبره.»

قالت: «حسنًا! سأخبرك، وبعد ذلك يمكنك أن تصدح بها في ميدان عام، فلا أكترث. ما قلتَه صحيح تمامًا!»

أجفَل دولار، ليس من كلامها الذي كان متيقنًا منه قبل أن تتلفظ به، لكن من الطريقة التي تلفَّظت بها بهذا الكلام. بدا لعين الطبيب وأذنيه أنها بلغت الحد الأقصى في انعدام الضمير النابع عن سوء الخلق، وعدم الحياء، والتبجُّح. ألقى نظرةً خاطفةً على النافذة المُسدلةِ الستائر، لكن لم ينبعث أيُّ صوت أو حركة من الدَّرَج الحديدي بالخارج.

سمع نفسه يقول في النهاية، بنبرة صبيانية للغاية، حتى إنها جعلته لا يستغرب ابتسامتها: «أصحيح أنك بعتِ تلك الرسوماتِ لهذا المدعو روكي؟»

أجابت الآنسة تريفلين: «هذا صحيح تمامًا.»

«هل بعتِ الرسومات التي رسمَها جورج إيدنبورو للأميرال الأعلى، وأطلعكِ عليها نظرًا إلى أنكِ كنتِ أقوى شخصيةً منه وأصررتِ على رؤيتها، لكن بعدما استأمنكِ على المحافظة على سريتها، بين رجل وامرأة سيجمعهما رباط الزواج في المستقبل؟»

قالت الآنسة تريفلين بضجر: «لم أبِع رسوماته. لقد نسختُها، بالتقريب اعتمادًا على ذاكرتي، ثم بعتُ ما اجتهدت فيه.»

قال بنبرةٍ تنطوي على توبيخ، وعجبه يزداد أكثرَ فأكثر: «أعرف ذلك بالطبع! كانت زلة لسان لا أكثر. كما أنكِ تقرين بجريمتكِ بلا ذرة خجل!»

ردَّت السيدة ببراعة: «سأجعلك أنت الذي تخجل من نفسك، أيها الطبيب دولار. لقد اكتشفتَ ما فعلتُه بمهارة لكنك لم تسألني عن الدافع؛ لا أرى هذا التصرف لائقًا بشخصٍ ماهر مثلك، لكن لا يسعني إلا أن أشرح الأمر قبل مغادرتي. الرسمة الأولى المُسرَّبة لم تكن نسخةً مزورةً؛ بل كانت النسخة الأصلية هي التي تحصَّلوا عليها في تلك المرة، وسُرقت من السيد إيدنبورو، في طريق عودته إلى المنزل من الأميرالية. لم يعرف قَط أين تحديدًا سُرقت منه، لكني طوال الوقت كنت أظن أنني أعرف. أنت محقِّق نوعًا ما، أيها الطبيب دولار؛ حسنًا، وأنا كذلك، بطريقتي الخاصة. لم تطلعني على سرِّ نجاحك؛ لذا ينبغي لي ألا أضجرَك بسرِّي. خمنتُ حصول هذه السرقة في نادي الأمير، وشككت في أن الفاعل هو روكي، وكانت هذه هي القصةَ كلَّها. حدث ذلك في الربيع الماضي، وانشغلت طوال الصيف في التفكير في الحادثة. لكن عندما فُتح النادي، شرعتُ في العمل؛ إذ كان روكي يحاول التودُّد إلى كلينا كما فعل من قبل. لم تفلِح محاولته كثيرًا مع جورج، لكن حاولت التودُّد إليه في غياب جورج، وفي بعض الأحيان في وجوده أيضًا!» وأضافت لوسي تريفلين، بما يشبه تنهيدةَ حزن على فراق رفيق تزلُّج رائع: «فهو يستطيع أداء رقصةِ الفالس، كما تعلم، وأنا أيضًا.»

قال الطبيب: «لكنكِ نسختِ الرسمتين الأخريَين، واعترفتِ ببيع النسختين له، أليس كذلك؟»

قالت الآنسة تريفلين بعينين متألقتين: «بعتُ النسختين بالفعل، ويمكنك أن تخمِّن ما فعلته بالمال الذي جنيته منهما؛ لكن ليس عدلًا تسميتهما بالنسختين. لقد جعلتهما غيرَ دقيقتين بأقصى درجة ممكنة دون إفساد الأمر كلِّه، وفي الحقيقة لم أستطِع رسمهما على هذا النحو غير الدقيق من ذاكرتي فحسب، لا سيما أنهما كانتا مسوَّدتين أوَّليتين

أصلًا! بالطبع كان جورج مخطئًا في أنه سمح لي برؤيتهما، لكنه كان يساعدني في قضيةٍ نبيلة. كان روكي جاسوسًا محترفًا خبيرًا. سرعان ما جعلته يدرك حجمه. لكنه لم يكن خبيرًا بالشئون البحرية على عكسي! هذه مفخرتي الأخيرة أيها الطبيب دولار؛ لكنك ستجد أن للأمرِ ما يبرِّره، إذا فكَّرت فيه من ناحية أننا، أنا وجورج، منعنا عدوًّا للأمة من إلحاق أَذًى خطير، وتقديم خطط مزيفة لدولة صديقة، ومنحنا المال لرابطتنا البحرية العزيزة!»

نظر دولار بعينين باديتي الذهول إلى الفتاة الوقحة المتألقة. وكان الأمر الوحيد الذي أحزنه هو أن إيدنبورو لم يندفع عبَر الستائر على الفور؛ لا بد أنه يتمتع برباطة جأش استثنائية، عندما يشاء.

قالت عروس جورج: «لا أعني أن جورج كان طرَفًا مشاركًا عن وعي في عملية التزوير هذه؛ ما كان ليوافق عليها، كان من المستحيل أن يفعل ذلك، جورج المسكين! لكني سأحكي له القصةَ كلَّها الآن؛ بالطبع كنت طوال الوقت أنوي أن أخبره — بعد غدٍ — لكنه لديه ما يكفيه من المشكلات الخاصة به، كما أن هذا المخطَّط كان مسئوليتي أنا. أظن أنك لا تعرف ما الذي كان يزعجه أيها الطبيب دولار؟ يقول إنه يشعر بالإجهاد بسبب الإفراط في العمل، لكني أرى اللورد ستوكتون عجوزًا ظالمًا؛ أتدري أنني لم أرَ جورج منذ أول من أمس في نادي الأمير؟»

قال دولار دون أن يشعر بأي تأنيب ضمير: «ولا أنا. لم أرَه منذ ذلك الوقت وحتى الساعة.»

ختمت الآنسة تريفلين كلامها، كأنهما صديقان حميمان: «أعرف بالتأكيد أنه على ما يُرام؛ لأنه حدَّثني هاتفيًّا العديد من المرات ليخبرني بذلك، وبدا يوم الاثنين أفضلَ حالًا مما كان منذ مدة طويلة. لكن دعني أعترف أنني سأشعر بالسرور عندما أستطيع أن أبعدَه عن هذه الأجواء ليحظى بقسط وافرٍ من الراحة.»

رفضَت الاستماع إلى كلمة أخرى من دولار، ولو على سبيل الإيضاح أو الأسى، ورحلت عن المكان بغتةً، على نحوٍ ينبئ عن شخصية قوية الإرادة. لكن كان قد انتابها شعورٌ بالإحراج مرةً على الأقل في الدقائق الأخيرة. أما الطبيب فركض إلى خلوته، بقلبٍ يرقص طربًا، مستعدًّا لعناق مريضه في فرح بالغ وتهنئة خالصة.

لم يكن هناك مريضٌ ينتظره في غرفته في تلك اللحظة، لكن الستائر كانت تتمايل قليلًا أمام النافذة المفتوحة. قطع دولار المسافةَ الفاصلة بينه وبين النافذة في قفزة واسعة؛ لكن لم يجد أحدًا بالخارج على الدَّرج الحديدي، وارتفعت الستائر وراءه، فيما انغلق

باب الغرفة بقوة بفعل التيار الهوائي. كان ذلك الحيز الصغير القبيح في الجزء الخلفي من المنزل، بين الجدران السوداء العالية ذات الإفريز المزيَّن بالزجاجات المكسورة، يمتد خاليًا من أي علامات للحياة تحت فيض الضوء الآتي من النوافذ الخلفية، باستثناء قطة نشيطة لاذت بالفِرار قبل أن ينزل دولار إلى القبو في عجل.

قالت السيدة بارتون على الفور: «لقد رحل السيد. جاء من هذه الناحية منذ قليل ... قائلًا إنه لا يطيق الانتظار بالخارج أكثرَ من ذلك!»

سأل دولار: «برأيكِ كم قضى من الوقت منتظرًا؟»

قالت السيدة بارتون بحزم: «ليس طويلًا. كان بوب في راحةِ شاي الساعة الخامسة يتناول وجبةً خفيفة عندما اضطُر إلى صعود الدَّرج ليحضِر السيدة الشابة إليك؛ أما فيما يخص السيد الشاب، فلم تمضِ ثلاث أو أربع دقائق قبل أن يمرَّ من هنا كأن نازلةً ألَمَّت به.»

قال دولار: «لم أسمعه.»

أجابت: «كان حريصًا على ألا يزعجك، يا سيدي.»

سأل دولار: «أأنتَ من اصطحبته إلى الخارج يا بوبي؟»

لم يتعامل السيد بفظاظةٍ معهما من قبلُ مطلقًا. فشعرت السيدة بارتون أن ثمَّة خطْبًا ما، لكن فرائص بوبي ارتعدت.

أجاب بوبي: «نعم يا سيدي!»

سأل دولار: «أيَّ طريق سلك؟ وهل غادر سيرًا أم ركِب سيارة أجرة؟»

ردَّ بوبي: «أنا ... عفوًا يا سيدي ... لم أهتمَّ بالتوقف لمراقبته يا سيدي!»

هُرع دولار إلى هاتفه؛ وسرعان ما تركه ليركب سيارة أجرة؛ وذهب إلى مكان إقامة إيدنبورو فلم يجده؛ وسأل عنه (بصفته مدعوًّا مجهولًا لا يدري أيُّ كنيسة سيُعقد بها العَقد) في منزل الأميرال تريفلين فلم يعطِه أحدٌ إجابةً شافية؛ وفي السادسة والنصف وصل إلى مجلس العموم، وإلى سكوتلاند يارد (مزودًا بأمرٍ كتابي من وزير الداخلية) قبل السابعة.

في تلك الساعة وذلك المكان، خرج الأمر من سيطرة الطبيب جون دولار، الذي لم يكن بوسعه إلا أن يسرع في العودة إلى منزله في شارع ويلبك، حيث كانت تنتظره أكثرُ ليلة مرهقة للأعصاب في حياته بلا نوم، حاملًا هاتفه اللعين تحت إبطه، ويُجري الاتصالات التي أخذ يسأل فيها عن مكان إيدنبورو في قلق، فيما انقضت الليلة ببطء شديد!

لكن لم يَرِده أيُّ خبر.

قُرب منتصف الليل، جاء توبام فينسون، يحمل شطائرَ لذيذة وزجاجة الشمبانيا التي كان قد وجدها تنتظره في المنزل. كان تصرُّفه يليق بقائدٍ بالسليقة؛ إذ لم يكن الطبيب قد ذاق الطعام منذ وجبة الغداء، ولم يغلُبه النُّعاس في الساعات الأولى من الصباح سوى مرَّة واحدة ولعدة دقائق في مقعده.

لكن السياسي لم يكن بالمِزاج الذي يسمح له بالانتظار على الهاتف ليتسنَّى له التحدث إليه؛ أجرى العديد من الاتصالات؛ وأزعج نحو اثني عشر مساعدًا، وفي النهاية حصد نتاج جهده بأن بُعث به إلى مستشفى هامرسميث للتعرف إلى جثة موظف، كان متورطًا في مخالفات مالية، أُخرجت للتو من نهر التايمز.

قال دولار، حتى عندما بدا أن التفاصيل كانت تتطابق مع مواصفات إيدنبورو: «لن أذهب معك. لن ينتحر إيدنبورو غرقًا، وهذه هي قناعتي.»

بدا وكأن الطبيب قد كبر عشر سنين وهو يفتح الباب الأمامي لمنزله مرةً أخرى عند انبلاج الصبح. كان وجهه شاحبًا، مثل أشعة الفجر في فصل الشتاء، فيما وقف أمام القادم منحنيًا منكسرًا. كان توبام فينسون يقف مصعوقًا على عتبة بابه.

قال فينسون: «لم ينتهِ الأمر، أليس كذلك؟»

أومأ الطبيب بشفتين مزمومتين.

سأل فينسون: «متى وأين؟»

قال: «لا أعلم. تفضَّل بالدخول. الخدم يستيقظون في الطابق السفلي؛ وسيكون الإفطار جاهزًا بعد هنيهة.»

قال فينسون: «بحق الرب أخبرني بما سمعته!»

قال دولار: «ألم أخبرك؟ اتصلَ بي شخص بعد ذهابك مباشرة. وأبلغني أنه اشترى حمض البروسيك أمس!»

كان دولار قد ارتمى في مقعده العتيق الدقيق الصنع؛ وتدلى رأسه المطرِق بين يديه، وانعكست صورته على طاولة الكتابة التي تشبه طاولات الرهبان.

سأل الرجل الواقف: «من اتصل بك؟»

أجاب دولار: «أحد رجالك.»

سأل فينسون: «هل هذا ما أخبرك به فحسب؟»

أجاب دولار: «هذه هي كل المعلومات التي حصلت عليها؛ وسرعان ما سنعرف البقية.»

سأل فينسون: «من أين اشترى الحمض؟»

ردَّ دولار: «من الصيدلي الذي كان يتعامل معه ... «من أجل إراحة كلب عجوز مسكين من عذابه!» هذه كانت كلماته، يا فينسون، حسبما قيل لي! لن أنسى هذه الكلمات ما حييت.»

قال فينسون: «وهل استغرق الأمر كلَّ هذا الوقت لمعرفته من الصيدلي الذي اشترى الشقي المسكين منه الحمض؟!»

فهِم دولار غضبه العنيف.

قال: «هذه كانت غلطتي. لقد أخبرتهم أن يركِّزوا انتباههم على المدخلات في سجلات المواد السامة التي جرت بالأمس بعد الخامسة مساءً. لقد وَقَّع إيدنبورو باسمه واشترى الحمض في وقتٍ أسبق أمس.»

سأل فينسون: «قبل أن تخبرَه بأي شيء؟»

ردَّ دولار: «لا تنسَ أنه كانت لديه شكوكه. وكنتُ قد أكدتها، كما أن كلماتها الأولى حسمت المسألة لديه، حتى إنه لم يطِق مواصلةَ الاستماع إلى بقية اعترافها!» أضاف متأوهًا كأنه في حفرة بلا قرار من تأنيب الضمير: «ليته انتظر دقيقةً أخرى! ليتني أخذته من مَجامعه كي يواجه الحقيقة! أدعو نفسي طبيب الجريمة، لكني تركت مريضي يفارق الحياة بزجاجة من حمض البروسيك ويرتكب جريمةً كان يتعين عليَّ منعها!»

سأل فينسون: «أتساءل لماذا استخدم حمض البروسيك؟»

وجَّه فينسون سؤاله وهو لا يتوقع أن يحصل على المعلومات، لكن تصادف أن دولار كان يمتلك إجابةَ هذا السؤال بعينه، فاتجه إلى أرفف الكتب بنشاط مفاجئ.

قال: «أعرف السببَ وإن لم يكن قد خطرَ ببالي حتى هذه اللحظةِ! كنت أحاولُ كتابةَ روشتةِ دواء ليلةَ الأحد، عندما علَّق الشابُّ المسكين فجأةً مستحسنًا كلامَ شيلي، ووجدته مستغرقًا في قراءةِ خطاباتِ السالفِ ذِكْره، وهداني الحظُّ إلى تخمين الفقرة التي لفتت انتباهه. كان نصُّ المقطع كالآتي» وقرأ الفقرةَ مستهلًّا بـ: «أنت، بالطبع، تنخرط في مجتمع ليجهورن: فإذا التقيت بأيِّ عالِم يستطيع تحضيرَ حمض البروسيك أو زيت اللوز المر العطري، فسأشعر ببالغ الامتنان إن أحضرت لي بعضًا منه»، إلى أن انتهى بـ: «سأشعر بالراحةِ وأنا أمسكُ بين يديَّ ذلك المفتاحَ الذهبيَّ لغرفةِ السلام الأبدي.»

لم يفعل توبام فينسون شيئًا سوى أن التقط الكتابَ الذي سقط على الأرضِ عندما انتهى دولار من قراءةِ النص. كان دولار يترنَّح في مكانه وينظر في رعبٍ إلى الباب؛ وفي تلك اللحظةِ بعينها فُتح الباب، ومنه دلفت السيدة بارتون، تحمِل صينيةَ الشاي.

قال الطبيب بصوتٍ خذلَه على نحوٍ لم يحدُث طوال الليل: «لا أريد أن أوذيَ مشاعركِ يا سيدة بارتون، لكن هل كان ولدُكِ صادقًا عندما أخبرني برؤيته للسيد إيدنبورو وهو يخرج من المنزل؟»

هتفت المرأة الصالحة: «لا، لقد كذب يا سيدي، وقد ضربه والده ضربًا مبرحًا على هذا! لقد ارتكبت عائلةُ بارتون خطأً فادحًا، وأنا مذنبة في ذلك مثل ابني لأنني لم أخبرك بالحقيقةِ في حينها. لذا فنحن مخطئون جميعًا، ولا نستحق المُكث في منزلك، وهذا ما أخبرتهما به!»

قُوبل اعتراف المرأة المسكينة بالصفح والمواساة، وعاملها الطبيب، بتعاطف غير واعٍ، لم يخفَ عن توبام فينسون الذي شمله ذلك التعاطف بعد لحظة.

قال دولار: «تناول كوب الشاي الخاص بك. سيكون نافعًا لك.»

قال فينسون: «ماذا عنك؟»

أجاب: «سأذهب للطابق العلوي أولًا.»

قال فينسون: «لقد خطر ببالك شيء ما!»

أجاب دولار بصوتٍ هامس مأساوي: «هذا صحيح. لقد خطر لي تفقُّد غرفةِ السلام الأبدي بمنزلي.»

كان ذلك الملاذ في الطابق الثاني، وكانت له ثلاثة أبواب عريضة لدرجةِ أنه كان لا بد من غلق كل باب على حدةٍ قبل فتح الذي يليه. وبصرف النظر عن الصَّخَب الموجود في المنزل، عندما يدلف المرء من باب الغرفة، كان يترك الأصوات كلَّها خلفه. كما امتازت الغرفة بنوافذَ ثلاثيةِ الطبقات من شأنها عزْلُ صوتِ انفجارٍ على إطارها، وجدران سميكة البطانة تحت كسوتها الظاهرية من خشب الصَّنوبر العطري.

أول ما يدخل المرء الغرفةَ كان يغشاه شعورٌ بالسلام والسكينة اللذين تعجز الكلمات عن وصفهما؛ ثم تتسلَّل إلى أنفه رائحةٌ مُهدئة خفيفة، شأن توابل شبه الجزيرة العربية؛ وفي النهاية، يحسُّ بوجود نظام تهوية مبني على أسسٍ علمية على نحوٍ مُثير للدهشة، يجعل الجدرانَ الأربعة عازلةً للصوت دون أن تمنع دخول الهواء من الخارج، بل تسمح بدخول الهواء اللاذع للجبال المكسوَّة بأشجار الصنوبر، ودورانه في الغرفة بصورة إعجازية، في قلب لندن.

كانت هذه التفاصيلُ تصيب الزائر بالدهشة شيئًا فشيئًا؛ لكنها لجون دولار الذي ابتكرها وأشرف على تنفيذها كانت مألوفةً وطازجة، فيما كان يدخل الغرفة بصحبة وزير

الداخلية بهدوء؛ وانقض على حواسه على الفور تأثيرُ مركبٍ مُعَيَّن، لم يتوقَّعه في البداية ولم يهتدِ إلى تفسيره، وامتزج بشعوره بالإنهاك؛ فوجد الطبيب نفسه مدفوعًا لإلقاء جسدِه على الفراش أو الأريكة، مثلما يغرَق بائس هالك في الثلج، لولا ذلك الضوء في الغرفة وما كشف عنه.

ألقى الضوء وهجًا نحاسيًّا غريبًا دفيئًا، كان الطبيب قد اكتشفه بنفسه بصبغ المصابيح الكهربائية غير الشفَّافة مثلما يصبغ الأطفال البَيض في عيد الفصح؛ كان الوهج رقيقًا أيما رقة، ويلقي بظل مرهف فلا تتأذَّى العينان بالنظر إليه، وأحال الغرفة إلى رَدهة صغيرة برونزية. ربما كانت الستائر البسيطة محبوكةً من الدانتيل الذهبي الذي فقدَ الكثير من رونقه بتعاقب السنين؛ وكان الأثاث من النحاس المُصمت؛ والفراش على الطراز الشرقي بلا حافة ولا رأس؛ والجسد المستلقي على الفراش لعربي نائم.

كان النائم على الفراش هو جورج إيدنبورو بكامل حلَّته، وبجواره على غطاء الفراش صورةٌ فوتوغرافية لفتاة، وبجوار الصورة قارورة صغيرة تلألأت في ضوء الغرفة.

همس دولار قائلًا، بصوتٍ أصاب رفيقَه بالإثارة حتى النخاع: «الزم مكانك!» وتسلل على أطراف أصابعه إلى الفراش، وانحنى على النائم برهةً قبل أن يتراجع إلى الباب بهدوء شديد.

«كم مضى على وفاته؟» سأل توبام فينسون بخشونة؛ لكن في الحقيقة، كانت الدماء قد تجمَّدت في عروقه، وهو ينظر إلى الابتسامة الغريبة التي ارتسمت على وجه الطبيب في ذلك الضوء الغريب.

كرَّر الطبيب بصوتٍ مبحوح: «وفاته؟ ألا تعرف رائحةَ اللوز المر؟ ألم تشمَّها بعد؟ ها هي ذي القارورة الذهبية التي لم يفتحها عندما استلقى على الفراش — ربما للمرة الأولى منذ قدومه إلى هنا ليلةَ الأحد — وها نحن أولاء الآن في صباح يوم عُرسه، وهو لا يزال يغطُّ في النوم!»

الفصل الخامس

ناظر مدرسة بالخارج

١

يتوافد إلى سويسرا في عطلةِ عيد الميلاد أناسٌ قليلون. وهم في معظمهم ينتمون إلى طبقةٍ اجتماعية بعينها تُزوِّد الطبيبَ دولار بالجزء الأكبر من قضاياه. لذا لم يكن متفاجئًا، ليلةَ وصوله إلى فندق إكسلسيور الفاخر في بلدة وينترواله، بتلك اللمسةِ المختلفة على كتفه، ووجْه أحدِ أحدث مرضاه الذي لفَحَتْه الشمس.

كان جورج إيدنبورو قد اختار وينترواله وجهةً لقضاء شهر العسل، وعندما التقى بطبيب الجريمة، لم يكن هناك ما هو أحبُّ إليه وعروسه ذات الشعر البني الغامق من أن ينضمَّ إلى طاولتهما. شعر الطبيب ببعض الحرج من دعوتهما، لكن كان لديه من الأسباب ما يمنعه من الرفض القاطع. أعدَّت العروس الطاولةَ بحيوية مبهِجة، فيما اختار زوجُها زجاجةَ نبيذ تليق بالمناسبة، وشرح الوافد الجديد أنه وصل إلى سويسرا في قطارِ ما بعد الظهيرة، لكنه لم يأتِ إلى الفندق مباشرةً.

قالت السيدة إيدنبورو: «إذن لا بد أنك لم تسمع عن مغامرتنا المثيرة، وأخشى من أنها لن تروقك عندما تسمعها!»

ردَّ دولار بتأنٍّ متعمَّد: «إن كنتِ تقصدين مسألةَ سُمِّ الإستركنين، فقد سمعت روايةً عنها قبل وصولي إلى هنا بساعة. لا يمكنني القول إنني أحببتُ ما سمعت. لكني أحب معرفةَ رأيكما بخصوص هذه المسألة.»

أعاد إيدنبورو قائمةَ النبيذ للنادل، وأملى عليه أوامره بجدية شديدة.

سأل إيدنبورو عروسَه بسرعة: «هل تحكين له عن فضيحتنا الطبية؟ ستصيبك هذه الرواية بالقشعريرة أيها الطبيب العزيز. لقد وصف الطبيبُ العام المحلي لأحد المرضى حبوبَ الإستركنين الكفيلةَ بقتل متعاطيها في غضون عشرين دقيقة!»

قال طبيب الجريمة بنبرةٍ جافة: «هذا ما سمعْته.»

واصل إيدنبورو حكايته توقيرًا للطبيب الذي جلس أمامه بهدوءٍ يفوق ما هو معهود من الأطباء البريطانيين: «عانى المتوحِّش المسكين إجهادًا شديدًا بسببِ الإفراط في العمل. يقولون إنه ظل مستيقظًا لمدة ليلتين متواصلتين الأسبوع الماضي؛ ويبدو أنه الطبيب الوحيد في المكان، والفنادق ملأى بالأشخاص الذين يبذلون غايةَ وُسعهم للوقوع في المخاطر. في هذا الأسبوع وحدَه شهدنا إصابتين بارتجاج في المخ وإصابة بكسر مضاعف. لكن أن تعطيَ مريضَك مادةَ الإستركنين بجرعة تزيد مائة مرة عن الجرعة التي كنت تنوي أن تعطيَها له ...»

أوقف إيدنبورو نفسه بعدما رأى أن الموضوع الذي تناوله في البداية بسبب توتُّره لا أكثر، له صلة مباشرة بطبيب الجريمة في كل الأحوال.

سأل الطبيب بمهارة: «قل لي، ماذا عنَّ للمريض؟ لو أن جزءًا مما سمعته صحيح، فما كان موته ليصبح خسارة كبيرة.»

قالت لوسي إيدنبورو بنبرة استهجان: «يؤسفني أن أقول إنها ما كانت لتصبح كبيرة.»

هتف إيدنبورو وهو يلمس كأسَه: «كان زميلي في المدرسة الخاصة، وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين بعدُ، ويتصرف بحماقة كبيرة. يا له من أمرٍ مثيرٍ للشفقة. لقد كان جاك لافريك فتًى طيبَ المعْشَر.»

أقرَّت العروس: «بدا لطيفًا جدًّا عندما جاء إلى هنا العام الماضي، ولا يزال رياضيًّا. إذ فاز بنصف سباقات الزلَّاجات في الموسم السابق وتعامل مع الأمر بروحٍ مرحة؛ لكنه صار الآن شخصًا مختلفًا، والأمر الأهم أنه يتصرَّف بغرور شديد. ومع ذلك، أتوقَّع إما أن يفوز السيد جاك لافريك بكل السباقات أو أن تُدَقَّ عنقُه دون ذلك. من الواضح أنه ليس مقدَّرًا له أن يموت مسمومًا.»

سأل الطبيب: «هل صادف إخفاقًا العامَ الماضي يا سيدة إيدنبورو؟»

أجابت: «كادت أن تُقطَع إحدى أذنيه عندما اختل توازنُه فوق المضمار الثلجي. هذا ما قيل؛ لكنه عاود التزلُّج في اليوم التالي.»

أضاف إيدنبورو، في نفس الوقت الذي وصلت فيه زجاجة الشامبانيا: «في ذلك الوقت اعتنى به الطبيب ألت عنايةً جيدة، حسبما سمعت. لكن آمُل أن تتولَّى «أنتَ» رعايته! لقد

كان حقًّا شابًّا خلوقًا، لكن الأمر سيستغرق منك وقتًا طويلًا، أيها الطبيب دولار، حتى تردَّه إلى سابق عهده.»

ابتسم طبيب الجريمة وهو يرفع كأسه ويردُّ على كلمات الثناء بمثلها. كانت ابتسامته تُنبئ عن أن لديه من القضايا الهامة ما يغنيه عن الانشغال بتلك المسألةِ البسيطة. لكنه كان هو من تطرَّق إلى موضوع الشاب جاك لافريك مرةً أخرى، مستفهمًا عمَّا إذا كان لديه معلِّم أو شخص آخر يُعنى بأمره، ولماذا لا يقوم بوظيفته على الوجه الأكمل.

على الفور انقلب الزوجان إيدنبورو على صديقهما. لم يكن السيد سكارث المسكين يستحقُّ اللوم! فقد كان، فيما يبدو، هو ناظرَ المدرسة الإعدادية التي التحق بها جاك لافريك وجورج إيدنبورو في صباهما. كان شخصًا رائعًا وذائع الصيت في الفندق، لكنه لم يكن يستحق سوى الشفقة في تلك المسألةِ قيدِ النقاش. كان الشاب قد بلغ سنَّ الرشد، ولديه من الصلاحيات ما يتيح له طرده في أي لحظة، كما كان يهدِّد دائمًا في لحظات سُكْره. لكن فيما يخص السُّكر كان الشاب يعاني مشكلةً كبيرة؛ فكأس واحدة من الخمر كانت تكفي لأن يفقد رُشدَه، وهو الأمر الذي لم يكن خافيًا على أحد.

قالت السيدة إيدنبورو بنبرةٍ تشي باسترجاع ذكرياتٍ ماضية: «لكن لم يكن يحدث شيء من هذا القبيل في العام الماضي؛ على الأقل، على حدٍّ علمي. ولهذا يجد السيد سكارث المسكين صعوبةً كبيرةً في التعامل مع هذا التغير الطارئ.»

أعلن دولار عن شوقه للقاء السيد المسكين؛ تبادل الزوجان النظراتِ ثم أخبراه بأن ينتظر حتى الانتهاء من الحفلة الموسيقية التي كان ينبغي له ألا يفوِّتها. هل ستكون هناك حفلة موسيقية؟ ظهر الامتعاض على وجهِ الطبيب إزاء هذه الدعوة، لكنَّ عينَي العروس التمعتا في استمتاع. لم تكن لتقبلَ برفضه الحضور، بل أخذتها الحماسةُ فأنهت العشاء مبكرًا، كي تحجزَ مقاعدَ جيدة للحفلة الموسيقية. كانت امرأةً قويةَ الإرادة واسعةَ الحيلة، وسرعان ما وجد دولار نفسه جالسًا بين الزوجين في شرفةٍ تُطِلُّ على قاعة رقص فسيحة، حيث تقع خشبة المسرح في طرفها البعيد.

لبَّت الحفلة الموسيقية توقُّعاته التهكمية، واستسلم لشعوره بالملل، الذي زاد من حدَّته السلوكُ الفج لبعض الشباب المتفكِّهين الأجلاف الجالسين في الصفوف الخلفية. توالت الأغاني المملة واحدة تلو الأخرى، وحظيت كلُّ أغنية منها بطلبٍ صاخب من الشباب الوُسَماء المرحين بإعادتها. بعد ذلك قصَّ روائي مشهور قصصًا مُغرِقةً في المحلية من ناحية اللهجة والثقافة؛ وأدَّت سيدة إلقاءً بروح مذهلة؛ كما عبث موسيقيٌّ بكمانه بنفس

القدْر من الشجاعة؛ لكن خرجت الصفوف الخلفية في الشرفة عن السيطرة تمامًا عندما اعتلى سيدٌ أسمرُ البشرة خشبةَ المسرح، ولم يفتح شفتيه حتى لبِس الجالسون في الصفوف الخلفية عباءةَ التقوى وصفَّقوا بحماسة بريئة.

لاحظ دولار التغيُّر الذي طرأ على الصفوف الخلفية على الفور فسأل رفيقيه: «من هذا الرجل؟!» لكن حتى لوسي إيدنبورو لم تُجِب إلا بقولها: «صمتًا، أيها الطبيب!» ومالت للأمام بعينين متألقتين. ولو أن إبرة سقطت حينئذٍ على الأرض لسُمع رنينها للسكون الذي عمَّ المكان، قبل أن يبدِّد الممثل ذو البشرة الداكنة هذا الجوَّ المشحون وينهمك في تمثيل مشهد من رواية «مذكرات بِكوِك».

أدَّى الممثل مونولوجَ السيد جِنجل، في العربة المسافرة إلى روتشستر، وحاكى التُّرهات السرمدية بطريقة فذة. لم يكن هناك من يستطيع أداءَ دور ذلك الرمز الهزيل، سوى هذا الرجلِ الطويل الأسمر، ذي الشارب الأسود القصير، والأسنان اللامعة التي تخرج من بينها كلُّ كلمة بسرعة ودقة.

قال: «سيدة طويلة، وهي تأكل «الشطائر» ... فنسيت الباب ... طاخ ... الأولاد يتلفتون حولهم ... وإذا برأس الأم يطير عن جسدها، والشطائر في يدها ... لم يعُدْ هناك فمٌ تدخل فيه ...» وزاد تجهُّمه من مرحِ الجمهور وصخَبِه.

انتظر بعبوس حتى عمَّ الهدوءُ المكان، وأسهمت كآبته المتعمَّدة في زيادة استمتاع الجمهور. لكن عندما وصل الممثل إلى واقعةِ دونا كريستينا وغسيل المَعِدة، والاكتشاف الهام لجثة دون بولارو فزجيج في الأنبوب الرئيسي للنافورة العامة، استجلبت قهقهاتُ نصف الجمهور في نهاية المطاف سخطَ النصف الآخر الذين طالبوهم بالتزام الصمت. كانت زوجة جورج إيدنبورو واحدةً من الجمهور المشاغب الأكثرِ صخبًا. واضطُر جورج إيدنبورو نفسه إلى مسحِ عينيه من كثرة الضحك. ونسي طبيب الجريمة أن هناك شيئًا اسمه جريمة.

هتف الطبيب: «يا له من عبقري!» عندما لبَّى الممثل طلبَ الاستزادةِ من الجمهور بمقتطفات إضافية صغيرة من مشاهد السيد جِنجل كان قد احتفظ بها بمهارة. وأضاف الطبيب: «لكن من هو هذا الرجل يا سيدة إيدنبورو؟»

أجابت العروس بنبرةٍ متفاخرة ممتزجة بنشوة الانتصار: «إنه السيد سكارث المسكين!»

حينها ذهبت فرحة الطبيب.

قال: «أهذا هو الشخص الذي يعجز عن العناية بشابٍّ صغير بينما يمكنه أن يتحكم في جمهورٍ كهذا ويضعه في قبضة يده؟»

في البداية، بدا عاجزًا عن التصديق، ثم فجأة بدا وكأنه فهِم الأمر. آنذاك كان الزوجان إيدنبورو يدافعان بحماسةٍ عن بؤس السيد سكارث، ولم يسَعْ دولار سوى أن يعرِب عن رغبته في لقائه أكثرَ من ذي قبل.

ما كانت هذه الرغبة لتتحقق لولا واقعةٌ أخرى ومفاجأةٌ جديدة. كان جورج والطبيب في طريقهما إلى غرفة البلياردو قبل نهاية البرنامج الطويل، عندما وجدا مجموعةً من شبان المقاعد الخلفية واقفين على مدخل الغرفة، وسُمِع صراخٌ بذيء مرتفع في الداخل. أخذ صوتٌ وحيد في الارتفاع، وللأسف لم يكن من الصعب التعرُّف على صاحبه؛ كان صوتَ شخص مقهورٍ يُنفس عن نفسه بالتُّرهات المتذمرة. أخذ صراخ السيد جنجل الاستبدادي الحاد يخمُد شيئًا فشيئًا. توقَّف الصراخ في نهاية المطاف، وأفسح الرجال الواقفون في المدخل الطريقَ للسيد سكارث، الذي أسرع لإخراج الشاب الأشعث من المكان، بصرامةٍ مثيرة للإعجاب معهودة بين رجال الشرطة.

تأبط دولار ذراعَ مريضه السابق بخفة، في أثناء متابعتهما للمشهد بأناةٍ من مكانهما، وقال: «هل يحدُث هذا كثيرًا يا جورج؟»

أجاب جورج: «يؤسفني القول إنه يحدُث في معظم الليالي.»

قال: «وهل يفعل سكارث دومًا ما يحلو له بالصبي ... بعد ذلك؟»

أعلن الشاب، دون أن يفهم مغزَى قول الطبيب: «دومًا؛ إنه من ذلك النوع الذي يتصرف كما يحلو له مع معظم الناس. ليتك رأيته في الحفلة الموسيقية الأخيرة عندما تصرَّف أولئك الحمقى الذين كانوا جالسين خلفنا بطريقةٍ أسوأ من الليلة! لم يكن دوره قد حان بعدُ، لكنه خرج إلى المسرح، وألزمهم الصمتَ في غضون لحظة، وأثار ضحكنا جميعًا في اللحظة التالية! نفس الشيء كان يحدُث في المدرسة؛ لذا كان الجميع يخشون موستن سكارث، الصبية والرجال على حدٍّ سواء؛ ولا يزال جاك لافريك يهابه، رغم أنه بلغ سنَّ الرشد ولديه الكثير من المال في حوزته، كما شهدت بنفسك الآن توًّا.»

سأل دولار: «ومع ذلك يسمح بتكرار الأمر؟»

أجاب جورج: «من الصعب للغاية أن يحول دون تكراره. إن كأسًا من الخمر لتكادُ تكفي ليفقد رُشده، كما قلت لك، كما أنه لا يسَعه مرافقته طوال الوقت في مكانٍ كهذا. لكنَّ بعضًا من أصدقاء جاك القدامى لقَّنوه درسًا قاسيًا. أتعلم ماذا فعلوا؟ سلبوا منه رابطةَ عنقِه القديمة الخاصة بمدرسة إيتون، وكانوا مصيبين في ذلك!»

سأل الطبيب: «ألم يحدُث أيٌّ من هذا كلِّه العامَ الماضي؟»

أجاب: «هذا ما تقوله لوسي. لم أكن موجودًا هنا. السيدة لافريك كانت موجودة، بالمناسبة؛ وربما كان من الممكن أن تُحدِث فارقًا. لكنَّ ترْكَ حريةِ التصرُّف له بلا رقيب أدَّى إلى فساده. سكارث هو الشخص الوحيد القادر على كبْح جِماحه، إلا ... إلا إذا قرَّرت أن تضمَّه إلى جناحك أيها الطبيب! لقد ... لقد أنقذتَ حالاتٍ أكثرَ صعوبةً من هذه، كما تعلم!»

جلسا في الاستراحة بضع دقائق. لم يكن يوجد أحدٌ بالقرب منهما؛ علا وجهَ الشاب البِشرُ والسرور وتألَّقت عيناه. تأبَّط دولار ذراعَه مرة أخرى، وسارا معًا صوب المصعد.

قال دولار: «في كل الأحوال لا بد أن أتعرفَ على صديقك سكارث. هل تعرف رقم غرفته؟»

كان إيدنبورو يعرف رقم الغرفة — كان رقمها ١٤١ — لكنه بدا متشككًا في إمكانية استقبال الرجل طبيبًا آخرَ بعد الفاجعة التي كانت ستقع في الغرفة المجاورة.

اقترح إيدنبورو على الطبيب باحترام في المصعد: «أليس من الأفضل أن أقدِّمك إليه في الصباح؟ أنا — أنا أكره تَكرار الكلام، لكن أريد أن يستلطف أحدكما الآخر، وقد سمعت سكارث يقول إنه قد ضاق ذرعًا بالأطباء!»

ابتسم دولار.

قال: «لا عجب في ذلك.»

عقَّب إيدنبورو قائلًا: «ومع ذلك لم يكن موستن سكارث هو من فضح الطبيب ألت.»

سأل دولار: «حقًّا؟»

هزَّ إيدنبورو رأسَه علامةَ الإيجاب فيما كانا يغادران المصعد معًا. تابع: «أجل أيها الطبيب. من فضحه هو الصيدلاني الذي يعمل هنا، واسمه شِكل؛ لولاه لقضى جاك لافريك نَحْبه؛ ولولاه أيضًا ما عِلم أحدٌ بنجاته من الموت بأعجوبة. لقد اكتشف الخطأ ثم بدأ في نشر الشائعات.»

قال الطبيب وهو يومئ برأسه: «أعرف.»

استرسل إيدنبورو: «لكنه كان خطأً فادحًا! استُخدِمَت وحدةُ الديسجرام بدلًا من المليجرام حسبما سمعت. وهذه كمية مفرطة من الإستركنين في القرص الواحد.»

قال جون دولار بهدوء: «أنت على حق. الوصفة الطبية قابعة في جيبي.»

قال إيدنبورو: «أهي معك، أيها الطبيب؟»

أجاب دولار: «لا تغضب مني يا صديقي العزيز! أخبرتك أنني سمعت روايةً عن الحادثة كلِّها. كانت رواية ألت. إنه أحدُ أصدقائي القدامى، لكنك ما كنتَ لتتفوَّه بكلمة بشأنه لو أخبرتك بذلك في البداية، كما أنني ما زلت لا أريد أن يشيع أمر صداقتنا.»

قال إيدنبورو: «يمكنك أن تثق بي، أيها الطبيب، خاصةً بعد كلِّ ما أسديته إليَّ.»

قال الطبيب: «حسنًا، لقد أحسن إليَّ ألت ذاتَ مرة. وأريد أن أفعل شيئًا من أجله، هذا كلُّ ما في الأمر.»

كانت لا تزال براجِمه تؤلمه من تأثير قبضة الشاب، فيما كانا يطرُقان برفقٍ بابَ الغرفة رقم ١٤٤ على الفور.

٢

فُتح الباب بضع بوصات بواسطة موستن سكارث. كان لا يزال مرتديًا ملابسَ الحفل، لكن وجهه كان أشد قتامة من آخرِ مرة رآه فيها طبيب الجريمة.

سأل بحدَّة، ليس بطريقة السيد جِنجل، وإنما بالطريقة المتوقَّعة من معظم الناس في هذا الموقف: «هلَّا أخبرتني بمن تكون وماذا تريد؟»

أجاب الطبيب: «اسمي دولار، وأنا طبيب.»

كان تعريف الطبيب دولار بنفسه موجزًا ومباشرًا، وكان تأثيره متوقعًا، ولكن خفَّفته طريقةُ الطبيب المتَّسمة بالثقة.

قال سكارث: «أشكرك شكرًا جزيلًا. ولكني اكتفيتُ من الأطباء.»

وكان الباب يُغلق عندما نطق دولار المتطفِّل بكلمةٍ حالت دون ذلك.

قال: «بالضبط!»

عبْر الفرجةِ الصغيرة التي أظهرت عينيه فحسب، قطَّب سكارث حاجبيه. كانت نبرة المتطفِّل هي ما أوقف يدَه في الهواء ومنعها من غلق الباب.

سأل برباطة جأش أكبر: «ماذا تقصد؟»

ردَّ دولار ردًّا مخالفًا لطبيعته: «أقصد أنني أريد رؤيتك بشأن الطبيب الآخر، هذا الرجل الألماني.» لكن العبارة التي قيلت بطريقةٍ مدروسة جعلت سكارث يسمح له بالدخول.

قال سكارث بنبرةٍ خافتة فيما يوصد الباب خلفهما بهدوء: «حسنًا، لا ترفع صوتك. أظن أنني رأيتك بالأسفل خارج الحانة. لذا أريد أن أوضح لكَ أنني جعلت الشابَّ الواعد يخلُد للنوم توًّا، على الجانب الآخر من هذا الباب القابل للطي.»

وجد دولار نفسه يتساءل عن الغرفة الأخرى، وهل هي جيدة مثل غرفة سكارث، التي كانت أكثرَ اتساعًا وأفخمَ أثاثًا من غرفته. لكنه جلس إلى الطاولة البيضاوية، تحت الثريا، ودخل في صلب الموضوع مباشرةً.

استهل كلامه، قائلًا: «بخصوص الوصفة الطبية»، وأخرجها من جيبه فورًا.

سأل الآخر، بنبرةٍ فضولية، فيما كان يجلس إلى المائدة هو الآخر: «حسنًا، ماذا عنها؟»

قال: «تجمعني بالطبيب ألت صداقةٌ قديمة جدًّا يا سيد سكارث.»

تغيَّر وجهُ موستن سكارث تغيرًا طفيفًا لكن عفويًّا يليق بالحال والمقام. ولانت عيناه المتجهِّمتان بشفقة واضحة؛ لكنها زادت من جدِّية ملامحه.

تابع دولار: «إنه ليس صديقي فحسب، وإنما أمهرُ وأفضل الأطباء الذين أعرفهم. وكلامي في حقه ليس نابعًا من شعوري بالوفاء له فحسب؛ إذ كان طبيبي الخاص قبل أن يكون صديقي. لقد أنقذ، يا سيد سكارث، ما هو أكثرُ من حياتي، في وقتٍ حارت فيه عقولُ كل الأطباء في شارع هارلي في حالتي. تخلَّى جميع البارونات عني؛ لكن المصادفة أو القدَر من أتى بي إلى هنا، وأجرى هذا الطبيب الصغير المغمور تلك المعجزة، حين تهرَّب الجميع من أدائها، وصنَع مني رجلًا جديدًا على مسئوليته الخاصة. ودِدتُ أن يأتيَ إلى لندن ويجنيَ ثروة طائلة؛ لكن عمله كان هنا، ولم يشأ أن يتركه؛ وهنا وجدته في محنة. أتستغرب من رغبتي في التدخل والدفاع عنه يا سيد سكارث؟»

ردَّ موستن سكارث بودٍّ بالغ يتناسب مع ظروف القضية المطروحة: «على العكس، أدرك بالضبط الشعورَ الذي لا بد وأنه يخالجك، وأنا سعيد للغاية أنك أفرغتَ لي مكنون صدرك. لكني لم أتسبب في هذه المحنة، أيها الطبيب دولار، وإن كنتُ بطبيعة الحال أشعر بالسوء بشأنِ ما حدث. لكن لولا شِكل، لربما كنت أُوَدِّع تابوتًا إلى إنجلترا في هذه اللحظة! فهو من اكتشف الخطأ الطبي، وأثار الكثير من اللغط منذ ذلك الوقت.»

سأل دولار بهدوء: «هل أنت متأكد من أن ما حدَث كان خطأ طبيًّا؟»

هتف الآخر بدهشةٍ عارمة: «وماذا يكون غير ذلك؟ وحتى شِكل لم يُلمِح في كلامه على الإطلاق إلى أن الطبيب ألت كان يحاول ارتكابَ جريمة قتل!»

ردَّ دولار بنبرةٍ حادة ذات مغزًى: «حتى شِكل؟ أتلمِّح إلى أن ثمة عداوةً بينه وبين الطبيب ألت؟»

أجاب: «لم أكن ألمِّح إلى ذلك، بالتأكيد.» كان سكارث لا يزال مذهولًا. وأردف: «لا. لم يخطر هذا ببالي ولو للحظة.»

قال دولار: «لكن هذا مكان صغير، وأنتَ تدرك طبيعةَ الأماكن الصغيرة. أمن المحتمل أن يشيع أحدٌ شيئًا كهذا حول شخصٍ آخرَ إلا إذا كانت هناك كراهية بينهما؟»

لم يستطِع سكارث أن يردَّ. فما قاله بشأن الأماكن الصغيرة كان صحيحًا، وبدا تبريرًا منطقيًّا. أثار هذا الاقتراحُ اهتمامه حقًّا. استشعر تلميحًا في كلام طبيب الجريمة أثارَ فضوله، وجعله راغبًا في معرفة المزيد. فاقترب رأس أحدهما من الآخر عبْر طرَف الطاولة والتقت أعينهما في تفحُّص متبادل.

قال دولار: «أيمكنني أن أأتمنك، يا سيد سكارث، على الفكرة التي تدور في رأسي؟»

أجاب: «هذا أمرٌ متروك لك وحدَك أيها الطبيب دولار.»

قال: «لن أخبر أحدًا آخرَ بها — ولا حتى الطبيب ألت — إلى أن أتيقن منها.»

ردَّ سكارث: «يمكنك أن تأتمنني عليها أيها الطبيب. ليست لديَّ أدنى فكرة عما ستقوله، لكن سأبقي حديثنا سرًّا.»

قال دولار: «إذن سأأتمنك إلى حدٍّ مناقضة ما قلتُه للتو. أنا متأكد — وهذا بيني وبينك — أن الوصفة الطبية التي بحوزتي الآن نسخةٌ مزورة بإتقان!»

مدَّ سكارث يدَه ليأخذ الوصفة من الطبيب. لو كان التصريح أكثرَ عفوية لربما أثار دهشته أكثرَ مما فعل؛ ومع ذلك بدت على وجهه أمارات عدم التصديق بوضوح وعاين الطبيب بفتور.

سأل السيد سكارث: «ما هو الدافع وراء تزويرها، أيها الطبيب دولار؟»

أجاب الطبيب: «لن أدعيَ معرفة الجواب. أنا أذكر الحقائق فحسب — في سرية تامة. أنت الآن تنظر إلى عملية تزوير سافرة.»

رفع سكارث رأسه ورمقه بعينين متألقتين. وقال: «لقد رأيته بأمِّ عيني، وهو يكتبها يا طبيبي العزيز!»

سأل دولار: «هل أنت متأكد مما تقوله؟»

قال السيد سكارث: «بالطبع، أيها الطبيب! هذا الصبي، جاك لافريك، صعبُ المراس؛ ودون طبيب يقذف الرعب في قلبه من حين لآخر، ما كنت لأستطيع التعامل معه. لقد يئست عائلته من إصلاحه، لكن هذا شأنٌ آخر. ما كنت أود قوله فقط هو أنني أخذته إلى الطبيب ألت بنفسي، وهذه هي الوصفة الطبية التي رفض الصيدلي تركيبها. ربما يُكِنُّ

شِكل الكراهيةَ للطبيب ألت، كما ألمحتَ، لكنه إن كان مزورًا، فلا يسعني القول إلا أن المظاهر لا تدُل على ذلك.»

قال طبيب الجريمة: «الدليل الوحيد الذي أعتمد عليه هو هذه الوصفة القابعة في يدك.»

قال السيد سكارث: «لكنها مكتوبة على ورق الطبيب ألت.»

ردَّ الطبيب: «بوسع أي شخص الوصولُ إلى أوراقه.»

سأل السيد سكارث: «ولكن ألم تُلمِّح إلى وجود عداوة بين ألت وشِكل؟»

قال الطبيب بابتسامة، تبدَّدت من شفتيه، وهو يُخرج عدسةً مكبِّرة: «هذه ملاحظة أفضلُ من سابقتها يا سيد سكارث، ملاحظة أفضل كثيرًا. اسمح لي بإشعال المصباح الكهربائي القائم، وأسدِ إليَّ خدمة بفحص خط اليد بهذه العدسة؛ هي ليست قوية جدًّا، لكنها أفضلُ ما أمكنني العثور عليه في متجر التصوير الفوتوغرافي.»

قال سكارث بعد معاينة دقيقة: «إنها بالتأكيد ليست قوية بما يكفي، كي تكشف عن أي شيء مريب، لشخص غير خبير مثلي.»

قال الطبيب: «والآن انظر إلى هذه.»

أخرج وصفةً طبيةً أخرى من الجيب نفسِه. للوهلة الأولى بدت الوصفتان متطابقتين.

سأل سكارث، بمسحة سخرية خفيفة تسلَّلت إلى نبرته لأول مرة: «أهذه مزورة هي الأخرى؟»

أجاب الطبيب: «لا. إنها الوصفة الطبية الصحيحة، أعاد ألت كتابتها بناءً على طلبي، بنفس الكيفية التي هو متيقن من أنه كتبها بها في الأصل.»

قال سكارث: «فهمت الآن. هناك صفران زائدان مختلطان بالطلاسم الأخرى.»

قال الطبيب بجِدية: «شكَّل هذان الصفران الفارقَ بين الحياة والموت. لكنهما ليسا بأي حال من الأحوال الاختلافَ الوحيد هنا.»

قال سكارث: «يجب أن أقرَّ بأنني لا أرى اختلافًا آخر.» ورفع ناظريه، فيما أطرق دولار بعينيه من تحت حاجبيه الداكنين العريضين.

أجاب دولار: «الاختلاف الآخر، يا سيد سكارث، هو أن من خَطَّ الوصفة الطبية التي فيها مادة الإستركنين بوحدة الديسجرام القاتلة رسمَها بطريقة معكوسة، أجرى فيها القلم من اليمين إلى اليسار، بدلًا من كتابتها بالطريقة المعتادة.»

انتهت حملقة سكارث بابتسامة.

وقال: «هلَّا تشرح لي ذلك كلَّه مرة أخرى، أيها الطبيب دولار؟»

أجاب الطبيب: «سأشرح لك الأمر. كُتبت الوصفة الأصلية بالطريقة المعتادة — أي إن القلم كان يجري فيها بانسيابية وبلا تردُّد. لكن النسخ المزوَّرة لا تُكتب بالطريقة الاعتيادية، فضلًا عن أن القلم لا يجري فيها بانسيابية؛ بل تُكتب أفضل النسخ المزورة بطريقةٍ معكوسة أو بالأحرى، مقلوبة. جرِّب أن تنسخ كتابةً مكتوبة بخط اليد كما هي، وستجد إرادتك تتسلل عفويًّا وتفسد محاولتك؛ ثم جرِّب أن ترسمها بالمقلوب وفي الاتجاه الخطأ، كأنك ترسم كلامًا لا تفهمه، عندئذٍ لن تتحكم فيك طريقتك في رسم الحروف، لأنك لا تُشَكِّل حروفًا على الإطلاق. كلُّ ما تفعله هو أنك تنقل رسمًا من النسخة التي أمامك يا سيد سكارث.»

هتف السيد سكارث، مع ضحكة أخرى: «تعني بهذا أنني أستمد معلوماتٍ قيمةً من خبير خطوط.»

ردَّ دولار، بقليل من الفتور: «لا يوجد خبراء في هذا المجال. المسألة كلها قائمة على الملاحظة المجردة، وهي متاحة لكلِّ من له عينان يبصر بهما. لكن يتصادف أن هذه حيلة استخدمها مزور قديم؛ جرِّب هذه الطريقة بنفسك، كما فعلتُ أنا، وستندهش عندما ترى الاختلاف الكبير الذي تُحدثه.»

قال سكارث: «لا بد أن أفعل. لكن لا يمكنني أن أتصوَّر كيف لاحظتَ حدوث تلاعب في هذه الحالة.»

ردَّ دولار: «أحقًّا لا يمكنك ذلك؟ انظر إلى مقدمة الوصفة، «السيد لافريك»، وخاتمتها، «الطبيب ألت». يتوقَّع المرء أن يرى كلمة «السيد» مكتوبة بحبر ثقيل، أليس كذلك؟ وكذا كلمة «لافريك»، حسبما أظن، ثم يقِلُّ الحبر شيئًا فشيئًا حتى يمُلأ القلم بالحبر مرة أخرى. في الوصفة الصحيحة، المكتوبة بناءً على طلبي اليوم، ستجد الحال كذلك. في النسخة المزورة، كان الحال هو العكس بالضبط؛ فحرف «التاء» في كلمة «ألت» مكتوبٌ بحبر ثقيل، ثم تجد الحبر يقل شيئًا فشيئًا، حتى يُعاد ملؤه مرة أخرى في منتصف كلمة «غداء سعيد» في السطر الذي يسبقها. فالمزوِّر، بالطبع، يغمس قلمه في الحبر أكثرَ ممن يجري قلمه بانسيابية.»

انحنى سكارث في صمتٍ على العدسة المكبِّرة وتغضَّن وجهه الداكن. وفجأة دفع بمقعده إلى الوراء.

هتف برقَّة: «هذا رائع! أرى الآن كلَّ ما قلتَه. ولقد صرت مقتنعًا برأيك تمامًا، أيها الطبيب دولار. أود أن تسمح لي بإقناع ضيوف الفندق.»

قال دولار، وهو ينهض من مكانه: «ليس بعدُ، ولا حتى فيما يخص الحقائق الفعلية للمسألة. لا جدوى من أن نزيد الطِّينَ بَلَّةً، يا سيد سكارث، ولا من أن نأخذ حيلةً قذرة بجدية مفرطة. فلا يبدو أن هذا التزوير ارتُكب بغيةَ قتل الشاب لافريك.»

قال سكارث: «لم يخطر ببالي مطلقًا أنه كان بغيةَ ذلك!»

قال الطبيب: «أنت محقٌّ يا سيد سكارث. ففكرة مثل هذه لن تخطر ببالِ أحد. فمن المؤكد أن أي قاتل حاذق بما يكفي لتلفيق شيء كهذا أبرعُ من أن يضع صفرين إضافيين؛ كان سيكتفي بتغيير المليجرامات إلى سنتيجرامات، والمخاطرة باحتمال تعافي المريض. ما كان صيدلاني عاقل سيصرف الأقراص بوحدة الديسجرام. لكن محادثتنا بدأت الآن تحيد عن مناقشة الحقائق الفعلية للمسألة المطروحة، وقد وعدت الطبيبَ ألت بمقابلته في مناوبته الأخيرة. إذا أمكنني إخباره، بطريقة مبهمة، أنك على الأقل تظن أنه ربما كان ثمَّة خطأ ما، وأنه لم يرتكب الجُرم الذي نُسِب إليه، فسأذهب إلى حال سبيلي، وأنا أشعر ببعض الراحة بشأن تطفُّلي المستعصي على التعليل، والذي أؤكد لك أنني ما ارتكبته بنفس راضية.»

كان غريبًا التغيُّر الذي طرأ على شخصية سكارث في أثناء المقابلة التي صار هو نفسه متحمسًا الآن لإطالتها. خلع عن نفسه عباءةَ القائد المهيمن الذي كان قد روَّض الجمهورَ المشاغب فور ظهوره على خشبة المسرح؛ كما توقَّف منذ وقت طويل عن استخدام صوت السيد جِنجل الحاد. لكن كانت هناك إشارة أخرى واحدة فقط إلى تلك الشخصية الخالدة، في الصندوق المتداعي الذي أخرج منه حينئذٍ زجاجة ويسكي، كان قد خبأها جيدًا بعيدًا عن متناول لافريك. ولا يمكن أن يُنسَب ضَعف الإرادة إلى السيد سكارث الذي أقنع جون دولار بتوطيد تعارفهما بتجرُّع رشفة من الويسكي.

٣

وقعت الأحداثُ التالية في الساعات الأولى من الصباح في الأسبوع نفسه؛ استحوذت أكثرُ قضية معقَّدة قابلها طبيب الجريمة في حياته حتى اللحظة الراهنة على تفكيره. توخيًا للدقة، كانت هناك قضيتان، لكن إحداهما كانت وثيقة الصلة بالأخرى، بحيث كانت كلٌّ منهما تتطلب عقلًا راجحًا للنظر فيها على حدة، وإرادة قوية لعزل كل واحدة منهما في خلية عقلية منفردة تليق بها. ومع ذلك لم يكن الشاب لافريك أسهلَ القضيتين فحسب، وإنما أقربهما إلى قلب جون دولار، وأقلهما إثارة لأعصابه.

كانت قضية جاك في غاية السهولة. منذ عام كان الفتى في خيرِ حال، لا يتصرَّف بشقاوة إلا مع زلَّاجته، ولحسن حظه أفلت من طيشه ببضع غُرَز في أذنه لا أكثر. سمع دولار تفاصيلَ هذه الحادثة من الطبيب ألت، وتفاصيلَ كثيرة غيرها من مصادرَ أخرى عن حوادث جاك لافريك التالية. كانت القضية تليق بكرسي الاعتراف في عيادته في شارع ويلبك. كانت حياة جاك المهنية في جامعة أكسفورد قد انتهت نهايةً مشينة مباغتة. وخسِر رخصة قيادة المَركبات الآلية بسبب اعتياده القيادةَ الخطرة. وفي آخرِ مرة نجا بشِق الأنفس من أن يُزَج به في السِّجن بسبب حالته أثناء القيادة. ودفع أَمَّه إلى أن تقول دون انفعال: «أُفَضِّل أن أراه ميتًا على أن يواصل العيش بهذه الطريقة المريعة»؛ وكانت قد قالت هذا كتابةً؛ إذ عرض سكارث على الطبيب هذا الخطاب المُوجَّه إليه منها باعتباره «أملها الأخير والوحيد» في إنقاذ جاك؛ ومع ذلك عجز سكارث نفسه عن منْع ذلك الابن الساقط من «التهرُّب من واقعه بالعجرفة والخمر» في أغلب الليالي. وحتى في الليلة السابقة، تكرَّر الأمر، في الحفلة الموسيقية التنكرية، عشيةَ السباقات التي جرَت صباح هذا اليوم! من سيكون المسئول إن قتل نفسه في أثناء التزلج على الجليد في نهاية المطاف؟

تأثَّر دولار بشدة بملابسات هذه القضية وهو يقلِّبها في عقله؛ لكنها لم تكن هي القضيةَ التي أتت به من إنجلترا، ولا السبب الذي دفعه إلى الإقامة مدةً أطولَ من المدة التي كان قد تصوَّر أن يمضيَها عندما وصلته برقيةُ ألت. وفي الواقع، لم يذكر المسكين ألت في برقيته قضيةَ جاك لافريك على الإطلاق. ومع ذلك أدركا فيما بينهما أنهما، لو كانا قد تعاونا، لأمكنهما إحداثُ فارق كبير في حياة الشاب التعِس!

آلت القضية إلى دولار من جديد، دون أن يطلب أحدٌ مساعدته، بل لم يطلب أحدٌ مساعدة أيٍّ منهما!

ومع ذلك، بعدما قلَّب الطبيب كلَّ الاحتمالات في عقله، أو مع ألت، الذي لم يتَّفق كثيرًا معه في الرأي، توصَّل إلى أن قضية لافريك كانت الأقل خطورة في القضيتين؛ فحوَّل جون دولار اهتمامه إلى القضية الأخرى، وبدأ ينخرط فيها ويوليها كلَّ تركيزه، عندما انفتح باب غرفته بعنف دون استئذان، ونادى صوتٌ مضطرب اسمه.

واصل الصوت بهمس متسارع: «هذا أنا ... إيدنبورو. أريدك أن ترتديَ ملابسك وتأتي إلى المضمار الثلجي بأقصى سرعة ممكنة!»

سأل الطبيب، وهو يثِب من الفراش، فيما انهمك إيدنبورو في فتح ستائر الغرفة: «لماذا؟ ماذا حدث؟»

أجاب إيدنبورو: «لم يحدُث شيء بعدُ. آمُل ألا ...»

قاطعه الطبيب: «لكنَّ شيئًا ما حدث بالفعل! ما خطْب عينك؟»

ردَّ إيدنبورو: «سأخبرك وأنتَ ترتدي ملابسك، لكن حاوِل أن تُسرع قدْر الإمكان. أنسيتَ أن سباقات التزلج ستُجرى هذا الصباح؟ ستُعقد في الساعة الثامنة بدلًا من التاسعة، بسبب الشمس، والساعة الآن الثامنة إلا عشر دقائق. ألا يمكنك أن ترتديَ سروالًا قصيرًا وكنزةً صوفيةً فوقه؟ هذا ما فعلته ... ليتني جئت إليكَ أولًا. سيستدعون طبيبًا آخرَ إن لم نسرع بالذهاب إليهم!»

قال دولار بعد أن ارتدى جوْرَبه الطويل: «آمُل أن تحكيَ لي عما حدث لعينك.»

ردَّ إيدنبورو، وهو يمضي إلى المرآة: «عيني على ما يرام. لا، يا إلهي، إنها متورمة أكثرُ مما ظننت، كما أن رأسي يئز مثل مِرجَل. لم يخطر ببالي أن بوسع لافريك أن يوجِّه هذه اللكمات القوية ... ثملًا ... أو ... غير ثمل.»

هتف دولار فيما يرفع بصرَه عن رباط حذائه: «أتقصد ذلك المجنون؟ ألم يذهب إلى فراشه مبكرًا على غير عادته؟»

قال إيدنبورو بتجهُّم: «استيقظ مبكرًا، على أي حال؛ لكن سأحكي لك القصة كاملة، ونحن نصعد إلى المضمار الثلجي، لا أكترث كثيرًا لأن يسمع أحدٌ حديثي. فقد تبيَّن أنه شخص أرعنُ أكثر مما ظننا. لقد أمسكت به وهو يعبث بالزلاجات في الساعة الخامسة صباحًا!»

سأل دولار: «بأي زلاجات؟»

أجاب إيدنبورو: «بواحدة من الزلاجات التي يضعونها في المستودع، تحت نافذتنا مباشرة، في الجزء الخلفي من الفندق. كنت مستلقيًا في فراشي، عندما سمعت صوتًا. كان يشبه صوتَ بَرْدٍ، كأن شخصًا يحاول اقتحامَ مكانٍ ما. نهضت من الفراش، ونظرت من النافذة، وظننت أني رأيت ضوءًا. كانت لوسي تغطُّ في نوم عميق؛ ولم تستيقظ بعدُ بالمناسبة، ولا تعرف شيئًا عما حدث.»

قال الطبيب: «أنا جاهز. أكمِل كلامك عندما نخرج.»

كان صباحًا قاتمًا، بلا أي أثرٍ للشمس في الوادي، وبلا سطوع أو ظل ظليل فوق الغابة المتشابكة أو الصخور الناتئة. وفي مكانٍ ما خلف هذه القمم الوعرة لا بد أن الشمس قد أشرقت، لكن لم تحمل أيُّ واجهةٍ ثلجية أنباءَ ظهورها إلى وينترواله بعدُ، ولم يكن من الممكن تمييزُ القمم الشاحبة من السماء للتشابه بينهما، وإن كانت الأخيرة أقلَّ بياضًا منها نوعًا ما.

لم يمثِّل شارع القرية أيَّ صعوبة لإيدنبورو الذي كان يلبَس حذاءً يقي القدَم من البرد الشديد ولا للطبيب الذي كان يلبَس حذاءً رياضيًّا ذا مسامير؛ لكن كان هناك أناس آخرون في الشارع، وكانت الأصوات تنتقل في الطقس البارد على الثلوج الصامتة. لم تكن المسامير كافيةً للسير في الدرب المتجمِّد بين الحقول الثلجية القابعة فيما وراء القرية، وتعثَّر دولار المبتدئ الذي كان قد اعتمد على المسامير وانزلق على الثلج، فيما زادت خبرةُ إيدنبورو في التزلُّج من سرعته.

قال إيدنبورو: «لقد كان هو بلا شك — جرِّب السيرَ على شفرة الحذاء، أيها الطبيب، فهي أقلُّ زلاقة. كان الشابُّ الفظ يرتدي عباءته التنكُّرية كأنه لم يأوِ إلى فراشه على الإطلاق، فيما كنتُ أرتدي منامتي، والنُّعاس يداعب عيني. كنا سنبدو ثنائيين مضحكين، اعتمد على ذراعي أيها الطبيب.»

قال دولار: «أشكرك يا جورج.»

واصل إيدنبورو: «لكن مصباحه الكهربائي كان هو الضوءَ الوحيد الذي يخترق الظلام. لم يحاول إطفاءه. وهمس: «أنا أضبط زلاجتي فحسب. تعالَ وألقِ نظرة.» لم أفعل، ولا أعتقد أنها كانت زلاجته؛ ربما كانت زلاجة الكابتن سترونج، أخطرِ منافسٍ له على الإطلاق؛ ولكن، كما قلت لك، كنت قد مضيت من فوري لأتفقَّد ما يفعله، عندما ضربني ذلك الشاب المتوحش ضربةً مباشرةً في وجهي، بلا سابق إنذار. ترنَّحت وسقطت أرضًا كالثور، لكن أظن أن مؤخرةَ رأسي ارتطمت بشيءٍ ما. وعندما فتحت العين السليمة المتبقية وجدت أن النهار قد طلَع.»

سأل الطبيب: «هل احتجزك؟»

أجاب إيدنبورو: «لا؛ كان في عجلةٍ من أمره؛ لكنني ببساطة لم أستطِع التحرُّك حتى سمعت أصواتًا تقترب، عندئذٍ زحفت خلف كومة من مقاعد الحديقة وما شابه. تبيَّن أنه سترونج بصحبةِ شخصٍ آخر؛ وقد أخذا يسُبَّان ويلعنان عندما وجدا المكان كلَّه مفتوحًا! كدت أخبرهما بمكاني، وأقص عليهما ما رأيت، لكن عدلت عن ذلك وأردت أن أخبرك أولًا.»

قال دولار: «حسنًا فعلتَ يا جورج.»

قال جورج إيدنبورو ببساطة: «أدرك اهتمامك بهذا الشاب؛ كما أنني ظننت أنه لن يحل أحدٌ غيرك هذه القضية. لكنني أبقيت نفسي حبيسًا في ذلك المكان إلى أن أُخرجَت آخر زلاجة من المستودع، وكلُّ ما آمله ألا يكون الأوان قد فات!»

تنفَّس جورج الصُّعداء عندما كشف منعطفٌ في المنحدر اللامع عن قمة المضمار الثلجي، ومجموعة من الرجال في كنزات صوفية بارزة شخوصهم أمام أشجار التنُّوب التي تغطي قمَّة المنحدر. بدا أن مجموعة الرجال تقف ساكنة جدًّا. ورفع بعضهم مرافقَهم المغطاة بطبقةٍ مبطَّنة ليقوا أعينهم من أشعة الشمس. لكن لم يكن هناك ما يدل على انطلاق أي زلاجة، كما لم يصدر أيُّ صوت من الفجوة المخفية للمسار الثلجي. والآن بدأ رجلٌ تلو الآخر ينفصل عن المجموعة، ويقفز على المسار الثلجي الفرعي، المخصَّص للصعود فحسب.

لكن لم يرَ جون دولار ولا جورج إيدنبورو أيًّا من هذا. إذ كان قد ظهر فجأةً في طريقهما شخصٌ متجهِّم الوجه، تبيَّن أنه موستن سكارث، وراح يستدعيهما بإشاراتٍ بذراعيه وهو في غاية الاضطراب.

صرخ عبْر المنحدر الثلجي: «إنه جاك! لقد تعرَّض لاصطدامٍ عنيف — في جسده وزلاجته — بسبب خللٍ في أحد نِعال الزلاجة. أخشى أنه قد أُصيب بكسرٍ في ساقه.»

هتف دولار: «ساقه فقط!»، ولكن دون أي قدْر من الارتياح في صوته. جعلت نبرة صوته إيدنبورو الذي كان يسير خلفه يجفل، وجعلت سكارث، الذي كان يسير أمامهما، يستدير كي ينظر إليه. بدا وكأن طبيب الجريمة ارتأى أن في موت جاك لافريك خيرًا للجميع.

كان لافريك مستلقيًا على حمَّالة من معاطفَ ثقيلة، تجمهر حشدٌ من الرجال حولها، ثم تفرَّقوا من تلقاء أنفسهم قبل وصول أول طبيب إلى موقع الحادثة. لم يكن لافريك فاقدًا الوعي، ولم تصدر عنه آهة أو أنين؛ لكن انكشفت شفتاه الشاحبتان عن أسنانه المطبقة، وبدت ساقه اليسرى في وضعيةٍ غريبة، كأنها لا تنتمي إلى جسده، مثلها في ذلك مثل السروال القصير والجورب اللذين كانا يغلِّفانها.

قال الفتى بصعوبة شديدة، فيما انحنى الطبيب دولار على الثلج: «أخشى أن ساقي تحطَّمت أيها الطبيب. تؤلمني؟ قليلًا، لكن يمكنني تحمُّل الألم.»

كانت الشجاعة هي السِّمة الوحيدة التي لم يفقدها الفتى أثناء العام الماضي؛ إذ كان قد أظهر شجاعة لا يمكن أن يدانيَه فيها أحد في أثناء المسيرة البطيئة والمؤلمة تجاه القرية، وهو مستلقٍ على زلاجة جماعية، يحملها أربعة رجال يسيرون بتعثُّر وسط الجليد؛ وأخذ الجميع يتهامسون تعجبًا من جلَده. فعل الجميع ذلك، باستثناء طبيب الجريمة، الذي

قاد الموكبَ الصغير بوجهٍ يتماشى مع نبرة صوته القاسية التي جعلت إيدنبورو يجفُل ودفعت سكارث إلى النظر خلفه.

نسي الطبيب دولار قضيةَ الليلة المعقَّدة، وهذه القضية الملحَّة، فيما تذكَّر قضيته الشخصية التي كانت قد مضت عليها أعوام كثيرة. وجد نفسه يعود إلى وينترواله الماضية، في عالَم يختلف عن هذا العالم. لم تكن وينترواله الماضية أرضًا تنمو فيها أشجار عيد الميلاد المنبثقة من الجبال المطِلة على الأرض الثلجية؛ وذاب الثلج أمام عين خياله؛ وكان الطبيب متواريًا في الظلال في شارعٍ تتراصُّ فيه منازل لُعبة أسلمت مادتها الصمغية لشمس فصل الخريف، بين منحدرات خضراء تتخلَّلها أشجار صَنوبر داكنة، تحت سماء شديدة الزُّرقة. وكان مستسلمًا لليأس؛ لم يكن بمقدور أيٍّ من القاطنين في شارع هارلي جميعهم أن يفعل شيئًا من أجله ولو كان بمقدورهم ما كانوا سيفعلون. آنذاك ... آنذاك ... دفعه ألمٌ أو وجعٌ منسيٌّ إلى الذهاب إلى رجلٍ مغمور، رجل عظيم، في نفس ذلك المنعطف ناحية اليسار، في منزلٍ خشبي صغير، قابع في بقعة منزوية خلف المتاجر.

تذكَّر كلَّ المعالم البارزة بدقة شديدة؛ درابزين المنحدر، وشُرفة الكوخ الصغيرة، والدَّرَج غير المغطَّى، والسلَّم الذي يفصله بين الموت والحياة، وغرفة العمليات الخالية من أي زخرف بأدواتها الموضوعة في مكانٍ بارز واضحة للعيان! والآن في نهاية المطاف كان هناك، في قضيةٍ أخرى تشبه قضيته؛ القضية الثانوية التي تحرَّق شوقًا لإحضارها إلى هناك، وها هو ذا الطبيب ألت يقف لاستقبالهما بمعطفه الأبيض، وبنفس الملامح البسيطة مثلما كان في السابق!

ربما كان الرجال سيأخذونه إلى الفندق، حيث لا بد وأن سكارث ألحَّ في ذلك بشدة؛ لكن الفتى رفض أن ينقله الرجالُ يارِدةً واحدة أخرى؛ مع أنه كان فيما عدا ذلك مثالًا في الشجاعة حتى النهاية.

هتف بوهن: «كلوروفورم؟ ألا يمكن إعادةُ تثبيت ساقي اللعينة من دون كلوروفورم؟ لن تبتروها، أليس كذلك؟ يمكنني تحمُّل أي شيء إلا ذلك.»

انسحب الطبيبان من أجل المزيد من النظر في مسألةٍ يتعارض رأيهما فيها.

قال دولار بنبرةٍ تشجيعية حارة: «إنها فرصة حياتنا، وفرصته الوحيدة. ليست عملية خطيرة، وسأتحمَّل المسئولية وحدي.»

قال الطبيب الآخر بنبرة معترضة: «لكني لست متأكدًا من صحةِ ما توصلتَ إليه. فلم يُصَب الفتى بارتجاج في المخ، العام الماضي. لم تتأذَّ سوى أذنه فحسب.»

ردَّ الطبيب دولار: «لا يزال هناك ورمٌ خلفها. ويعود تاريخ كل شيء إلى تلك الحادثة؛ هناك ضغط، في مكانٍ ما، جعل منه رجلًا آخر. حالته أبسطُ بكثير من حالتي، وقد نجحتَ في أن تشفيني. لو رأيت كيف تحدَّثت أمُّه عنه، يا ألت، لما ترددتَ على الإطلاق في إجراء العملية!»

قال الطبيب ألت: «من الأفضل أن نحصُل على موافقتها.»

ردَّ الطبيب دولار: «لا، لا حاجة لموافقةِ أي أحد؛ حتى الفتى نفسه لا داعيَ لإخباره مطلقًا. هناك عروس شابة ستتولى رعايته كالملاك الحارس، وستلتزم الصمتَ إلى يوم الدينونة. يمكن أن تؤتمن هي وزوجها على هذا السر، لكن لا أحدَ سواهما!»

وعندما استفاق جاك لافريك من الكلوروفورم، ليتحسَّس الوخز البارد، تحت الكومةِ المكوَّنة من أغطيةِ الفراش التي آوت بين طياتها ساقَه المكسورة، كان الألم أقلَّ صعوبةً مما توقَّعه. لكنه كان ألمًا عميقًا فاترًا في رأسه، دفعه إلى الشكوى لأول مرة، لأنه شيء لم يتوقَّع حدوثه.

سأل وهو يتحسَّس العمامة المستقرة على الوسادة: «ما السبب في لفِّ رأسي كلِّه بالشاش؟»

أجابت لوسي إيدنبورو بجدية: «ألم تعلم أنك أُصِبتَ بكسر في رأسك أيضًا؟ أظن أن ساقك كانت تؤلمك بشدة أكبرَ فلم تلحظ إصابة رأسك!»

٤

بعد مرور عشرة أيام، زار موستن سكارث عيادةَ الطبيب ألت، واستأذن في الدخول على جاك. كان قد تصرَّف برقيٍّ بالغ في المسألة بكل تفاصيلها؛ ولو كان شخصٌ غيره في مكانه لأحدثَ ضجةً كبيرة. لكن كان معلومًا أن إصاباتِ جاك لم تكن محصورةً في ساقه المكسورة، وكان مجرَّد موضع الضرر الإضافي كافيًا لرجلٍ عقلاني ليفهم خطورةَ الموقف. والقوي بحقٍّ لا يحب استعراضَ قوَّته. لم يتقبَّل سكارث الموقفَ فحسب، بل أخذ على عاتقه مسئوليةَ التواصل مع أم لافريك لضمانِ بقائها في النصف الآخر من أوروبا طوال الفترة الحرجة. وكان قد اشترط فقط أن يكون أوَّل من يرى المريضَ المتماثل للشفاء، وتقبَّل الأمرَ بنفسٍ راضية كعادته عندما رفض الطبيب دولار طلبه مجددًا.

قال دولار: «ليس هذا خطأنا هذه المرة يا سيد سكارث. يجب أن تلوم النساءَ اللائي يحظين بامتيازِ أن يغيِّرن آراءهن كما يحلو لهن. لقد وصلت أمُّ السيد لافريك بلا سابق

إنذار. وهي الآن مع ابنها، وسيسرُّك كثيرًا أن تعلم أنها ترى أنه قد تغيَّر تمامًا أو بالأحرى عاد إلى طبيعته السابقة قبل زيارته لوينترواله في العام الماضي. دعني أقول لك إن هذا تقريبًا هو انطباع المريض عن نفسه.»

هتف سكارث الذي بدا في هذه اللحظةِ مذهولًا نوعًا ما: «أنا سعيد! بل إنني في غاية السعادة؛ تغمرُني فرحةٌ عارمة! لا أبالي الآن إن رأيتُ جاك أم لا. هل تمانع في أن تعطيَه هذه المجلات والأوراق، مع خالص حبي؟ أشكر الرب أن التبعةَ الملقاة على كاهلي قد أُزيلت.»

ردَّ طبيب الجريمة: «وأنا أيضًا. سأعود إلى عملي في لندن، وضميري بحالةٍ أفضلَ مما كان عندما غادرتها، كما أشعر بالإنجاز وأنني أصلحتُ ما كان بحاجة إلى الإصلاح.»

ابتسم دولار لسكارث، عبْر الطاولة المتواضعة القابلة للطي، التي قبعَت فوقها الأعمالُ الأدبية المُهداة والمغلَّفة بأوراق تغليف زاهية باللونين الأصفر والأخضر؛ نظر سكارث إليه بلا ذرةِ استياء، بل التمعت عيناه الداكنتان ردًّا عليه.

قال السيد سكارث: «ألت يشعر بالنشوة ... استعاد سمعتَه الحسنة ... استعاد جاك شخصيته ... وكأنه وُلِد من جديد ... نُسي أمر المزوِّر ... ألا يزال يباشر تزويره؟»

نطق السيد سكارث هذه الكلمات محاكيًا أسلوبَ السيد جِنجل بطريقةٍ ممتازة؛ كان، في الحقيقة، تقليدًا ساخرًا عفويًّا قاسيًا لأدائه التمثيلي ليلةَ وصول دولار إلى وينترواله. لكن استمتع ذلك الناقد، الذي تتآلف روحه معه، بهذه النبرة التهكمية الأخرى، التي لم يسَعه إلا أن يأخذها على محملٍ شخصي.

قال دولار: «لم أنسَ أحدًا يا سيد سكارث.»

سأل سكارث: «إذن هل اكتشفت هوية المزوِّر؟»

أجاب دولار: «كنت أعرفها طوال الوقت.»

سأل سكارث: «هل واجهته بجرمه؟»

أجاب دولار: «منذ أيام!»

بدا سكارث مصدومًا. سأل: «وماذا حدث له، أيها الطبيب؟»

أجاب الطبيب: «لا أعلم.» وهزَّ كتفيه بطريقته الفريدة. وأردف: «فالأمر لا يدخل في دائرة اختصاصي؛ وإن جاز القول، فقد باشرتُ كلَّ عمل التحري، الذي أكرهه.»

هتف: «أتذكَّر ذلك. لن أنسى الطريقة التي عاينتَ بها الوصفةَ الطبية، كأنك كنت تشاهد المزوِّر وهو ينفِّذ جريمته! لستَ خبيرًا، أيها المتواضع، كفاك تظاهرًا!»

ضحك دولار مرةً أخرى من الطريقة التي هزَّ بها السيد جِنجل رأسه، على الرغم من النبرة اللاذعة الطفيفة التي لاحت في كلامه كما في السابق.

أجاب دولار: «كان ذلك أسهلَ جزء في القضية، وإن كنت تجعلني أشعر بالإحراج وأنا أقول هذا. كان الجزء الصعب هو ذلك الذي يسميه النقاد الروائيون بـ «الدافع».»

قال سكارث: «لكنك وجدت الدافعَ في كراهية شِكل للطبيب ألت.»

ردَّ دولار: «لم يكن قويًّا بما يكفي ليرضيني.»

سأل سكارث: «إذن ماذا كان الدافع، أيها الطبيب؟»

قال دولار: «قتْل الشاب لافريك.»

هتف سكارث: «هذا هراء!»

أجاب دولار: «ليته كان ذلك يا سيد سكارث.»

سأل سكارث: «لكن من في وينترواله الذي يريد تنفيذَ هذه المكيدة؟»

أجاب دولار: «حسبما أفهم، كان يوجد أكثرُ من ألفي زائر في عيد الميلاد.»

لكنها لم تكن إجابةً كافية لموستن سكارث. فقد بدت على وجهه أماراتُ عدم التصديق بشكلٍ فظ، فضلًا عن شعوره بالصدمة، والغضب أكثر مما كان يبدو عليه. لكن الفكرة بأكملها كانت تُلقي بظلِّها على رعايته للشاب التعِس. وهذا ما أفصح عنه بكلمات، كانت تشبه أسلوبَ السيد جِنجل، في إيجازها وحِدَّتها واقتضابها.

هتف سكارث: «حدِّثني عن «الدافع»! ... أشكرك، أيها الطبيب، على التعرض لهذا الأمر، لكن سيزيد شعوري بالامتنان إن أشرتَ إلى الدافع في فرضيتك. ويا لها من طريقةٍ لقتل إنسان! يا لها من طريقة خطيرة ملتوية!»

علَّق الطبيب: «كانت عملية تزوير متقنة حتى إنَّ ألت نفسَه وجد صعوبةً في تصديق أن الوصفة الطبية مزورة.»

همس سكارث فجأة، فيما انحنى للأمام وتألَّقت عيناه: «أهو الرجل الذي حددتَ هويته؟»

ابتسم طبيب الجريمة بشكلٍ غامض. وقال: «ربما يكون من حسن حظِّه، يا سكارث، أنه على الأقل لم يكن من الممكن أن تكون له أيُّ صلة بالمحاولة الثانية لقتل مريضه.»

سأل سكارث: «عن أيِّ محاولةٍ ثانية تتحدَّث؟»

أجاب: «اليد التي زوَّرت الوصفةَ الطبية يا سكارث، بنيَّةِ تسميم الشاب لافريك، هي نفس اليد التي عبثت بالزلاجة على أملِ كسر عنقه.»

هتف موستن سكارث، وهو يهزُّ رأسه بألم: «ما تقوله أيها الطبيب العزيز هو جنون محض!»

ردَّ دولار بجدية: «ليتني يمكنني وصفُ المجرم بالجنون. لكنه ماهر بشدة؛ حتى إنه أجرى عملية البرد بطريقةٍ عبقرية — لو كان فاعلها لصًّا ما زاد عليه شيئًا — بينما يرتدي عباءةَ جاك لافريك التنكرية التي كان قد خلعها قبل ذلك بفترةٍ وجيزة!»

سأل: «كيف عِلمت أن جاك كان قد خلع عباءته؟ كيف عِلمت أن هذا العمل لم يكن من حيَل جاك التي كان ينفِّذها في أثناء سُكْره؟»

سأل الطبيب: «عن أي عمل تتحدَّث؟»

أجاب سكارث بنفادِ صبرٍ: «العمل الذي ذكرته؛ محاولة العبث المزعومة بزلاجته.»

قال دولار: «أوه! حسِبت أنك تقصد أمرًا آخرَ.» ثم توقَّف برهة. وأضاف: «ألا تشعر بأن الجو حارٌّ هنا، يا سكارث؟»

وافقه الزائر على ذلك، وكأنما كان دولار هو صاحب المنزل، ومنعه حُسن الأدب من أن يتبرع بهذه الملاحظة: «بلى! هذه السخونة بسبب الموقِد كما أن النافذة المغلقة زادت من حرارة الغرفة. أشكرك كثيرًا على هذه الملاحظة أيها الطبيب!»

ثم مسح بعنايةٍ وجهَه الحليق، ذا اللون الداكن، والملامح البارزة؛ كان وجهه من النوع الذي يحتاج إلى حلاقته أكثرَ من مرة يوميًّا، إلا أنه بدا لامعًا دائمًا بسبب شفرة الحلاقة؛ وقد لَّمعه من جديد بمنديل حريري يمكن أن ينفذ من سَمِّ الخياط من شدة نعومته ودقةِ سُمكه.

استطرد، متقبلًا على سبيل الجدل فكرةَ وجودِ مجرمٍ أثيم: «وماذا تفعل حيال ذلك ... الوحش؟»

أجاب دولار: «لا شيء يا سكارث.»

هتف سكارث: «لا شيء؟ ألن تفعل شيئًا على الإطلاق؟»

كان سكارث قد جَفَل، للمرة الأولى؛ لكنه جَفَل واقفًا على قدميه، وهو يتفوَّه بهذه الكلمات، كأنه يشعر باشمئزازٍ طاغٍ.

أجاب طبيب الجريمة الذي نهض واقفًا بدوره: «لن أفعل شيئًا ما دام خارج إنجلترا. ولكني أتساءل هل هو متعقِّل بما يكفي لأن يفعل ذلك؟»

التقت أعينهما دون أن تطرِف، وتفحَّص أحدهما الآخرَ طويلًا.

قال سكارث بتأنٍّ: «ما أتساءل عنه هو أكان هذا الوحش موجودًا في الواقعِ أم في خيالك، أيها الطبيب دولار؟»

أعلن الطبيب: «أوه! إنه موجود بالتأكيد. لكنني أستخدم قرينةَ الشك وأفترض أنه مجنون، على الرغم من طريقته ودافعه.»

سأل سكارث ساخرًا: «هل أخبرك بدافعه؟»

أجاب دولار: «لا؛ لكنَّ جاك أخبرني. يبدو أنه كان واقعًا تحت سيطرة ذلك الرجل — تحت تأثيره — لدرجةٍ غيرِ عادية. لقد بلغ به الأمر أنه ترك له مبلغًا كبيرًا من المال في وصيةٍ كتبها عندما بلغ سنَّ الرشد. ولست بحاجة لأن أخبرك أنه كتب الآن وصيةً أخرى، وأبطل ...»

هتف موستن سكارث بعد أن فقدَ صوابه في نهاية المطاف: «لا، لستَ بحاجة لأن تفعل! كفاني ما سمعته عن أوهامك ووحوشك الخيالية. أتمنى لك صباحًا سعيدًا ومستمعين أكثرَ سذاجةً المرة القادمة.»

ردَّ الطبيب وهو عند الباب: «ذلك أمرٌ يمكنني أن أُعَوِّل عليه. يسهُل إقناعهم بأي شيء ... في سكوتلاند يارد!»

الفصل السادس

المسوس

كان الفريق نيفيل دايسون، المهندس الملكي، الحائز ميدالية صليب فيكتوريا، أولَ شخص رفيع الشأن يأتي لاستشارة طبيب الجريمة عن طريق حجز موعد اعتيادي في مواعيد العمل. فضلًا عن مآثره العسكرية التي جلبت له أعلى الأوسمة التي تشرئبُّ إليها الأعناق، شغل الفريق ذو الجسد الضخم، بصدره العريض وقامته المنتصبة وفحولته البادية في كل شعرة فضية من رأسه الأشيب المرفوع، تلك العيادةَ الصغيرة في شارع ويلبك، فصغر الأثاث العتيق، مقارنةً بحجمه، مثلما لم يحدُث مع أحدٍ من قبل. لكنَّ صوته كان رقيقًا، بل مرتعشًا، يُنذر على نحوٍ مثيرٍ للشفقة بقلب منفطر يتوارى خلفَ كلِّ هذه المظاهر.

استهلَّ كلامه على الفور، قائلًا: «لقد قدِمتُ إليك، أيها الطبيب دولار، كي أستشيرك بشأن أكثر سرٍّ مأساوي يمكن أن يخفيَه إنسان في طيات صدره. ولولا أنني أعلم قداسة خصوصية المريض عند جميع الأطباء — النفسيين منهم على وجه التحديد — لأرديت نفسي صريعًا لتفوهي بالكلام الذي يتعيَّن عليَّ الإفصاحُ عنه، ألا توافقني الرأي فيما أقول؟»

ردَّ دولار بلطف: «آمُل أن نكون جميعنا متفقين على المبدأ نفسه فيما يتعلَّق بسِرِّية المريض.» كان قد اعتاد سماعَ هذه المقدمات الحزينة من مرضاه.

هتف الفريقُ وهو يرفع منديله إلى جبهته النضرةِ وملامحه الوسيمة بشكلٍ لافت للنظر، كأنه يمسح حُمرةَ وجهه المفعم بالحيوية: «لا يصح أن أفضيَ إليك بهذا السرِّ؛ لكنه لا يتعلَّق بي تقريبًا؛ لذا ينتابني شعورٌ بأنني وغدٌ جبان! مريضتك، كما آمُل بكل صدق، هي زوجتي المسكينة، التي يتراءى لي حقًّا أنها تكاد تفقد عقلَها»، وخانه صوتُه فلم يستطِع إكمالَ الجملة.

قال دولار: «ربما يمكننا أن نردَّه إليها»، مزدريًا التفاؤلَ المهني الوقِح الذي يُلحَظ في ردودٍ تُقال بتسرُّع في تلك المواقفِ من قبيل «في كثيرٍ من الحالات يضل عقل المرء ولا يُجَنُّ حقًّا.»

وتغلَّب الثاني أخيرًا على آخرِ ما كان لديه من إحجام. برفقٍ وجَّه إليه الطبيب بضعة أسئلة مهمة، وردَّ هو عليها ببساطة، مسترسلًا ببراعة في حديثه، الذي لم يزِد انقطاعٌ عارضٌ فيه حسَّه المرهفَ إلا فضلًا.

أعلن الفريق بنبرةٍ تأكيدية: «لا. ينبغي أن أقول إن هذا المرض لم يظهر على زوجتي إلا في الأشهر القليلة الماضية. لم تكن تعاني أيَّ شيء من هذا القبيل في العشرين سنة تقريبًا التي أمضيناها في الهند، ولا في السنة الأولى بعد تقاعدي. كل هذا البلاء ... هذا البلاء حلَّ عندما اشتريت منزلي في قريةِ أشجارِ الصَّنوبر. إنها تُسمى «فالسوجانا»، كما ترى في بطاقتي؛ لكن لم يحدُث هذا قبل أن نذهب إلى هذا المكان. أطلقنا عليها هذا الاسم؛ لأنها ذَكَّرَتنا بمقاطعة تيرول النمساوية، التي تشبهها شبهًا يفوق الوصف، والتي ... حسنًا، كان لنا فيها الكثير من الذكريات السعيدة أيها الطبيب دولار.»

جفَلَت عيناه الزرقاوان، وهما تتطلعان عبْر النافذة الفرنسية المفتوحة، إلى الحافة المجاورة من الطوب والمِلاط، ومنها إلى الأسطح الناتئة للمنازل الأخرى، التي خفَّفَ الضباب الخفيف، المُنذر بجوٍّ حارٍّ، من بروزها قليلًا. بذل الرجل جهدًا مضنيًا كي يعيدَ عينيه إلى غرفة الاستشارات الصغيرة المظلمة نسبيًّا، بألواحها القديمة الباردة من السنديان، ونباتات السرخس الصيفية التي اختفى موقد المدفأة خلفها.

تابع الفريق كلامَه: «لطفٌ منك أنك سمحت لي أن أتمهَّل في حديثي، أيها الطبيب، لكن لا يمكنني إهدارُ وقتك الثمين أكثرَ من هذا. ما قصدته هو أن أعطيَك فكرةً عن الأجواء التي نعيش فيها؛ لأنني أعلم أنها تُؤخذ في الاعتبار في مثلِ هذه الحالات. نحن نعيش بين أشجار البلوط والتنُّوب. بعض الناس تصيبهم الأشجار بالاكتئاب، لكن بعد ما شهدناه في الهند، كانت الأشجار هي بالضبط ما أردناه، وحتى هذه اللحظة لا تسمح لي زوجتي بقطع شجرة واحدة منها. لكن الاكتئاب ليس التوصيف الصحيح لحالة زوجتي العقلية؛ فما تشعر به أقربُ إلى الملنخوليا، وفي الآونة الأخيرة صارت عُرضة لـ... لهلاوسَ ... هلاوسَ تؤثِّر على شخصيتها وأفعالها بكاملها بطريقة مقلقة للغاية. نواجه صعوبةً، لأول مرة في حياتنا، في الإبقاء على الخدَم؛ حتى إن ابن أختها، الذي قدِم للعيش معنا، يتحمَّل من أجلي فحسب، يا له من فتًى مسكين! وفيما يخصُّ التحكُّم في انفعالاتي ...

حسنًا، حمدًا للرب، كنت أحسب أنني لا أملِك أدنى قدْر من التحكم في انفعالاتي أثناء خدمتي بالجيش؛ لكني أجد بعض الصعوبة في تقبُّل أن نكون ... أن نكون في حالتنا هذه ... في تلك المرحلة من حياتنا!» تورَّد وجهه بشدة. وأضاف: «ما هذا الذي أقوله؟ الأمر أصعبُ عليها بآلاف المرات! كانت تتطلع إلى هذه الأيام منذ سنوات.»

أراد دولار أن يعتصرَ إحدى هاتين اليدين المضطربتين البنِّيتين العظيمتين. سأله عن طبيعة هذه الهلاوس.

هتف الفريق: «أنا على استعدادٍ لأن أدفع عشر سنين من عمري عن طِيب خاطرٍ مقابل أن يكون بوسعي إخبارك عن طبيعتها!»

قال الطبيب: «أيمكنك أن تخبرَني بالشكل الذي تتخذه هذه الهلاوس؟»

قال الفريق مغمغمًا: «لا مناصَ من ذلك، بالتأكيد؛ فهذا سببُ قدومي إلى هنا على أي حال.» رفع رأسه وصوته في آنٍ واحد. وتابع: «حسنًا، أولًا، اقتنت كلب بُلدوج مفترسًا ومسدسًا.»

لم يختلج الطبيب أدنى اختلاجة. وقال: «أظن أن وجود الكلاب ضروريٌّ في القرى، خاصةً في حالة عدم وجود أطفال. وإن كان لا بد لك من اقتناء كلب، فالبُلدوج أفضل خِيار. هل يوجد أيُّ سبب يدعو إلى اقتناء مسدَّس؟ بعض الأشخاص ينظرون إلى الأمر على أنه ضرورة من ضروريات العيش في القرى.»

قال الفريق: «هذا لا ينطبِق على حالتنا ... فضلًا عن أنها تحمِله معها.»

سأل الطبيب: «أليست هذه عادةَ النساء في الهند؟»

قال: «لم تحمِله في الهند قط. والآن ...»

قال الطبيب: «والآن ماذا، أيها الفريق؟ أتحمِله معها دائمًا؟»

أجاب: «ليلَ نهار، في سوارِ سلسلةٍ حول رُسغها!»

هذه المرة لم تكن توجد أيُّ تبريرات مهنية. قال بشفقة متحفِّظة: «لا عجبَ في أنكما واجهتما مشكلات مع الخدم.»

تابع الفريق: «قد لا تستطيع رؤيته، أيها الطبيب، عندما تأتي إلى منزلنا، وهو ما أرجوك من كل قلبي أن تقبله. ولأجل هذا الغرض، حصلت على قَصَّةٍ معيَّنة لأكمامها، وهو أصغر مسدَّس يمكن أن يشتريَه المرء. لكني أعلم أنه معها دائمًا ... وهو مذخَّر بصفة مستمرة.»

أخذ دولار يعبث قليلًا بمسطرةٍ من الفولاذ غريبة الشكل بسيطة التصميم، لم تكن تتلاءم مع ممتلكاته الأخرى، وإن كان لها هي الأخرى ماضٍ يخصُّها. كانت المسطرة في وضعٍ عمودي قبل أن يدعَها تسقط ويرفع ناظريه.

قال: «لا بد أن هناك سببًا أو أساسًا لهذه الهلوسات أيها الفريق دايسون. هل وقعت أيُّ حادثة مفزِعة منذ استقراركما في ... «فالسوجانا»؟»

أجاب: «لم يحدُث شيء يمكن للأسلحة النارية أن تحولَ دون وقوعه.»

سأل الطبيب: «أيمكنك أن تخبرَني بما حدث؟»

قال: «وقعت حادثةٌ مأساوية في فصل الشتاء؛ حادثة انتحار في المكان الذي نقطن فيه.»

هتف الطبيب: «فهمت!»

واصل الفريق: «شنقَ البستانيُّ الخاصُّ بها نفسَه. وأقول «الخاصُّ بها» لأن الحديقة مسئولية زوجتي. وتقع على عاتقي فقط مسئولية دفْع راتب العامل المسكين.»

قال الطبيب: «حسنًا، بالله عليك، أيها الفريق، هذا يكفي لإصابة أي أحد بالاكتئاب ...»

قال الرجل: «لكنها لم تأمر حتى بقطعِ تلك الشجرة أو تبتعد عن المكان من أجل التغيير، ولو ليلة واحدة في البلدة!»

صحبت هذه المقاطعةَ حرارةٌ شديدة تدفَّقت إلى الغرفة، ما دفع الفريق إلى استخدام منديله. تناول دولار المسطرةَ الفولاذية الأنبوبية، وصوَّبها إلى الحِبر مثل منظار مُقرِّب، وأغلق إحدى عينيه بحرصٍ كأن الحقيقة تقع في أعماق الحِبر ذي اللونين الأسود والأزرق.

سأل الطبيب: «أهناك أيُّ سبب أو مبرِّر للانتحار؟»

أجاب الفريق: «هناك سببٌ ما لا أرغب في الإفصاح عنه.»

فتح الطبيب عينه المغلقة ليجد الفريقَ مُطرقَ الرأس. قال: «أظن أنه قد تفيدنا معرفةُ السبب أيها الفريق. إن زوجتك قوية الشخصية كما هو واضح، وأي شيء ...»

هتف الرجل البائس: «إنها كذلك، الرب يعلم! صار الجميع على علمٍ بحالتها العقلية — ولا سيما الخدم — رغم المعاملة الحسنة التي تلقَّوها منها فيما مضى. عجبًا، في الهند ... لكن لنكتفِ بهذا القدْر إذا كنت لا تمانع. لقد قدمتُ دعمًا ماليًّا لأرملة الرجل.»

انحنى دولار فوق مسطرته الفولاذية، لكنه نحَّاها جانبًا بسرعة هذه المرة، فتدحرجت وسقطت من فوق الطاولة. نهض الفريق دايسون، وأطلَّ على الطبيب بقامته الطويلة، وهو يمدُّ يده لمصافحته.

قال بصوت مبحوح: «لا يمكنني قول المزيد. لا بد أن تحضُر إلى منزلنا، وتراها بنفسك؛ حينها، يمكنك سؤالها عما تريد ... دون أن أشعر أنني وغد لعين! بحق الرب، سيدي، إنه أمرٌ مريع أن يتحدَّث المرء عن زوجته بهذه الطريقة، ولو كان ذلك لمصلحتها! بل هو أسوأ مما تخيَّلت. أعلم أن الأمر مختلف في حالة طبيب ... لكن ... لكن أنتَ جنديٌّ قديمٌ مثلي، أليس كذلك؟ لقد سمعت أنك ذهبت إلى الحرب، هل هذا صحيح؟»

أجاب الطبيب: «نعم.»

هتف الفريق فيما تلألأت عيناه الزرقاوان بمكر بسيط: «حسنًا إذن. لقد التقينا في الحرب! وتقاطعت طرقنا مرةً أخرى، ودعوتك إلى منزلي في عطلة نهاية الأسبوع القادم! أيمكنك المجيء؟ هل أنتَ متفرغ؟ سأحرِّر لك شيكًا من أجل أتعابك في الحال ... إن شئت ... إذ لا يمكن أن أفعل شيئًا من هذا القبيل هناك. لا تمانع أن تتظاهرَ أنك النقيب دولار مرةً أخرى — إن كانت هذه رتبتك — أمام زوجتي، أليس كذلك؟»

أحدَثت حماسته المثيرة للشفقة ووفاؤه الرقيق — وحتى لهفتُه الحريصة والمفاجئة في عملية النصب الخيِّرة التي طرحها — بينهما انجذابًا لا يُقاوم. وجد دولار نفسَه يفكر: إن غرفَ الطابق العلوي ملأى بالمرضى؛ لكن إحداها لا تحوي قضيةً مثيرةً للاهتمام على النحو الذي بدت عليه هذه القضية. ومن ناحية أخرى، لا بد أن يحافظ على توازن بين الاهتمام بالجوانب الشخصية والشعورية من حياة مرضاه والالتزام بمبادئ مهنته. ربما يلقِّبه الآخرون بالتجريبي — وفي هذا مدعاةٌ للفخر أيما مدعاة — لكن هذه التجربة لا بد أن تظل محصورةً في اتجاه واحد فحسب. فالأبحاث النفسية لم تكن تلائمه ... كما أن لقصة دايسون نكهة نفسية.

في نهاية المطاف، قال بصراحة كبيرة: «آمُل ألا تشيرَ إلى وجود شبحٍ وراء كل هذا، أم إنك ستفعل أيها الفريق؟»

هتف المحارب بضحكة متوترة: «أنا؟ يا إلهي، لا! لا أومن بوجود الأشباح.»

سأل الطبيب: «هل أشار إلى ذلك أيُّ أحد من أهل بيتك؟»

أجاب: «ليس ... الآن.»

كرَّر الطبيب مستفسرًا: «ليس الآن؟»

قال: «لا. وأنا متأكد من قولي هذا.» لكن شيئًا ما كان يقلقه. تابع بصراحة جذابة ناجمة عن تخليه عن تحفُّظه: «أيضًا قد يكون من الصواب والإنصاف — وحيث إنك ستأتي إلى المنزل حسبما فهمت — أن أخبرك أن شخصًا، كان يعيش معنا، كان يزعم

رؤيته للأشباح. لكن كلامه كان مجرد تُرَّهات لا أكثر. ادَّعى رؤية شياطين بنية ترفُل في أرديةٍ انسيابية، لكن لا أدري ما الذي كان قد تعاطاه قبل أن يراها! لم يمكث معي فترةً طويلة لنتعارف جيدًا. لكنه لم يكن خادمًا فحسب، وكان هذا قبل حادثة انتحار البستاني المسكين. كما هي عادةُ المحاربين القدماء المتقاعدين، أيها الطبيب دولار، أنا بصدد تأليف كتاب، وأوظِّف سكرتيرًا متواضعَ الإمكانيات؛ سكرتيري حاليًّا هو جيم بيلي، ابنُ أخت زوجتي؛ والحمد لله أنه يتسم بالعقلانية مقارنةً بنظيره السابق.»

سأل الطبيب: «ومع ذلك أُصيبَ بالاكتئاب؟»

أجاب الفريق: «هو معذور في ذلك. لو تصرَّف أصدقاؤك وأقاربك مثل المسوسين ...» وأمسك عن الكلام مرةً أخرى؛ وهذه المرة وجدت يدُه طريقها إلى يد الطبيب وقبضت عليها مرتجفةً. سأل: «ستأتي، أليس كذلك؟ يمكنني أن أنتظرَك في محطة القطار يوم السبت أو في أي يوم آخر يناسبك. أنا ... من أجلها أيها الطبيب ... في بعض الأحيان أشعر أنه من الأفضل لها أن تبتعد عن المكان بعض الوقت. لكنك ستأتي وتراها بنفسك، أليس كذلك؟»

قبل مغادرته، أخذ وعدًا من الطبيب بزيارته؛ لو أن رجلًا ذا قلبٍ أقسى كان في مكان دولار لانتهى به الأمر إلى أن يقطعَ على نفسه هذا الوعد، ولأعطى القضيةَ الجديدة الأولويةَ على جميع القضايا يوم السبت. لكن طبيب الجريمة، في الحقيقة، لم يكن متشوقًا لرؤية مريضته المستقبلية فحسب، كان يشعر بانجذابٍ مسبق إلى المشهد، وإلى كل المنخرطين في هذه المسرحية الدرامية المؤكَّدة، التي انتهى على أقل تقدير فصلٌ من فصولها المأساوية.

لم يكن هناك داعٍ للقائه في أي محطة قطار؛ إذ كانت أمٌّ غنيةٌ لمريضٍ، قدِم حديثًا إلى عيادته، قد أصرَّت على أن تهبَه سيارة تالبويز بقوة خمسة عشر حصانًا، فقبِل هديَّتها في نهاية المطاف، بل انتقاها بنفسه (بناءً على مساعدة مختصة محدَّدة) بوصفها مساهمة قيِّمة من أجل «قضيته». بالفعل أسهمت السيارة مساهمةً هائلة في زيادة رقعة مسرح عمله؛ وفي كل مهمة ميدانية، كان قلبه يمتلئ فرحًا وإيمانه يزداد قوةً بحالة السائق الشاب الرائعة الذي كان يجلس مشدودَ القامة أمام عجلة القيادة بجواره. في البداية، كان يجلس في وضعيةٍ مترهلة كأسوأ ما يكون عليه سائق؛ ولم تكن الأوامر ولا التوبيخ ما قوَّم جِلسته وأصلح مظهرَه الخارجي وحاله بشكل عام. كان هو الشخص المنشود لجون دولار؛ المريضِ غير الواعي الذي لا يعلم أحدٌ تاريخه المَرضي، الذي لا يتخيَّل هو نفسه أن تاريخه كلَّه معلومٌ للرجل الذي يعامله كأخيه.

كان الفتى قد زُجَّ به في السِّجن بسبب خيانة الأمانة؛ فأعطاه الطبيب ثقتَه بحذر، وهكذا تعلَّم الفتى أن يثق بنفسه. كان قد قدِم في شهر مارس، أبلهَ متجهمًا مثيرًا للريبة؛ والآن في شهر يونيو صار يتحدَّث عن الكريكت والطبعات ذات الست بنسات من خطوط ترام هونسلو إلى أن اجتاز البوابةَ البيضاء الكبيرة وخاض غابةَ بيركشاير؛ حيث لاح من بعيد منزلٌ محتجب خلف أشجار للبلاب اتقاءً لأشعة الشمس.

لكن عند المدخل، عاد الفريق دايسون إلى حياة الطبيب، وبعد توجيه السائق، الذي كان قد شغل حياةَ الطبيب بمحادثته طوال الساعة الأخيرة، إلى موقف السيارات، رحل عنها مدة الأربع والعشرين ساعة التالية.

همس المضيف تحت الأشجار التي سُمع حفيفها في الأرجاء: «أريدك أن تسمع خبرًا مني مباشرةً، حتى لا يُذكر ويصيبك بالدهشة أمام الآخرين. حدثت لنا مأساة أخرى — لكنها ليست مريعة كالسابقة — وإن كانت أسوأ من ناحيةٍ ما. أطلقت زوجتي النار على كلبها وقتلته الليلة الماضية!»

حاول دولار ألا تظهر علامات الدهشة على شفتيه المنفرجتين.

تجمَّد في مكانه وسأل: «في الليل؟»

أجاب الفريق: «حسنًا، بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة.»

سأل الطبيب: «في غرفتها أم أين؟»

أجاب: «خارج المنزل. لا تسألني عن تفاصيل الحادثة؛ لا أحدَ يعرفها على ما يبدو، و«أنت» لا تعرف شيئًا عنها حتى تذكرها هي بنفسها.»

كان وجهه الوسيم يتصبَّب عرقًا؛ لكن بدا أنه كان ينتظر الطبيبَ بهدوء تحت الأشجار؛ إذ لم يكن متهدِّج الأنفاس، على الرغم من كِبَر سنه. لم يوجِّه له دولار أيَّ سؤال على الإطلاق؛ توقفا عن ذكر الموضوع في ممر السيارات. على الرغم من سطوع الشمس في مكانٍ ما بعيد، كان الوقت حينئذٍ في أواخر عصر يوم من أيام شهر يونيو الطويلة، واصطُحِب الضيف إلى غرفته مباشرةً.

كانت الغرفة تقع في زاويةٍ من المنزل، لها نافذة إطارية تحيط بها أشجار اللبلاب فتحول دون عبور أشعة الشمس وتُطِلُّ على حديقة ظليلة، والنافذة الثانية تواجه أشجار التنُّوب والقسطل، التي كان يصعب على المرء ألا يصيبه التوجُّس عند النظر إليها. لكن بدا على الفريق أنه كان قد نسي مآسيه، وفي اللحظة الراهنة كادت عيناه الزرقاوان تضفيان بهجةً على المشهد الكئيب، وراحتا تتأملانه بفخر عفوي.

سأل: «ألا ترى الآن التشابه بين هذا المكان وتيرول؟ ضع جبلًا خلف تلك الأشجار؛ وهناك كان يوجد واحد في المرة الأولى التي رأينا فيها المنزل! لم يكن سوى سحابة رعدية لكنها بدت مثل سلسلة جبال دولوميت. وأعاد ذلك إلى أذهاننا ... لم نحظَ بسُحُب أخرى عندئذٍ!»

وجد دولار نفسَه وحيدًا؛ أُفرغت حقيبته، ورُصِّع قميصه بأزرار معدنية، ووُضع غطاءٌ على صفيحة المياه الساخنة النحاسية، فشعر بفرحةٍ كبيرة كأنه لم يمكث بمنزل ريفي من قبل. أيمكن أن يكون الحال في غاية السوء في بيتٍ يعلم أفرادُه ما يجب تقديمه للضيف وما يجب ألا يُقدَّم؟

وكان الأمر على نفس الشاكلة مع بقيةِ وسائل الراحة؛ وكان هذا يعكس أداء الخدَم لوظائفهم على النحو الأمثل، رغم قِصَر فترة خدمتهم؛ ووجود خدمٍ يجيدون توفيرَ وسائل الراحة للضيوف في كثير من الأحيان لا يعني أن سيدة المنزل أو المضيِّفة، التي كان دولار قد تجهَّز للقائها، تُحسِن ذلك. ارتدى دولار ملابسه، وبداخله شكوك منطقية وإثارة شديدة؛ وكانت هذه هي أسعد لحظاته في «فالسوجانا».

كانت السيدة دايسون في منتصفِ عمرها لكنها بدت امرأةً عجوزًا، أما الفريق فكان مسنًّا وإن بدت على ملامحه مظاهرُ أوائل منتصف العمر. بل اكتمل هذا التناقضُ بين الزوجين بغير ذلك من التفاصيل المثيرة للحسد، لكن دولار لم يكترث بوجه المرأة المسكينة من ناحية جمالية بحتة. كانت بشرتها وعيناها كافيتين بالنسبة إليه؛ فقد اصطبغت كلتاهما بصبغة داكنة، مع مسحة هندية مفرِطة لدى الكثير من الهنود الإنجليز. لاحظ دولار على الفور ذلك التحفُّظ الشرقي.

عندما تحدثت، لم يجد بأسًا في حديثها؛ وكان القليل الذي قالته مجرَّد كلمات مقتضبة عفوية متعاطفة. وأكسبها العشاء البسيط ذلك الثناء الذي لم يكن دولار مستعدًّا له بعد؛ لكنها تولَّت دفةَ الحديث مرةً واحدة، وحدَث هذا بحدة بالغة بهدف تغيير الموضوع الذي كانت هي أول من تطرَّقت إليه.

لم يستطِع دولار أن يحدِّد تمامًا الكيفيةَ التي فُتِح بها الموضوع فجأة، خاصة مع الحفاوة التي حظيت بها مهنته السابقة ورتبتُه طوال زيارته. كان حتى قد نبَّه سائقه إلى عدم إفشاء مهنته الحقيقية هناك؛ ولم يكن من المحتمل أن يكون هو من أثار الموضوعَ بنفسه، لكنَّ شخصًا ما فعل ذلك كما يحدث دائمًا عندما يكون هناك موضوع بعينه لا بد من تجنُّب الحديث عنه. ربما يكون هذا الشخص هو ابنَ أختها الشاب اللطيف الذي

علَّق بحسن نية على احتياج الفريق إلى الأصالة، مع الإشارة إلى بضعة أمور هي محلُّ نقد في الوقت الراهن؛ لكن لم يكن هو ولا دولار مَن ذكر أن القرود أكثرُ الكائنات المحاكية تطرفًا بحسب بطبيعتها ... باستثناء المجرمين؛ وبالتأكيد كان الفريق هو من قال إنه لن يستغرب إن ذهب شخصٌ آخر وشنق نفسه في غابتهم. حينها تدخَّلت السيدة دايسون لتحويل دفة الحديث ... ولا يمكن لدولار أن ينسى نظرتها حينها.

لأول مرة تقريبًا وجد نفسه مدفوعًا للتفكير في مسدسها. لم يكن ظاهرًا للعِيان؛ ومع أن كمَّيها الطويلين كانا منتفخين، كان من الصعب تصديقُ أن أحدهما كان يخفي أصغرَ مسدَّس صنعته يدُ بشر؛ لكن تدلَّى بالفعل قُفل ذهبي صغير عندما رفعت كوب الماء؛ وفي نهاية العشاء كان هناك مشهدٌ ثانٍ قصير، بلا كلمات هذه المرة، لكنه بدَّد أي شكوك كانت تساوره.

كان يمسك الباب ليبقيَه مفتوحًا للسيدة دايسون، عندما وقفت على العتبة لحظةً، تتفحَّص زوايا الغرفة البعيدة. رأى ما كانت قد نسيته ... رأى أنها تذكَّرت ذلك الشيء وهي تستدير موليةً الغرفة ظهرها، وعلى وجهها نظرةٌ أخرى لا يمكنه نسيانها.

إما أن الفريق لم ينتبه لنظرتها تلك، أو تناسى عن عمدٍ همومه وتوتُّره وسط اضطلاعه بواجبات المضيِّف. كان قد أحضر بعضًا من النبيذ الفاخر احتفاءً بالطبيب؛ وجلسا يشربانه معًا، حتى كاد يحين وقت النوم. شرب دولار القليل من النبيذ، لكن الآخر تورَّدت وجنتاه كثيرًا، وكان من الجيد سماعه يتحدَّث بلا تحفُّظ أو تكلُّف. لكن كان ذلك غريبًا أيضًا؛ إذ انجرف من جديد إلى موضوعاتِ علم الإجرام، كما أن غياب إدراكه بعد العشاء زاد من ارتباك محدِّثه.

شعر أن كلامه، بالتأكيد، كان جزئيًّا من باب الإطراء لشخصه، بصفته طبيبَ جريمة؛ لكن، مما لا شك فيه، أن ذلك الموضوع البغيض كان يشكل شغفًا غيرَ سوي لدى الرجل المتحمس الجذاب. ولم يبْدُ افتتانًا متجذرًا؛ لكن الملاحظ الخبير رآه انجذابًا انعكاسيًّا لقدرٍ هائل من الرعب والنفور، فأخذه على محمل الجِد. بدا له أن أهون الشرَّين هو أن يسمح له باستجوابه في عموميات مهنية. كان هذا أفضل بلا شك من تشجيع الفريق على التنقيب في خبرته الطويلة بحثًا عن ذكرياتٍ عن أناس محترمين ارتكبوا أعمالًا شنيعة. وفوق ذلك ليطمئنه إلى أن حتى هؤلاء الأشقياء ربما كانوا سينجحون في تجاوز أفعالهم المشينة في إطارِ علاجٍ علميٍّ في عصرٍ أكثرَ استنارة.

لو كان لا بدَّ لهما من الحديث عن الجريمة، فليكن إذن عن «التعافي من الجرائم»! وهكذا قال الطبيب رأيه الصادق؛ واستمع إليه الفريق بإصغاءٍ متَّسمٍ برهبةٍ فاقت ما بدا عليه عندما كان يتحدث؛ وراح يطرح أسئلته همسًا، وينتظر بلهفةٍ إجابات الطبيب المدروسة. كان آخرُ هذه الأسئلة هو الذي استغرق أطولَ وقت في إجابته.

قال: «بحق الرب، أيها الطبيب، أجبني، أيٌّ من الجنسين لديه فرصة أعلى لتعافيه من الجريمة: الرجال أم النساء؟»

لم يسَع دولار سوى أن يقول: «ينبغي لي ألا أيأس من صلاح «أي أحد»، ارتكب «أي جريمة»، إذا كان لا يزال يملِك فِطنةً يمكن العمل عليها؛ وكلما زادت كان ذلك أفضل.»

لم يتفوَّه الفريق بكلمة أخرى، باستثناء «ليباركك الرب!» خارجَ غرفة الضيوف. ولم تَعُد زوجته تُرى في المنزل.

لكن أحسَّ دولار بوجودها في كل زاوية من زوايا مهجعه المُبهج؛ وكان للتناقض الحاد، الذي ربما كان من شأنه أن يزعزع أيَّ عقل بريء، تأثيرٌ عكسي عليه. كانت هناك مصابيحُ كهربائية موضوعة في جميع الأماكن المناسبة؛ كما كانت توجد كتبٌ وبسكويت وكوب من اللون، وحتى قنِّينة صغيرة وزجاجة مشروب شويبس الغازي. تنهَّد الطبيب وهو يملأ زنبرك ساعته ويضعها على الحامل الصغير فوق الطاولة المجاورة للفراش؛ لكنه انشغل بالتساؤل عما سيكتشفه قبل أن يعيد ملأها من جديد.

خارج إحدى النوافذ المفتوحة، كانت صراصير الحقل السعيدة تصدِر أصواتًا كأنها أصواتُ صُنُوج في تلك الأشجار المريعة. رفع الطبيب ستائرَ النافذة الأخرى؛ وعلى العشب، أظهر وهج سيجارة كان ينطفئ ويتجدَّد، لمحةً من مقدمة قميصٍ أبيض، وربطة عنق حريرية سوداء، والحافة المتدلية لقبعة من طراز بنما. كان ذلك هو الشابَّ اللطيف ابنَ أخت السيدة الذي كان قد انسحب إلى غرفته قبل احتساء النبيذ الفاخر. كان دولار لا يزال يفكِّر في ذريعة للنزول إلى الحديقة والانضمام إليه عندما سمع طرقات الشاب على باب غرفته.

وضَّح الشاب بيلي بنبرةٍ غير صادقة ساذجة: «أردتُ فقط التأكد من أن لديك كلَّ ما تحتاجه»؛ وأغلق الباب خلفه قبل أن تتحرك شفتا الطبيب وتدعوانه إلى الدخول. لكنه أوصد البابَ بهدوء شديد، وتسلَّل كاللص، واعتذر إلى الطبيب بأنفاسٍ لاهثة، قائلًا: «أنتَ أولُ شخص يقيم معنا منذ قدمتُ للعمل في هذا المنزل، أيها النقيب دولار!» وكانت ابتسامته الشابة الساخرة حزينةً مثل كل شيء في المنزل الحزين.

هتف دولار: «لقد أدهشتني!» بالفعل، لم يتوقَّع تعليق الشاب على الإطلاق. قال: «لمْ يخطر ببالي من قبل أن ...» وجالت نظراته في لمح البصر في أنحاء الغرفة الفاخرة.

قال بيلي بإيماءة: «أعرف. أظن أنه لا بد أنهما بذلا غاية جهدهما في البداية باستعدادات وترتيبات خاصة لضمان راحة زوارهما. لكن لا يأتي أحد الآن. ليتنا يأتينا زائرون! فهذا المنزل بحاجة إلى وجودهم.»

سأل الطبيب: «جماعتكم صغيرة للغاية، أليس كذلك؟»

أجاب بيلي: «بل جماعتنا كئيبة! لكن عمي المسن هو أظرفُ رجل قابلته على الإطلاق.»

قال الطبيب: «لا أستغرب إعجابك به.»

قال: «أنتَ لا تعرف مآثره، أيها الطبيب دولار. فقد نال وسامَ صليب فيكتوريا، عندما كان في مثلِ عمري، في بورما، لكنه يستحقه عن كلِّ يوم يقضيه في حياته العادية في هذا المنزل.»

لم يعلِّق دولار؛ قدَّم الشاب له سيجارة، وشجَّعه الطبيب على إشعال واحدة أخرى لنفسه. ولم يحتَج إلى تشجيعٍ من الطبيب ليتكلم.

واصل الشاب كلامه، قائلًا: «المُضحك في الأمر أنه ليس عمِّي الحقيقي. أنا ابنُ أختها؛ وهي امرأة رائعة، أيضًا، بطريقتها الخاصة. إنها تدير المكانَ بأكمله بدقة ونظام وكفاءة كالكتاب؛ ومع ذلك لا تجد التقديرَ الكافي هنا. لكني أجد نفسي مدفوعًا إلى الاعتراف بأنني كنت سأحبها أكثرَ لو لم أكن أحبه!»

قال دولار: «بمناسبة الحديث عن الكتب، أخبرني الفريقُ أنه يكتب كتابًا، وأنك تساعده في هذا الأمر، أهذا صحيح؟»

سأل الشاب: «ألم يخبرك عن موضوع الكتاب؟»

أجاب دولار: «نعم.»

قال: «إذن لا يمكنني أن أخبرَك عنه. أتمنَّى لو كنت أستطيع. سيكون القول الفصل في موضوعٍ بعينه، لكنه لا يرغب في أن يعرفه أحدٌ حتى يكشف عنه. وهذا أحد أسباب توتره.»

سأل الطبيب: «هل الكتاب هو سببُ انزعاجه؟»

أجاب: «بلى، الكتاب وغيره. ألا يذكركَ برجل جالس فوق قنبلة موقوتة؟ لولاه، لحدث انفجار في الوضع كل يوم. وهذا ما لم يحدُث قط، مهما كان ما يجري!»

راقب دولار الشابَّ الشاحب وهو يستنشق دخان سيجارته.

سأل: «هل يتحدثان كثيرًا عن الجريمة؟»

أجاب: «طوال الوقت! لا يستطيعان تجنُّب التحدث بشأنه. ودائمًا ما تغيِّر خالتي إيسي دفةَ الحديث كأنها لم تكن سيئة مثل عمي تمامًا. لا شك في أنهما شهدا الكثير ليصبحا بهذه السوداوية. أظن أنك سمعت عن المسكين دينجل، البستاني السابق، أليس كذلك؟»

قال الطبيب: «عرفت بأمره مؤخرًا.»

تابع الشاب: «كان آخرَ شخص يخطر ببالك أن يُقدِم على هذا الأمر. وحدث هذا في تلك الأشجار القابعة بالخارج.» أصدرت صراصير الحقل أصواتًا أكثرَ ابتهاجًا عندما توقَّف الشاب عن الحديث. وتابع قائلًا: «لم يعثُر عليه أحد مدة يوم وليلة!»

قال دولار: «اسمع! لن أدعك تقصُّ على مسامعي هذه الحادثة.» لكن هذه المقاطعة المرحة كلَّفته الكثير من العناء. كان يريد سماع كل شيء عن حادثة الانتحار، لكن ليس من هذا الشاب المنهك، الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامةُ رجل مسن. كان يعرف ذلك النوع ويحبه كثيرًا.

قال جيم بيلي: «آسف أيها النقيب دولار.» وبدت أمارات الأسف على وجهه. وأردف: «لكن، أنتَ على صواب! هل أخبرك الفريق عما حدث الليلة الماضية؟»

أجاب الطبيب: «حسنًا، أجل، لكن دون الخوض في أي تفاصيل.»

لم يُخفِ الطبيب فضولَه؛ فلم يكن موضوعًا يسَعه العزوف عن معرفة تفاصيله. كما أن هذا الحديثَ لن يثير ذكريات مفزعة قديمة؛ وسيعود الكلام في هذا الموضوع على الفتى بالنفع أكثرَ من الضرر.

قال: «ليس لدي الكثير من المعلومات عن الأمر. كنت أقلِّب في عقلي إمكانيةَ أن أخبرك بالأمر في أثناء وقوفي على العشب منذ قليل. وقعت الحادثة هناك، إن كنت تعلم.»

ردَّ الطبيب: «لم أكن أعلم ذلك.»

قال الشاب: «حسنًا، وقعت هناك، والغريب في الأمر أنني كنت هناك حين وقعت. اعتدت الخروجَ مع الكلب لتدخين سيجارة عندما يأويان إلى النوم؛ وفي الليلة الماضية، بلغت من الحُمْق أن غفوت في مقعد على العشب. كنت قد قضيت فترةَ بعد الظهيرة بأكملها في لعِب التنس، وخرجت في نزهةٍ طويلة بالدراجة ذهابًا وإيابًا. حسنًا، كلُّ ما أعرفه هو أنني استيقظت، وأنا أفكِّر أنني تعرَّضت لإطلاق الرصاص؛ ووجدت خالتي ممسكةً بالمسدس الذي تصرُّ على حمله معها في كل مكان، ومَجينز المسكين جثة هامدة.»

سأل الطبيب: «أقالت إنها كانت حادثة؟»

أجاب: «تصرفَتْ كما لو كانت كذلك؛ وأخذت تبكي على جثة الكلب المسكين.»

سأل الطبيب: «أكان كلبًا شرسًا؟»

ردَّ الشباب: «لم أظن ذلك قط. لكن الفريق لم يكن يحبه، ولا عجب في ذلك! هل أخبرك أنه عضه في كتفه؟»

أجاب الطبيب: «لا.»

قال: «حسنًا، لقد فعل، منذ بضعة أيام فقط. لكن هذا التصرُّف ليس غريبًا على الفريق. فهو لم يخبرني بما حدث حتى قُتل الكلب. ولن أستغرب إذا ...»

قال الطبيب: «ماذا؟»

أكمل الشاب: «... إذا لم يكن لخالتي يدٌ في الأمر بشكلٍ ما. فقد كان مَجينز المسكين مصدرَ خلاف بينهما!»

سأل الطبيب: «أتظن أنه انقلب عليها في نهاية المطاف؟»

ردَّ الشاب: «لا أظن ذلك. فقد كان كالفرخ بين يديها، وا أسفاه على ذلك الحيوان المسكين!»

أشعل سيجارة أخرى؛ وأخذَ منها أنفاسًا عميقةً بلا مقاطعة.

سأل الطبيب: «أكانت السيدة دايسون وحدَها هناك، باستثنائك؟»

أجاب بتردُّد: «حسنًا ... نعم.»

تابع الطبيب: «أيعني هذا أنها لم تكن بمفردها؟»

قال الشاب بيلي بصراحة: «صدقني، لا أعرف! قد يبدو ما سأقوله تُرهات، لكن لوهلة، ظننت أنني رأيت شخصًا يرتدي عباءةً تشبه عباءة الكاهن البيضاء. لكن لا أستطيع الجزم إلا برؤية خالتي إيسي، وكانت ترتدي منامتها، التي لم تكن بيضاء بالمناسبة.»

لم يخلد دولار إلى النوم على الإطلاق. جلس أولًا عند نافذة، يشاهد الأشجار السوداء تتحول إلى زرقاء، ثم إلى درجاتٍ متنوِّعة من الأخضر الزاهي؛ ثم سار وجلس عند النافذة الأخرى، وأخذ يحملق في مكان الحادثة القبيحة بذاتها، لكن زادها الغموض قبحًا فوق قبحها.

كلب؛ مجرد كلب، هذه المرة؛ لكنه كلب سيدة المنزل! كانت هناك رقعتان من العشب الجديد في المكان الذي ظن أن هلاك الكلب كان فيه ...

لكن من أو ما الشيء الذي رآه هذان الشابَّان؛ من هو الشخص الذي تحدَّث عنه الفريق، وكذا الفتى الصادق البعيد عن الشكوك الذي استجوبه هو بنفسه؟ لا بد أن

الجملة، «شياطين بنية ترفُل في أردية انسيابية»، ليست إلا عبارة جمالية صاغها المحارب القديم؛ ربما تحولوا إلى اللون البني في عقله المتأثِّر بثقافة الهند؛ لكن ماذا عن وصف جِم بيلي: «شخص يرتدي رداءً يشبه عباءة الكاهن البيضاء؟» أكان ذلك «الشخص» بنيًّا أيضًا؟

في غابةٍ منذرة بأسوأ الشرور، تهيأت الطيور الصغيرة المبتهجة للغناء للنائمين، عند النافذة المفتوحة. بل بلغ الأمر بطائرٍ مغرِّد منفرد إلى قول: «جميل، جميل، جميل، جميل!» بصوتٍ رقيق عذب رنَّان. لكن طلقة حادة، أُطلقت منذ يوم وليلتين، كانت الصوت الوحيد الذي عبَر عتبة نافذة غرفة الضيوف ...

كان المرحاض في الغرفة المجاورة؛ وفي ذلك المنزل المُثير للإعجاب، من الناحية المادية، كان هناك ماء ساخن يغلي في الساعة السادسة صباحًا؛ كما أعدَّ الخدَم الشاي عندما سمعوا جريان الماء؛ وكانت الحديقة قبل الفطور بهجةً للعين. ربما كانت شبيهة بجنة عدن ... بل كانت كذلك ... مع وجود شيطان يختبئ داخلَها!

فُتحت ستائر التعتيم، كما يفتح النائم جفونَه في الصباح، لتكشف عن أشجار اللبلاب الكثيفة العالية. ظلَّت الأعشاب شاحبةً تغطيها قطراتُ الندى؛ ولم تكن هناك أشعةُ شمس كافية في أي مكان، على الرغم من سطوع السماء. تجوَّل دولار داخل المنزل، وسار في المسار نفسه الذي اصطحبه فيه الفريق بالأمس. كان هذا الطريق يمرُّ من مكتبته. دائمًا ما تجذب المكتبات الاهتمامَ؛ فخزانةُ كتبِ شخصٍ ما، هي أكثرُ تشويقًا من الشخص نفسه؛ لأنها وصفٌ حي لعقله في بعض الأحيان. قضى دولار ساعة تقريبًا، في ذروة انتباهه، دون أن يُخرج مجلدًا واحدًا من مكانه. لكن هذا كان يرجع من جانب إلى أن الكتب المثيرة لفضوله كانت محفوظةً بأمانٍ في خزانة زجاجية موصدة. ويُعزى السبب من جانبٍ آخرَ إلى المشتِّتات المتوافرة المُتوِّجة للخزانة العتيقة ظاهريًّا التي احتوت الكتبَ، وقد خرج واحد من رفوفها العلوية واتخذه الفريق مكتبًا له.

كانت هذه المشتِّتات صنمًا مذهَّبًا بغيضًا على نحوٍ غير معهود، جالسَ القرفصاء ولسانه بارز من فمه كأنه يهزأ من المؤلِّف الهاوي، وسيفًا وثنيًّا معلَّقًا على الجدار خلف الصنم. لم يكن هناك المزيد؛ لكن دولار هو الآخر كان قد أمضى خدمته في الهند في فترة شبابه، وكان لديه فضول فطري وحماسة للمعرفة، عُزِّز بمعرفته المحدودة عن التراث الشعبي. كان لا يزال واقفًا فوق جريدة، على مقعد، عندما سمع صوتًا ينادي اسمه بنبرةٍ غير مرحِّبة.

قال الصوت: «ما هذا يا كابتن دولار؟! ليتني طلبت سُلَّمًا من الخدَم في أثناء تشييد هذه المكتبة!»

كان هذا بالطبع صوتَ السيدة دايسون، التي لم تكلِّف نفسها إخفاء استيائها. نزل دولار عن المقعد، معتذرًا إلى السيدة، لكنَّ اعتذاره لم يجعل وجهها الشاحب وقوامها النحيل يلين ولو قليلًا.

قال معترفًا: «ما فعلته كان تصرفًا مشينًا. لكني وقفت على الجريدة للمحافظة على المقعد. وأود أن أضيف أنني لم ألحظ أنها جريدة «فِيلد» لهذا الأسبوع.»

عَظُمَ خطأ الطبيب في عينيه، فبذل ما في وُسعه لإزالة آثار أقدامه من فوق غلاف الجريدة الخارجي وتسويتها. لكن تلكما العينين الدقيقتين، مثل بُقع الحِبر على ورق الرقِّ القديم، لم تَعُد مُنصبَّة على الطبيب المخطئ، الذي فوَّت من فوره نظرةً أخرى ربما كانت ستقدِّم له بعض العون في تحريه.

اكتفَت السيدة بأن قالت: «إن غرفة مكتب زوجي تكاد تكون حَرمًا مقدسًا، وما قَدِمْتُ إلا لأنني حَسِبتُ أنه هنا.»

حمدًا للرب أن من عادةِ الأيام ألا تمضي دومًا بنفس السوء الذي بدأت به؛ والأغرب من ذلك أن هذا اليوم تحوَّل إلى أكثرِ أيام الأحد مللًا وروتينيةً في المنازل الريفية.

أما الفريق دايسون نفسه فلم يكن ضجِرًا فحسب، بل ومتوترًا نوعًا ما، كما يليق برجل بريطاني كشف الكثيرَ عن حياته لرجلٍ غريب تمامًا في أثناء الليل. أما لباقته الفطرية التي كانت تصدُر عنه سجيةً وطبعًا فقد صارت متكلَّفة؛ وأدَّى دَور المضيِّف المتمسك بالمظاهر طوال اليوم؛ ووجد دولار نفسه مدفوعًا إلى قبول أنه، رغم قدومه بصفته طبيبًا، فقد كان ضيفًا عاديًّا، في منزلٍ يُتوقَّع فيه أن يحترم ضيوفُه قُدسيةَ يوم الأحد ويحفظوه. وهكذا توجَّهوا جميعًا إلى كنيسة القرية، حيث عزف الفريق البوق، وقرأ العِظات، وظل منتبهًا طوال الموعظة. كانت هناك مجاملاتٌ تقليدية مع أرستقراطيين متدينين آخرين في المنطقة؛ وقُدِّم لحمُ الخاصرة على الغداء كما هي عادة البريطانيين يوم الأحد، ولم يأتِ أحد على ذكرِ أي مواضيعَ حساسة يندى لها جبينُ المضيِّف أو تغضب المضيِّفة. وفي فترةِ ما بعد الظهيرة، تفقَّد الحاضرون كلُّهم جميعَ الحيوانات والخضراوات في المكان؛ وبعد احتساء الشاي، وصلت سيارة الضيف.

في الأصل، كان هناك كلامٌ كثير حول إقامة الطبيب إلى يوم الاثنين؛ وتظاهر الفريقُ بطريقةٍ تعوزها الحماسة بالضغط عليه من جديد، لكن دون أي مساندة من زوجته،

التي كانت قد راحت تتعقَّبهما مثل ظلِّهما طوال اليوم. ولم يعقِّب هو على تصرُّفها، ولو بنظرة جانبية إلى دولار، أو يحتال ليختليَ بالطبيب ويتحدث إليه مرة أخرى. أما طبيب الجريمة، فقد أظهر تلهفًا متسمًا بالحساسية للمغادرة، بدلًا من أن يتذرع بأي ذريعة للبقاء وسَبر غور هذه الأسرار الجديدة.

رأى الطبيب مسلكًا مختلفًا من جانبِ ابنِ أخت السيدة، الذي بدا في غاية الاكتئاب لرحيله، وطلب منه أن يسديَ إليه أمرين. أولهما أن يبتعدَ عن تلك الحديقةِ المسكونة في الليالي القليلة القادمة، وأن يحاول أن يذهبَ إلى فراشه مبكرًا عن عادته؛ أما الثاني، فقد كان طلبًا غريبًا على رجلٍ متمدِّن في منتصف عمره، ولكن كان مستحبًّا للشاب وفيه إطراء له. كان الطلب الثاني هو إعارته قبَّعته من طراز بنما، حتى يرى صانع القبعات الذي يتعامل معه دولار إن كان بمقدوره أن يأتيَ إليه بقبَّعة فاخرة مثلها. كانت قبعة بيلي قابلةً للطي، وتوضع في كمِّ المعطف مثل المنديل العصري؛ وأوضح له الشاب أن الفريق العجوز قد أهداها إليه.

جرَّب دولار ارتداءَ القبعة بعدما توارت «فالسوجانا» عن الأنظار، فيما تساءل سائقه الشاب عما ارتكبه من خطأ دفع سيده إلى الجلوس في المقعد الخلفي. وكان تصرفًا مضحكًا منه، في اللحظة التي كان من الممكن أن يخبره فيها الشاب عن بعض الأمور التي سمعها في منزل الحوذي. ولكن بلغ التشويق ذروته، عندما عادا إلى المدينة في تمام السابعة مساءً، وأمره الطبيب بتعبئة السيارة بالبنزين حتى يقوما بنفس الرحلة مرة أخرى.

أضاف: «لستُ بحاجة لأن أخبرك بأن تمسك عليك لسانك بشأن أي شيء ربما تكون قد سمعته في منزل الفريق دايسون. فأنا أعلم أنك ستفعل ذلك، يا ألبرت.»

في لمح البصر، انطلق الطبيب وسائقه في رحلتهما من جديد، جالسَين جنبًا إلى جنب.

لكن في «فالسوجانا» كانت ليلة أخرى من تلك الليالي الحالكةِ السواد، التي يصعب فيها على المرء أن يتلمَّس طريقه، خاصةً إذا كانت معرفته ضئيلة بالمنطقة. وللمرة الأولى شعر دولار بالغبطة لموت الكلب، وهو ينهي مسلكَه الملتوي، بالتسلُّل عبْر الأجَمة النائية، ويتجه ناحية كتل الضوء المتعرجة على نوافذ غرف النوم التي تطوِّقها أشجار اللبلاب؛ وكان الظلام سائدًا بالفعل في الطابق السفلي.

ها قد وصل إلى الأراضي العشبية الجديدة الباهتة؛ رآها للتو، وإن أحسَّ تحت قدميه بعدم تناسقها قبل أن تراها عيناه. شكَّل لهيبُ سيجارته نقطةَ الضوء الوحيدة في الحديقة

كلِّها، وإن كان كلُّ نفَس يأخذه يترك طرَف قبَّعة جِم بيلي على بُعد بوصة من عينيه، ويبسط نسيجها الفاخر كالبساط الخشن أمام عينيه. أما المقعد الذي كان جيم بيلي قد جلس عليه يُدخِّن في هذا الوقت في الليلة السابقة، وغفا فيه في الليلة قبل السابقة عندما أزعجته طلقةُ النار وأيقظته من نومه، فكان في نفس المكان الذي توقَّع أن تجده ساقاه فيه؛ وأصدر الخُوص صريرًا بينما كان جون دولار يجلس فوقه.

قلَّت حاجته لإصدار الأصوات بعدما وصل إلى المكان؛ لكنه التزم الهدوء قدْر الإمكان، مع سكون الأجواء ورطوبتها في الليل، خاصة مع عدم إحداث سكَّان الحديقة أي ضجة كالليلة السابقة. بدا كأن الطبيعة أوقفت جوقتها الموسيقية، لشعورها بالاشمئزاز من المكيدة والمكيدة المضادة، اللتين تُدَبَّران بليل في مسرحها المظلم. ألقى دولار بعُقب سيجارته بعيدًا؛ ربما بدا الأمر مثل سقوط حجر على العُشب، وكاد دولار يسمع أزيزها وسط حبَّات الندى. كانت أذناه مشحوذتين لسماع الأصوات الدقيقة الخافتة؛ فما كانت أذناه الحادتان ستفوِّتان صوت ذبابة على حافة قبَّعة بنما المتدلية ... ومن ثَمَّ كان من المستبعَد أكثرَ أن تفوِّتا وقْع أقدامٍ سريعة هادئة تلمس العشب الرطب بخفةٍ أخيرًا!

لم يكن هذا صوت وقْع أقدام فحسب؛ فقد أعقبه حفيفُ ثوب طويل ينجر على الأرض الرطبة جرًّا؛ كانت هذه الأصوات تدنو منه؛ ثم توقَّفت بغتةً. كان دولار قد خفض رأسه بتثاقل كأنه نائم؛ وحرَّك رأسه للأعلى؛ وبدا أن رأسه سينخفض مرة أخرى في نوم عميق.

تعالى الآن صوتُ وقع الأقدام وحفيف الثياب فصار كهدير الرعد. لكن حينئذٍ كانت عينا الطبيب مرتخيتَين مثل طرَف القبعة فوقهما؛ وفي نطاق الضوء الذي يتخطى حدودَ حاسته البصرية، بدا كأن عينيه تشاهدان هالةً مرعبةً حول الجسد الماثل أمامهما. كان شخصًا متدثرًا بدثار، في وضعيةٍ مفزعة، وكأنه على وشْك الهجوم. وكان قد بسط ذراعيه المغطاتين بخرقة أو شريطة راحت تلتف حولهما وتضيق مع كل خطوةٍ واسعة يخطوها؛ وبين كتفيه المستديرتين برز العنقُ الطويل والوجه الداكن للفريق دايسون.

خطا الفريق خطوةً واسعة أخيرة، قبل أن يستديرَ على عقبيه، كأنه يريد الرجوع خلف المقعد، في ذلك الحيز الضيق بينه وبين الشجرة. حفَّ ثوبُه برأسِ دولار، وهو يبسط ذراعيه بشدة، لكنهما في الواقع لم تلتفا حول عنقه؛ إذ سرعان ما خفض الطبيب رأسه واستدار للخلف، قبل أن يوجِّه بكل قوَّته لكمةً صاعدة لمهاجِمه. شعر باحتكاك يده بلحية خفيفة لم يمضِ على نموها سوى خمس عشرة ساعة، وسمع صوت اصطكاك أسنان؛ اهتزَّ العشب وهبطت كومةٌ من القماش الأبيض على الأرض في فوضى بلا حَراك.

انحنى دولار على ركبته فوق الفريق يتحسَّس نبضَه، وهو يدني مصباحًا كهربائيًّا من عينيه اللتين انفتحتا، ويسرع بوضع شيء آخرَ بالقرب من فتحتَي أنفه اللتين اتسعتا.

قال صوتٌ ليس ببعيد بنبرةٍ مرتعشة: «أوه جِم!» كان الصوت حادًّا ومنكسرًا، بل كان مثل صرخة رعب، لكنه لم يشبه أيَّ صوت كان يعرفه.

هبَّ الطبيب ليواجه زوجة الفريق.

قال: «لستُ جيم يا سيدة دايسون. إنه أنا ... الطبيب دولار. سيكون على ما يرام سريعًا!»

سألت: «أأنت كابتن ... دولار؟»

أجاب: «لا، يناديونني بالطبيب دولار هذه الأيام، وقد استدعاني دون أن تخفى عليه حقيقةُ مهنتي. والآن عُدْت على مسئوليتي الخاصة و... خدَّرته بالكلوروفورم؛ لكني لم أعطِه الكثيرَ منه؛ بحق الرب، دعينا نتحدث بصراحةٍ ما دمنا نستطيع!»

كانت جاثيةً على ركبتيها، تتأكد من صحةِ كلامه دون أن تنبِس ببنت شفة. وتراجعت بظهرها للخلف، وهي باقية على حالها، معقودة اللسان، بينما واصل هو الكلام: «أنتِ تعرفين حقيقته مثلما أعرفها يا سيدة دايسون؛ اشكري الربَّ أن طبيبًا عثر عليه قبل أن تجدَه الشرطة! فالهوس الأحادي لا يدخل في نطاق اختصاصهم، ولا اختصاصكِ أنتِ أيضًا. لقد حَمَيْتِ زوجكِ بطريقةٍ ليس بمقدور أحد إلا امرأة أن تحميَ بها رجلًا؛ آن أوانُ أن تجعليه يأتي ليتلقى العلاج على يدي.»

بدأت نبرته الواثقة تترك أثرًا عليها؛ لكنها تجاهلت اليدين اللتين كانتا ستُساعِدانها في النهوض واقفةً؛ وعقدَت يديها أمامها لكنها لم تكن تتضرَّع إلى الرب.

هتفت بشراسة: «وماذا بوسعك أن تفعل سوى أن تأخذه بعيدًا عني؟»

أجاب الطبيب: «سأجيبك عن نفسي فحسب. سأسيطر عليه، وهذا ليس في مقدورك، وسأعلِّمه كيف يتحكم في نفسه بقدْرِ ما يستطيع أي إنسان. أعمل طبيبًا نفسيًّا متخصصًا في الجريمة، يا سيدة دايسون، كما كان زوجكِ يعرف، قبل أن يأتيَ لاستشارتي بدعاوى كاذبة متقنة لا داعيَ للخوض فيها. ووثق بي بما يكفي لدعوتي إلى هنا؛ وأظن أنه كان يتلمَّس طريقه، ليرى ما إذا كان يمكنه الثقةُ بي ثقةً تامة، في مواجهة هوسه الأحادي المريع، لكنه الليلة الماضية أعطاني معلوماتٍ أكثرَ مما أراد؛ لذا ما كان لينطق بكلمة اليوم. لم أخمِّن سرَّه إلا هذا الصباح، عندما ارتبتِ في أنني فعلت! ثقي أن سرَّه سيكون في أمانٍ معي. لكن كيف أتحمَّل مسئولية الحفاظ على سرِّه إن بقي منفلتًا كما هو حاله الآن؟»

قالت السيدة ديسون: «لا تستطيع. أنا الوحيدة التي يمكنها ذلك.»

كانت نبرتُها حالمة، لكنها قاسية وقاطعة في الوقت نفسه؛ وكانت ذراعاها، في أكمام منامتها الواسعة، لا تزالان معقودتين بشدة. شيءٌ ما دفع دولار إلى الاقتراب من الرجل الفاقدِ الوعي والانحناء فوقه بانتباه شديد.

واصل الطبيب: «سيعود مباشرةً إلى حالته المعتادة، أو تقريبًا إلى حالته المعتادة، ولا أشكُّ في ذلك! ربما نسي ما قد حدث؛ يجب ألا يجدني هنا حتى لا يتذكر. هناك شيء واحد يجب أن يعرفه، وأنتِ من ستحملينه إليه، ثم تقنعينه بالمجيء إليَّ. لكنك لن تجدي ذلك سهلًا، يا سيدة دايسون، لو أدرك أنني خدعته. من الأفضل أن يظن أن من رآه هو ابن أختك. تقبع سيارتي في الممر الموجود خلف هذه الأشجار؛ دعيه يظن أنني لم أغادر على الإطلاق، وأننا تآمرنا سويًّا، وأنني تركت نفسي تحت إمرتكِ. سيصدِّق ذلك بعدما حدث، أليس كذلك؟ سأنتظر بكل شوق لمعرفة الجواب!»

قالت السيدة دايسون، بعدما نهضت من مكانها دون مساعدة، ودفعته ناحيةَ الأشجار: «قد تعرف الجانب الأسوأ لزوجي المسكين أو لا تعرفه، لكنك ستعرف جانبي الأسوأ الآن. آمُل أن تأخذ هذا المسدس وتحتفظ به! لقد نجوت بحياتك مرتين الليلة.»

خلَّصت رُسغها من المسدس البالغ الصِّغر المتدلي؛ فتحسَّس الطبيب المسدس، وسط الظلام، وتركه يتدلى.

هتف دولار بعد أن فهِم المرأة في نهاية المطاف: «سمعت أنكِ تملكين مسدسًا. فقد أخبرني زوجك. ظننت أنك تحملينه لحمايتك الشخصية!»

أجابت: «لا. لم يكن لهذا الغرض»، وعرف الطبيب أنها كانت تتبسَّم وسط دموعها. أضافت: «لقد أنقذتُ حياته — عندما أنقذ كلبي المسكين حياةَ جيم — لكني حملت هذا المسدس للحفاظ على السر الذي سأستأمنك عليه!»

لم يسَع دولار سوى أن يتناول يدَها في يده. وقال لها بنبرة مطمئنة: «ما كنتِ ستطلقين النار عليَّ أو على أي رجل غيري.» وتابع، محدِّثًا نفسه وهو يسير وسط الأشجار: «لكن، يا لحماقتي، كيف أنسى «أنهم» ما قتلوا نساءً قط!»

صارت الأجواء شبه باردة بجوار السيارة في الممر؛ لذا أعطى الطبيب سائقه القليلَ من البراندي، وراحا يتمشيان معًا، في الساعات الأولى من الصباح، ويتجاذبان أطرافَ الحديث عن الرياضة والروايات. انسلَّت النجوم متواريةً عن صفحة السماء، وبدأت الطيور تزقزق وتغرد، وصاح نفس الصوت الساخر: «جميل، جميل، جميل!» بأعلى نبرة رنانة.

وأخيرًا، بعد وقت طويل، أتى الصوت الآخر، الذي كان دولار ينتظره بفارغ الصبر. ثم استدار عائدًا إلى الغابة المسكونة مع جيم بيلي.

تحدَّث ابن الأخت المسكين — الذي كان لا يزال هادئًا من صدمته — بفصاحة تقطُر ألمًا مثل زوج شاب فقدَ زوجته. تحدَّث عن الفريق دايسون كأنه ميت، واستخدم ألطفَ الكلمات في صيغة الزمان الماضي. كان الفتى يعتبره ميتًا. اعترف الفتى اعترافًا مروعًا، ألقاه فيما بدا بنفس القدْر من البرود الذي كرَّره به بيلي على مسامعه.

قال: «ظن أنني طرحته أرضًا، واضطُررت ألا أصحِّحَ خطأ ظنَّه! أصرَّت خالتي إيسي على ذلك؛ إنها امرأة عجيبة على أي حال! جعله هذا يخبرني بأمورٍ أجد صعوبةً في تصديقها ... لكنه أراني حبلًا مثل ذلك الحبل تمامًا ... كان قد جهَّزه لقتلي!»

سأل الطبيب: «أتقصد الحبل الذي شنق به البستاني نفسه؟»

أجاب: «أجل. هو من شنقه، وأقَسَمَ على ذلك ... لاحقًا. سيخبرك بذلك بنفسه ... يريد أن يخبرك. يقول إنه أولًا ... لا أستطيع أن أنطِق بالكلمة!» وأظهرت زلةُ لسانه، باستخدام الزمن المضارع، أنه لا يزال متأثرًا عاطفيًّا بالموقف.

قال الطبيب: «مثل الخناقين؟»

ردَّ بيلي: «أجل، مثل تلك الطائفة من المتعصبين المتوحشين الذين كانوا يشنقون من يجدونه في طريقهم! «هؤلاء» من تحدَّث عنهم في كتابه. كيف عرفت؟»

قال: «من صنم «بهافاني» — إلهة هذه الطائفة — القابعِ أعلى خزانته، بالإضافة إلى أن لديه «مذكرات سْلِيمان» وغيرها من الأدبيات المروعة في الأرفف التحتية المُقفلة. إن العكوف على دراسة هذه الأمور في حياةٍ صارت فجأةً فارغة، وفي مثل هذا المكان النائي المنعزل، كفيلٌ بإصابة أي أحد بجنون مؤقت. وعندما يضل رجلٌ قوي الطريقَ يتمادى ويفعل أمورًا مروعةً لا يعدو بقيتنا عن أن يفكروا فيها ولكن لا يفعلونها أبدًا!»

أطبق بيلي على عُضد دولار بشدة، ووقف الاثنان بلا حَراك وسط أغاريد الطيور الرنَّانة المبتهجة فيما انطوى على مفارقة.

سأل الشاب بصوتٍ متهدِّج: «أتقول إن جنونه مؤقت؟ «مؤقت» فحسب؟»

قال الطبيب بصوتٍ مرتجف مشفق: «هذا ما آمله، بكل صدق. كما ترى، بسبب هذه النقطة تحديدًا ... ورغم ما هو فيه ... أعتقد أنه أراد بالفعل أن يبعِد زوجته عن طريقه، ولأجل سلامتها أيضًا!»

قال الشاب: «لكن أتعرف ما يقول؟ إنه ينوي إخبارَ العالم بأسرِه، ويتركهم يشنقونه، ويُنْزِلون به ما يستحق من العِقاب؛ هذا ما يقوله! وهو الآن بكامل قواه العقلية مثلنا تمامًا، باستثناء أنه يبدو أهدأ وأكثر استرخاءً!»

هتف دولار وهو ينظر إلى السماء المشرقة: «هذه علامات إضافية على جنونه المؤقت! لكننا لن نسمح بذلك. لن يصلِح ذلك ما أفسده، كما أنه فعل كلَّ ما في وُسعه للتعويض عن أفعاله وعما تسبَّب فيه من ضرر.»

«... هيَّا يا بيلي! أريد أن أعود به بسيارتي. لقد انبلج الصبح.»

الفصل السابع

مساعد الطبيب

كان الطبيب يتناول وجبةَ الأحد بضجر، عندما تعالى رنينُ الهاتف في الغرفة المجاورة. دائمًا ما كانت هذه الاستدعاءات الملحَّة تُشعِره بالإثارة والترقُّب؛ وفي عينيه، تصبح سماعةُ الهاتف، التي على هيئة زهرة توليب، شيئًا نابضًا بالحياة، يهتف طلبًا للمساعدة؛ ولا يجد بأسًا في إجابة ندائها بنفسه، في أي وقت من الليل أو النهار. ويكون ذلك ضروريًّا في الليل؛ إذ يكون آل بارتون نائمين في قبو المنزل كالموتى، لكن لا يختلف الأمر على الإطلاق في أثناء تأديتهم مهامَّهم، كما هو الحال في اللحظة الراهنة. أعاد مقعده الكروموبلي إلى الوراء، حيث كان على رأس طاولة ذات مسندٍ وحيدة عارية. كان المتحدِّث المتحمس، الذي بدا قريبًا رغم بُعده المكاني، لا يقبل إلا الردود الموجزة السريعة. وعاد دولار إلى وجبته الموضوعة أمامه بشهية كبيرة.

وقال: «أرسِل بوبي إلى المرأب، يا بارتون، ليطلب السيارةَ على الفور. دعه يخبر ألبرت أنني سأكون مستعدًّا للخروج بمجرد قدومه، لكن عليه إحضار مصباحيه الأماميين ويملأ السيارة بالوقود.» وكرَّر أوامره بصرامة أبوية مستترة. وأضاف: «والآن، يا بارتون، أحضِر دليلَ الطريق الأحمرَ الصغير، وابحث عن «باكس مونكتونز» في براري مقاطعة سُري. لا يمكن أن تكون سوى قرية صغيرة. جرِّب البحثَ عن قرية كوبام إن لم تجدها في الفهرس.»

تطلَّب هذا جهدًا أكبرَ ... تطلَّب خريطةَ مسح تفصيلية وعيني الطبيب مع عيني بارتون، قبل أن يعثرا على «باكس مونكتونز تشيس» مطبوعة طباعةً مجهرية، وكانت هناك بعض النقاط متخللة للون الأخضر الفاتح، في إشارة إلى وجود أشجار على ارتفاع ثلاثمائة قدم فوق مستوى سطح البحر.

قال دولار، وهو يعقِد رباط حذائه البني، قبل احتسائه القهوة: «لم أسمع بها من قبل، ولا بالرجل، ولا اسمه المُرَكَّب. تحقَّق من ديل-بولمر في دليل الأعلام.»

ولكن، مرةً أخرى، لم تفلح محاولاتُ بارتون؛ حينها صرَفه الطبيب رغم أن إخفاقه لم يكن خطأه ولا ناجمًا عن افتقاره للحماسة غير الأنانية لخوض واحدة من المغامرات المحتملة، التي كان يكره السائق لاشتراكه الدائم فيها، ويلعن الواجبات التي أبعدت الآخرين عنها.

سأل: «هل ستأخذ قنِّينتك، يا سيدي؟»

أجاب: «لا، بالطبع! فلن أذهب إلى القطب الشمالي.»

قال: «ولا ... ولا أحد تلك المسدسات، يا سيدي؟»

أجاب: «وما فائدته بحق السماء؟ كما أن هذه المسدسات ليست ملكي؛ مكانها الذي يجب أن تكون فيه هو المتحف الأسود في سكوتلاند يارد.» كانت نواةَ متحف فرعي آخذة في التشكُّل في شارع ويلبك. تابع: «كُفَّ عن الاستياء يا بارتون! لن أفعل شيئًا سوى زيارة رجل متلهف لرؤيتي على ما يبدو، لكن ما كنت لأذهب إليه لو كان لدينا أيُّ مرضَى في الطابق العلوي. يمكن لثلاثتكم الاستمتاع بوقت الظهيرة أينما تريدون؛ ولا تتعجلوا بالرجوع قبل عودتي؛ اذهبوا واستمتعوا بأوقاتكم.»

وانطلق في طريقه كأنه ذاهب في رحلةٍ ترفيهية مدروسة؛ لكن ضحكة عفوية خافتة في الصوت عبْر الهاتف، والتلميح إلى وجودِ مفاجأة، واحتمال وجود خُدعة ما، كل ذلك جعله يُعمِل فِكره بعد ركودٍ طال على مدار أيام الصيف الخانقة الحرارة؛ إذ بدا له أن وقتَ الظهيرة العليل في شهر سبتمبر مُعَدٌّ خصوصًا للتنزه بالسيارة لمن يملك فسحةً من الوقت. كان هذا ما أخذ دولار يفكر فيه عندما تلقى هذا الاتصال؛ أن ما يحتاجه هو هدفٌ ما لإضفاء إثارة على نزهته الترفيهية، وبقية التفاصيل تأتي لاحقًا. ولا تهم عبثية النهاية أو المهمة ما دامت الوسيلة والرحلة نفسها ستؤديان إلى استمتاعه باليوم.

كان الطقس دافئًا، لكنه كان منعشًا للروح، والسيارة تسير بسرعةِ ثلاثين ميلًا في الساعة؛ كما كان صافيًا جليًّا، وضبابٌ خفيف لا يعكِّر صفوَه يلوح من بعيد؛ وغلب على الأشجار اللونُ البرونزي الذي لا يكاد يتحول إلى الأحمر قبل أوانه، وفي كثيرٍ من الأحيان يتحول إلى الخضرة الزاهية التي يتَّسم بها منتصف الصيف؛ لكن على طول الطريق كانت هناك مسحة خريفية فضية في أشعة الشمس. وهكذا انقسم ذهن دولار بين التلذُّذ الحسي بهذه اللوحة الفنية الريفية البديعة، والتخمينات الحالمة نوعًا ما بشأن القضية

التي تنتظره. كانت أفكار بعض الأشخاص حول مهامِّ طبيب الجريمة أكثرَ توسعًا بكثير حتى من أفكاره هو نفسه؛ ففي غالبية الأوقات لا يسَعه الذهاب إلى مكانٍ بعيد دون أن يخوض ذلك الحديث البغيض بشأن تحديد قيمة أتعابه مسبقًا.

هذه الظهيرة كان مستعدًّا لفعل أي شيء تقريبًا بلا مقابل يُذكر؛ وبعد عشرين ميلًا قضاها في الجلوس، وقف على قدميه بشكلٍ متكرر في الميلين أو الأميال الثلاثة التالية، يسأل عن الطريق في النُّزل المُحتملة، أو الجماعات المارة من الفلاحين الحليقي اللحية، الذين يرتَدُون أفضلَ ثيابهم ليوم الأحد ويدخنون السجائر.

في نهاية المطاف، قال شخصٌ بدا أنه قد سمع باسم القرية من قبل: «باكس مونكتونز تشيس؟ امضِ إلى الأمام بقدْر ما تستطيع، وستجده أول نُزل على الجانب الأيسر. لكن لا أحد هناك.»

كرَّر الطبيب كلامه: «لا أحدَ هناك! أتقصد أن النُّزل خاوٍ من الناس؟»

قال: «أقصد أنك ستجد عمالًا هناك خلال أيام العمل الرسمية، لكنك لن تجد أيَّ أحد اليوم، إلا إذا ذهب المالك الذي اشتراه بسيارته إلى هناك.»

قال الطبيب: «ألا يعيش المالك هناك؟»

أجاب: «ليس بعدُ؛ فالنُّزل خاضع لإصلاحات وتغييرات في الوقت الحالي؛ لا أعلم أين يعيش، بل لا أعرف شيئًا عنه، سوى أنه يذهب بسيارته إلى هناك أيام الأحد.»

شعر دولار بالإحباط، حتى تذكَّر أن يستمتع بأحد الاحتمالات الضئيلة التي لم يأتِ مستعدًّا لها على الإطلاق. هذه المفاجأة المبكِّرة وغير المتوقَّعة على الإطلاق منحته بعضَ الأمل. لكنها أفقدت باكس مونكتونز تشيس أثرَه المرغوب عندما عثَر الطبيب عليه. وسلبت النُّزل الكئيب قيمتَه من حيث كونه مكانًا مثيرًا للفضول؛ فبدا مكانًا فسيحًا ومعزولًا بلا فائدة، واستراحة حجرية موسمية فاخرة لكنها مجرد أبراج باهتة وشرفات مهجورة مُفرَّجة شاهقة في خلفية من سماء فضية، حيث توقفت الشمس عن البريق في الميل المتعرج الأخير.

كان مما يبعث على السرور رؤيةُ رجلٍ ملتحٍ ودود متورِّد الخدين، ويضع ربطة عنق مُنقَّطة مُلتفة مرتين حول عنقه الكبير البالغ قطره تسع عشرة بوصة، وعلى شفتيه ابتسامةٌ مُرحبة، وهو واقف تحت القوس الموجودة عند المدخل. عرَّف الرجل نفسه باسم ديل-بولمر، وهو اسم مُرَكَّب طويل صِيغ على نحوٍ يجعل من السهل على اللسان نطقه. افتُتِن دولار بطرافة وبساطة خطابه وسلوكه. كان هناك سائق أنيق ينتظر بجوار سيارة

من سيارات الأثرياء على ممر السيارات. وباستثناء ذلك لم تكن هناك علامات حياة أخرى في أرجاء المكان.

قال ديل-بولمر بنبرةٍ دافئة معتذرة: «سررت كثيرًا بقدومك. توقَّعت مجيئك، مما سمعته عنك، كما أنك أظهرت تحمسًا لدعوتي عندما هاتفتك. لم ألقَ شخصًا يتكرَّم بالقيام برحلة منذ أن غادرت الأدغال.»

سأل الطبيب بتعجُّلِ الأطباء المألوف لبدء المحادثة وإن كان متشوقًا للغاية لمعرفة سرِّ استدعائه: «أنت أسترالي؟»

أجاب الرجل: «نعم! أنا قادم من هذه البلاد المستنيرة، حيث يسيطر حزبُ العمال على زمام الأمور وتمتلك النساء حقَّ التصويت. في الحقيقة ...» وأضاف الرجل الضخم بضحكة كبيرة كالتي أطلقها عبْر الهاتف: «هذا سببُ قدومي من أستراليا، كما أعلنت كالأحمق في لقاء في هذه الأنحاء أول من أمس. لكن يبدو أنني كنت كالمستجير من الرَّمْضاء بالنار.»

علَّق دولار بنبرة حليمة مهذَّبة: «يؤسفني سماع ذلك.»

قال ديل-بولمر: «في الواقع، ليس الأمر كذلك بالضبط»، وضحك ضحكته تلك بعنقه الضخمة مرة أخرى. ثم قال: «تفضَّل إلى الداخل، وسترى بنفسك.» قاد الطبيب إلى ممرٍّ مركزي رحْب مكتظ بالسلالم الخشبية ومعدَّات البنائين، والمواسير والأنابيب، وأعمدة الستائر، وكومة من الألواح؛ لكن كان هناك ثمَّة نظام بالمكان مقارنةً بالفوضى التي كان بوسع المرء رؤيتها عبْر الباب المفتوح الذي وقف على عتبته. كانت هناك روافد عارية لا تجعل من السهل التحرُّك على الأرضية، والعديد من السقَّالات المنصوبة تمتد من الأرضية إلى السقف الجصي المتقاطع. قال الرجل الأسترالي: «انظر هنا!» وهو يشير إلى كومةٍ من الشَّعر المحلوق على الجزء الفارغ المتبقي من الأرضية.

تنهَّد دولار، وهو يهزُّ رأسه بطريقة متكلفة؛ إذ تبعثر صندوق أعواد ثقاب في الأرجاء: «يا له من دنيء مهمل، العامل البريطاني.»

هتف الآخر بجرأة: «لا بد من شنق العامل البريطاني! فلديه عملٌ هنا سيزوده بالجِعَة وأموال للقمار حتى عيد الميلاد المجيد وبعده حسب قدراته في إدارة الأمر. هذه تسليةٌ من نوعٍ آخر— تتوق المرأة البريطانية إلى الحصول على حق التصويت في الانتخابات!»

سأل دولار، وإن كان أراد أن يسأل إن كان هناك المزيد: «حسنًا! ولكن هل أنت متأكد؟»

أجاب الرجل: «قطعًا. لقد قابلت بعضهن، على الدرَّاجات، خارج حدود أرضي مباشرة. هذا ما أستحق الحصول عليه لقاء الدفاع عن حقوقهن أول من أمس.»

قال الطبيب: «لا أرى نشراتهن ولا أشم رائحة الكيروسين.»

ردَّ الرجل: «ستجده في تلك الزجاجة على رف الموقد. لا بد أن شيئًا ما قد أثار رعبَهن في اللحظة الأخيرة، باستثناء امرأة واحدة.»

سأل الطبيب: «ماذا عنها؟»

قال ديل-بولمر بإثارة جادة: «لقد أمسكتُ بها.»

قال الطبيب: «هل أرسلتها إلى السِّجن؟»

أجاب: «هذا ما يجب أن يحدُث! لقد قبضت عليها وهي تحاول إضرامَ النار في كومة الشَّعر المحلوق، وليس لديَّ خرطوم مياه واحد في المنزل! أعواد الثقاب المبعثرة على الأرضية تلك مِلْكها؛ كانت عازمة على تنفيذ مهمَّتها قبل مغادرة المكان ولم تتوقف حتى أمسكت بها متلبِّسة! فلا تنتظر مني أن أسمح لها بمغادرة المكان كأن شيئًا لم يكن!»

لم يسَع دولار سوى التحديق في الوجه المرِح المجعَّد بسبب الابتسامة التي كشفت عنها وجنتاه المتوردتان، لكنه لم يعُد خاليًا من القلق ووخز الضمير الجادَّين الممتزجَين بالفكاهة.

قال دولار: «لكن، يا سيدي العزيز ...»

قاطعه الرجل متوسلًا: «لا تنتقدني! كان لا بد أن أفعل شيئًا؛ لو لم تخطر ببالي، وبعض الأشياء الطيبة التي سمعتها عنك، أيها الطبيب، لكنتُ هاتفت الشرطة؛ لكن ما جدوى وضْع هؤلاء الشابات في السِّجن، ليُفرج عنهن في غضون أسبوع؟ سمعتُ أنك تدير دارَ رعاية للمجرمين، أفضل من كل سجون العالم.»

ردَّ الطبيب: «لكنني لا أجبر الناس على دخولها؛ لا بد أن يأتوا إليها بإرادتهم الحرة. ماذا فعلتَ مع هذه الشابة؟»

أجاب الرجل: «أنا؟ لا شيء؛ ما حدث هو صنيع يديها تمامًا. لقد اختبأت؛ ولم أفعل سوى أن أغلقت الباب بالمفتاح.»

سأل الطبيب: «هل حبسْتَها في غرفة من الغرف؟»

أجاب: «نعم، بشكلٍ أو بآخر، حبستُها.»

وضحك ديل-بولمر ضحكةً مذنبة متوترة نوعًا ما.

سأل الطبيب: «مكانٌ ما بالأعلى؟»

أجاب: «أجل، انظر هنا! كانت تلتقط أعوادَ الثقاب تلك، عندما لمحتها من هذا الباب، فلاذت بالفرار عبْر هذا الباب هناك. تعالَ وانظر إلى المسار الذي سلكته أثناء محاولتها الهرب، أيها الطبيب.»

أدَّى مسار هروبها إلى حجرة انتظار أو صالة داخلية أو حجرة بئر لدَرَجٍ قيد البناء، يرتفع من وسطها سلَّم طويل من الأحبال، لكنه لا يصل إلى بسطة الدَّرج الهيكلية للروافد ذات الفُرَج. رفع ديل-بولمر بصره عاليًا، وهو يهزُّ لحيته العريضة.

سأل الطبيب: «لم تصعد إلى هناك بالطبع، أليس كذلك؟»

أجاب: «بل صعدت مثل مُشعِّل مصابيح الشوارع أيها الطبيب! ذهبتُ من الطريق الذي نوشك على أن نسلكه سويًّا الآن، إن كنت لا تمانع.»

حملهما دَرَجٌ متشعبٌ رفيعٌ من الممر السفلي إلى نظيره العلوي. وهناك بدأ القائد يسير بتمهُّل، وهو يضع إصبعًا على شفتيه.

قال هامسًا وهو يشير إلى بابٍ مغلق في ممر جانبي: «تلك هي الغرفة. أظن ... أظن أنني سأدعك تتعامل معها أيها الطبيب. هو ليس مغلقًا — أعني أنني لم أغلق الباب.»

سأل الطبيب: «ظننتُ أنها سجينتك، أليست كذلك؟»

أجاب: «بلى، لكنك سترى المكان الذي هي مختبئة فيه. لقد أدرتُ «ذلك» المفتاح، أيها الطبيب، ولكن ذلك كلُّ ما فعلته. لكني أُفَضِّل أن تُخرجها بنفسك.»

كان شعوره الغريب بالذنب بعيدًا كلَّ البُعد عن الفكاهة؛ فقد بدا خجِلًا للغاية من التدابير التي اتخذها بلا تفكير، كأنه تشكَّك كثيرًا فيما إذا كان يمكن اعتبار أفعاله شُجاعةً أو شريفة، وغشيه استحياءٌ من الانتقادات غير المنطوقة للرجل الذي أحضره من أقاصي الأرض في لحظةٍ من لحظات الاضطراب. لكن الحقيقة هي أن دولار لم يلُمْه على الإطلاق، وهو يدير مقبضَ الباب برفق، ويسمع وقْع خطوة فزعة تتراجع في الممر.

كانت الغرفة جيدةَ الإضاءة، مرتفعة السقف، ذات مشربية واسعة تُطِل على الحديقة؛ وفي الركن كان هناك مقعدٌ تحته صندوق خزانة، كان قد فُتح عَنوة؛ ومن الشظايا نهضت امرأة شابة، كما نهضت أفروديت من زَبد البحر، ويداها مرفوعتان إلى شعرها الأشعث، الذي قبَعت فوقه قبَّعة مائلة على ثياب قروية متسخة. كانت تتطلع من النافذة، بينما كانت تحاول إصلاح مظهرها الأشعث؛ لكن عندما انفتح الباب، استدارت وعلى وجهها تعبيرٌ يحمل مسحة احتقار خفيفة، ووقف الاثنان متجمدَين في مكانهما.

أفلتت منه شهقة رغمًا عنه، وهو يقول: «ليدي ... فيرا!»

أحنت رأسَها انحناءةً بسيطةً مباغِتة؛ قبل أن يعود رأسها إلى نفس الزاوية الحادة التي اقتضتها القبَّعة المصنوعة من الموسلين، التي ارتداها بهدفِ إخفاء وجهها؛ وكانت عيناها تحت حافة القبَّعة مثل قطرات مطرٍ زرقاء كبيرة، يمتزج فيهما العبوس والفضول، لكن لم يكن بهما أيٌّ من ذلك الذهول المرتسم على ملامح الطبيب سوى القليل، ولا ذرة من الخجل الذي عصف بروحه.

تمتم كأنه يوجِّه الكلام لنفسه لا إليها: «لا عجب في أنكِ لم ترغبي في رؤيتي قَط! لم تجيبي ولو حتى بكلمة على رسائلي عندما كتبتُ إليكِ، ولم أفتُر أسأل نفسي عما فعلتُه! فكَّرت في كثير من الأسباب، لكن لم يخطُر هذا ببالي مطلقًا!»

هزَّت رأسَها بحركة مفاجِئة مثلما أحنتها له؛ وبدت عيناها الزرقاوان متجمدتين في مكانهما، لكن انفرجت الشفتان الصارمتان باندفاع. هيَّأه حَدْسه لحدوث شيء يفوق التصوُّر. لكنَّ ضبْطَها لنفسها كان درسًا له وتوبيخًا؛ وآخذًا هذا في الاعتبار ومنصتًا إلى ما لديها من كلام، توقَّف في اللحظة الراهنة عن التساؤل عما كانت تخفيه عنه، وما التهمة التي أجَّلت توجُّهها إليه.

قالت بنبرةِ صوتٍ لا تختلف عن تلك اللي استخدمتها في حالات الطوارئ الأخرى لكنها فقط كانت أبردَ نسبيًّا: «أخبِرني شيئًا واحدًا أيها الطبيب. هل كنت تلاحقني أم إن هذا من قبيل المصادفة المحضة؟»

أجاب: «ليست المصادفة وإنما القدَر!»

سألت: «هل لاحقتني إلى هنا، أم لا؟»

قال: «لم أفعل ذلك عن قصد. هل يبدو لكِ أنني كنت ألاحقكِ؟»

قالت بينما التمعت عيناها الزرقاوان الواسعتان فجأة: «تبدو كأنك رأيتَ شبحًا.»

هتف بحماسة فيَّاضة: «وقد فعلت! رأيتُ شبح كلِّ شيء تشبثتُ ...»

قالت بهدوء: «شكرًا لك»، بينما حاول هو أن يتمالك نفسَه احتذاءً بها. وأضافت: «أعرف ما الذي لا بد أنه يدور بخَلَدك ... ما الذي تمتلك حقًّا خالصًا في التفكير فيه ... بعد مرور سنتين. لكن آمُل أن يمنعك كرَم أخلاقك من التفوه به! فهذا الوضع ليس مسلِّيًا مطلقًا لي، كما تعرف، ولا سيما بعدما دُفنتُ حيةً لساعات!» أدارت رأسها نحو المقعد المكسور عند النافذة، وتأمَّلت عيناه بنهمٍ جانبَ وجهها عندما سقط الضوءُ عليه. وسألت: «ماذا سيحدث لي؟ هل عدوِّي اللدود صديقك؟ هل أرسل في طلب الشرطة؟»

أجاب: «لا، لقد استدعاني بدلًا من ذلك.»

سألت: «هل تعرَّف عليَّ من فوره؟»

هتف الطبيب بقوة: «لم يتعرَّف عليكِ سابقًا، ولا الآن، ولن يتعرف عليكِ أبدًا في المستقبل إلا إذا تطوعتِ بإخباره بنفسكِ! يا إلهي، يا فيرا، في الوقت الذي كنت أتوق فيه إلى رؤيتكِ، لتحذيركِ من أعدائكِ، أجِدُكِ واقعةً في قبضتهم أكثرَ من أي وقت مضى!»

التمعت عيناها تحت القبَّعة، في نظرة توبيخية غير واعية؛ إذ رفع الكلفةَ على غيرِ وعي منه؛ لكن هذا الرجل هو نفسه الذي توسَّل إليها في الماضي للموافقة على الزواج به، وعبَّرت هي عن رغبتها في ذلك لولا ذلك الثِّقل الجاثم على روحها. لكن الرسميات بينهما، على الأقل، كانت شيئًا انقضى منذ زمن. أكان وقوعها في المتاعب هو فحسب سببَ الحاجز القائم بينهما في الأشهر الأخيرة؟ انهمك في محاولة إجابة هذا السؤال عندما قاطعت أفكاره بسؤال من أسئلتها.

سألت: «من هم الأعداء الذين تقصدهم أيها الطبيب دولار؟»

ردَّ: «لن نتحدَّث عن العامين الماضيَين.»

قالت برعدةٍ كامرأة تحترم القانون: «كروتشر! لم أسمَع عنه منذ تلك الليلة في القطار.»

ردَّ الطبيب: «قلتُ لكِ إنك لن تريه مجددًا، لكني قلت أيضًا، إن كنتِ تتذكرين، إن كروتشر مثل آلة فتاكة. حسنًا، لقد وقع في قبضةِ من هو أشدُّ منه فتكًا، حسب معرفتي، وانتهى الأمر.»

لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، وكانت الليدي فيرا تعلم بذلك. لم تَعُد زاوية قبَّعتها جذابةً الآن، والتمعت عيناها، بعد أن انجلت عنهما حافةُ القبعة، التماعًا أخَفَّ تألقًا جعلها تبدو مذهلةً فجأة في تجسُّدها الأخير. ظهرت مشاعرُ دولار على ملامحه من جديد؛ وقرأتها السيدة بابتسامة، أصابته بانقباض؛ إذ كانت شبيهة على نحو تهكمي بتلك الابتسامات التي لا تزال تغذي أحلامه.

قالت بنبرة تخمينية: «أتظنني سيئةً مثل أي واحدة منهن.»

ردَّ الطبيب بقوة، في دفاعٍ مستميت غريب أمام ذلك الجسد الضئيل، كأنه الجاني وهي القاضي: «أظن أن جريمةَ الإحراق المتعمَّد أسوأ من معظم الجرائم. وليس هناك عذرٌ لارتكابها على الإطلاق. ليتكِ متِّ، منذ عامين، بدلًا من أن ينحدِر بكِ الحال إلى هذا الحد!»

سمع وقْع خطوات خلفه، فخفض صوته؛ لكن الليدي فيرا رفعت صوتها، في الوقت الذي توقَّف فيه جسدٌ ضخمُ الجثة على عتبة الباب في إحراج؛ وتحدَّثت بنبرةٍ جديدة غير مألوفة.

قالت بنبرةٍ خطابية: «منذ عامين لم يكن السيدات يتلقَّين معاملةً بالغة السوء كهذه. ثم أتت هذه الحكومة البائسة ...»

انتهرها ديل-بلومر نافضًا عنه خجلَه بقوة ليصبح محطَّ الأنظار: «اسمعي!»

كرَّرت كلامها ليسمعه: «منذ عامين لم تكن الحرب على أوجهها! أما الآن فإننا أمام حرب مستعِرة، وحيث إنه لا أحدَ يُعلي من صوت الحكمة، فلا سبيل سوى الدمار!»

هتف الرجل المتطرِّف بغضبٍ جامح: «أتظنين أنه يمكنكِ شقُّ طريقكِ إلى السياسة من خلال الحرائق؟»

ردَّت: «كلُّ ما نريده هو المشاركة السياسية.»

قال الرجل: «هذا أولُ مطلب والبقية تأتي! أعرف طينتَكم! فقد أتيتُ من بلد، بدأت فيه الاحتجاجات بنفس الطريقة!»

قالت الليدي فيرا بتنهيدةٍ قصيرة غاضبة: «كما أخبرتَ الحاضرين أول من أمس، إن كنتُ أتحدَّث إلى السيد ديل-بولمر.»

أجاب: «هذا أنا؛ ولهذا كاد منزلي يُحرق عن بكرةِ أبيه؛ وأنتن، يا سيدات، تحسبن أن هذه هي الطريقة المُثلى لطرح قضيتكن وإثبات قيمتكن للدولة! حسنًا، أظن أنكنَّ تدركن ما تفعلن أفضلَ من أي شخص آخرَ؛ لذا لا جدوى من محاولة التحدُّث معكن بالمنطق؛ لكن حقًّا ما حدث كافٍ لإثارة غضب أي أحد، ولا سيما بعدما قبضت عليكِ بالجُرم المشهود بالطابق الأرضي.»

هتفت الليدي فيرا ببساطة شديدة غير عادية: «ليتك لم تقبض عليَّ.»

لكن لم يتناقش معها أحد؛ إذ اكتفى الطبيب بهزِّ رأسه في يأس مهني، بينما استعاد صاحب المنزل الجريح هدوءه، وبدت المجرمة الصغيرة كأنها تحاول ألا تبدوَ المسيطرة على الموقف.

تابع ديل-بولمر كشخص لا يحقُّ له الحديث في الغرفة: «ما جئت إلا لأقول إنه عُثر على سيارة صغيرة مكشوفة في الفِناء خلف أحد الأكواخ الفارغة. وحسب معرفتي بأن صديقاتك كنَّ يركبن الدرَّاجات، خطر لي أنها قد تكون سيارتكِ، أليس كذلك؟»

أكان من طبيعة الرجل فحسب أن يغيِّر أسلوبَه كلَّه في لحظة، أم كان للمرأة الماثلة أمامه علاقة بهذا؟ بدا هو نفسه غيرَ واعٍ للتغيير الذي حلَّ عليه، وغير منتبِه لعودته إلى نبرته المتفهِّمة الودودة القريبة للاعتذار. لكن كشفت زاويتا فمها الصغير المتمرد أنه ما من شيء يغيب عن ملاحظة الليدي فيرا.

اعترفت بمرح غير لائق: «يبدو أنها سيارتي. لكن لا تقل لي إنكَ تشكُّ في احتمال اختباء امرأة أخرى في منزلك لأن السيارة يمكن أن تُقِلَّ فردين، أم إنك تشكُّ في ذلك؟ لقد قدِمْت إلى هنا وحدي، بالسيارة التي عثرْت عليها. ولا أدري من سيقودها عائدًا إلى المدينة!»

نظر ديل-بولمر إلى دولار بتحدٍّ، وبرقت عيناه.

هتف: «أنا أعرف. أنتِ!»

هتفت: «أنا يا سيد ديل-بولمر؟ والأغلال في يدي؟»

كانت الابتسامة التي بدت على وجهها، والتي حاولت كبْتَها، ابتسامةَ امتنان وتقدير لتصرفه النبيل الخجول.

قال بخشونة: «لا تتفوهي بالهراء! سيارتكِ تنتظركِ عند الباب.»

قالت: «حقًّا؟»

أجاب: «بالطبع! فقد دفنتكِ بالحياة، أليس كذلك؟» وانتقلت عيناه من المقعد المحطَّم بجوار النافذة إليها. «ألا يتناسب هذا مع دور الضحية الذي تلعبينه دائمًا؟» وسرَت لمعةٌ في عينيه مرة أخرى.

كانت تلك آخرَ نفحةٍ من نفحات سخائه. شكرته المرأة، لكن لم تتسلل ابتسامة إلى شفتيها، إلا عندما خرجت من المكان؛ الآن صار لديها سببٌ للابتسام، بعدما ظهر انحراف سلوك هؤلاء النسوة، وهذا تطوُّر غير مستغرَب! ولا يعني هذا أنها كانت تسلِّم بهذا التحوُّل العنيف؛ بل على العكس، لقد قلبَت الطاولة عندما عرَضَت أن تعوِّض عن الأضرار التي ألحقتها بالمقعد. وأكَّدت أن الحزب العسكري كان سيحثُّه على أخذِ تعويض كبير من شركة التأمينات التابع لها لو كان منزله قد تعرَّض للحرق. وأجابها هو بأسلوبه الأفضل، كأنه كان أحمقَ عندما أعاق مساعيها: «حينها كنت سأبني المنزل الذي أريده حقًّا بدلًا من محاولةِ تشييد منزل معاصر من هذه القلعة المهترئة!»

ولكن لم يكن هذا هو أسلوبه الأمثل؛ فلم يكن معبرًا عنه، مثلما لم تكن الأنانية الهادئة التي أظهرتها السجينة المحرَّرة في الدقائق الأخيرة وهي تبحث عن قفَّازها، وعندما

عجزت عن العثور عليه، مدَّت يدها العارية في براءةٍ وقحة، دون مزيد من عبارات الشكر اللائقة بضيفٍ يودِّع مضيِّفه.

حتى جون دولار داهمه شعورٌ بالإحباط فجأة، والسيارة الصغيرة المكشوفة تبتعد بجهد جهيد، خارجَ مرمى السمع والبصر، تقطع تحت قمم الأشجار البرونزية ممرَّ السيارات المختفي، أما ديل-بولمر فقد دار على عقِبه أسفلَ القوس التي تغطي المدخل.

هتف ديل-بولمر مواريًا انزعاجَه بضحكة خفيفة ذليلة: «أليس هذا مزعجًا؟ أنَّ فتاة مهذَّبة — إن كانت لا تزال هناك فتيات مهذَّبة — تتصرف كالشيطان وتؤدي دورَه كملاكٍ صغير من ملائكة النور! هذا ما أصابني بالاستياء ... كيفية تنفيذها لهذا الدور! أردتُ أن أعطيَها نصيحةً أبوية، وأخبرها ألا تجعل من نفسها حمقاء شريرة. لكنها لم تبدُ مستعِدةً لقبول النصيحة، أليس كذلك؟ لم أجرؤ على سؤالها عن اسمها، هل سألتها؟»

أجاب دولار بنبرة منزعجة: «لا. ولا أدري لمَ سمحتَ لها بالذهاب»؛ لكن في اللحظة الراهنة شعرَ بالكراهية تجاه ديل-بولمر لمحاولته انتزاعَ كلمات الامتنان العادية على حساب محبوبته الغالية.

هتف الرجل الشهم: «لماذا؟ ألم تخمِّن كيف عثرتُ على سيارتها؟»

ردَّ الطبيب: «كيف؟»

أجاب: «أبلغتني الشرطة بوجودها!»

تعجَّب الطبيب: «الشرطة؟ أكانت هناك شرطة في المنطقة؟»

سرَت قشعريرة في جسد دولار كأن محبوبته الغالية لم تقف وراء القضبان قط.

قال ديل-بولمر: «لاحظتُ وجودَ شقيَّين بعد أن تركتك كي تسويَ الأمر مع الشابة. وفسَّرا حضورها بمسألة السيارة عندما خرجت من المنزل كي أتمالك نفسي؛ أقسما أنهما قدِما من سكوتلاند يارد بحجة البلاغ عن وجود سيارة عندما تظاهرت بعدم التصديق. لم أصدِّقهما حتى قدْتُهما إلى الكوخ ورأيتها بأم عيني.»

قال دولار: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

أجاب: «أقسمت بالطبع أنها سيارة أحد أصدقائي، وصرفتهما.»

قال الطبيب: «ولم تخبِرها بما حدث من باب الشهامة؟» ولم يسَعه قولُ أكثرَ من ذلك؛ إذ منعته كياسته من الإفصاح عن شعوره بالإجلال.

هتف الرجل: «شهامة؟ ما كنتُ لأدَع هذين الشقيَّين يدخلان المنزل ويفسدان عليك عملك!»

ثم أحسَّ أنه هو من أفسد عمله؛ فأطرق برأسه الكبير مثل عجوزٍ ضخمِ الجثة؛ وأدار ظهره العريض باختلاجةٍ فريدة، ووقف يرتجف من رأسه إلى أخمصِ قدميه، في انتحابٍ فرِح. انضم إليه دولار بصرخة أشعرت كليهما بالارتياح. وصاحا معًا حتى قدِم البواب الهزيل إلى المكان، بوجهٍ ارتسمت عليه علامات الارتباك البلهاء، فاهتزَّت صلابتهما الواهنة بصدمة أخرى.

قال ديل-بولمر بصوتٍ متأوِّه: «إنه يعيش في أعماق المنزل. إنه لا يدري بما حدث على الإطلاق. ولو كان قد عِلم بالأمر، لكنتُ اضطُررت إلى مضاعفة أجرِه. كما أنني ... كما أنني أرغب في زيادة أتعابك لثلاثة أضعاف!»

عادت الجِدية إلى ملامحه مرةً أخرى وسط شعوره بتأنيب الضمير، لكنه لم يكن يُقارن بالجِدية التي أظهرها الطبيب في غضون دقيقة.

قال دولار: «أنا على استعدادٍ لأن أدفع المالَ لأحل محلَّه حتى صباح الغد! أعني ما أقوله يا سيدي العزيز. إن كنت تشعر بأنك مَدين لي بأي ترضية بسيطة، فدعني أفعل هذا، لأشعرَ بالرضا!»

قال دولار هذا، ونظر إليه الآخرُ نظرةً طويلة، كأنه التقى به للتو. لقد جاء طبيب الجريمة أخيرًا.

سأل: «أتريد قضاءَ الليلة هنا أيها الطبيب دولار؟»

أجاب: «نعم ... بمفردي.»

سأل: «لكن لماذا يا صديقي الطيب؟»

ردَّ الطبيب: «لا يمكنني إخبارك بالسبب؛ فقط اسمح لي بالإقامة، إن كنتَ تثق بي!»

قال الرجل: «تعلم أن الأمر لا علاقةَ له بذلك.»

ردَّ الطبيب: «دعني أفعل ذلك إذن! هذا ليس من أجلك ... ولن أتظاهر بأنه كذلك ... ولكن ماذا لو كانت هناك محاولة ثانية لإحراق المنزل؟ حينها قد أستحق الأتعاب التي تحدثتَ عنها، وإلا فلا أستحق بنسًا واحدًا! ما كنتُ لأفوِّت القضيةَ لأي سبب حتى في وضعها الحالي. كما أنكَ سبقتني في استخدام العلاج الذي كنت سأصِفُه لك؛ لقد فعلت الشيء نفسه الذي كنت سأرجو منكَ أن تفعله، وأنا الآن أتوسَّل إليك أن تدَع المكان تحت مسئوليتي الليلة.»

سأل الرجل: «ألا تريد أن يصحبك الحارس ليعتنيَ بك؟»

أجاب: «لا أريد هذا الرجل بعينه! فقد خطرت لي فكرةٌ بسببه ... إنه يماثلني في الطول والحجم ... لذا يمكننا تبادل الأدوار على نحوٍ مثالي. أريد من الحارس أن يرتديَ

قبعتي ومعطفي ونظارتي الواقية، ويرحل بسيارتي بعيدًا عن المكان، بحيث إذا كان هناك متلصصون، فسيظنون أنني غادرت.»

سأل الرجل: «لكن من سيتلصَّص على المنزل؟ أنتَ بالتأكيد لا تقصد تلك الشابة ...»

قال: «لا سمح الله! لكن ربما أحدٌ من جانبها ... أو ربما شخصٌ يلاحقها. أشعر بالفضول بشأن هذين المحقِّقين؛ لكنَّ المسألة كلَّها مليئة بالغموض؛ لذا فإني أتحرَّق شوقًا للتحقيق فيها في هدوء، دون أن يعلم أحد بوجودي. ليس هناك سبيلٌ آخر؛ وهذا هو المعروف الوحيد الذي يمكنك أن تقدِّمه لي يا عزيزي ديل-بولمر!»

أذعن الرجل الملتحي لطلبه كرهًا. كان يشعر أنه لو كانت هناك فرصةٌ ضئيلة للحصول على المزيد من الإثارة، فلا داعيَ لتنحيته، ولا سيما أنه مالك المنزل، وكان يعيش حياةً رتيبة، منذ أن أجبرته إجراءات حزب العمال والحركة النسوية على مغادرةِ أستراليا والعودة إلى وطنه. لكن الرجل القوي الإرادة بدا صادقًا غايةَ الصدق في ادعائه بأن ثمَّة سماتٍ للقضية يريد دراستها لأغراض شخصية ومهنية بحتة؛ وأنه لا داعي للقلق من الأشخاص الذين كانوا يُعتبرون في السابق خصومًا؛ لكن لا بد أن يكون شخصٌ ما على أهبةِ الاستعداد، وهو الرجل المنشود للقيام بهذه المهمة. بدا كلامه صادقًا؛ لكن لولا قلق دولار الغريب بشأن المسألة، واكتشاف ديل-بولمر فجأةً أن هناك حولًا بسيطًا في عينِه، لحصلت الخطة على الموافقة في وقتٍ أبكرَ. لكن انتهى النقاش بورود مكالمة هاتفية، في توقيت مثالي، من منزله المفروش في إيشر، تسأله عما إذا كان أيُّ شيء قد حدث له، وهل يفكِّر في الابتعاد عن باكس مونكتونز تشيس؟

وهكذا قاربت الساعة على الخامسة قبل أن يختليَ طبيب الجريمة بنفسه، في نهاية المطاف، في الكوخ البسيط الذي كان مزودًا بطعام وشراب أبسطَ من الكوخ نفسه، لكن كانت كل زاوية وشبر من القصر الريفي تحت تصرُّفه حتى صباح اليوم التالي. وقد تميَّز الموقف بالجاذبية التي تتَّسم بها كلُّ مناوبات الحراسة المنفردة؛ وحتى لو كان من المرجَّح ألا يكون ثمَّة نفعٌ يُرجى من تلك المناوبة، فإن تأهُّبه المستمر لوقوع أحداث شائقة، يجعل الموقف مثيرًا أكثرَ من الإثارة نفسها. كما أن المسألة كلها كانت تروقه بشدة؛ وليس ثمَّة ما يشفي غليله مثلها؛ وعلى الرغم من تطلُّعه لقدوم الليل، وما قد يجلبه الليل من أحداث، إلا أنه لم يحتَلْ للبقاء في المنزل الفارغ لهذا السبب وحدَه. بل كان الجزء المتبقي من النهار هو ما دفعه للبقاء، لِما يوفِّره من إمكانية إجراء تحريات منهجية.

فور أن انغلق الباب الأمامي خلف ديل-بولمر، ورحل السائقان ومعهما الحارس النحيف المُدثر بملابسه في سيارته، بدأ جون دولار تحرياته بحذر، مثل بحَّار تُرك على

جزيرة مهجورة، يتحسَّس طريقه مخافةَ أن يهجم عليه أحد. ابتعد السائقان عن البناية المتلاشية، التي بدت موحشةً للغاية وسط الغسق، وخرجا من مرمى السمع والبصر دون أن يتبعهما أحد. لكن سرعان ما بدا للرجل الذي بالداخل وكأن المنزل كلَّه يُصدِر دندنةً متواصلةً بصمته المُطبق، وأنفاس الرجل الهادئة مثل صوت مزعج خشن يخترق هذا الهدوء الممل.

شرع في بحثه بتفتيش الغرفة غير المؤثَّثة التي كانت ستُضرَم فيها النيران. ممَّا لا شك فيه أنها نجت من عملية الحرق المدمِّرة بأعجوبة. ولربما كانت هذه المحاولة ستصبح ناجحة على نحوٍ شيطاني قاطع؛ إذ كانت السقَّالات مثل أعمدة في موقد ضخم؛ ومنظم الهواء هو العارضات المكشوفة بعد نزع الأرضية؛ وتكوَّنت المدخنة الطبيعية من بئر المصعد المجاور، الذي كان على ارتفاع شاهق، ما يجعل السلالمَ العادية تقصُر عن الوصول إلى بسطة الدَّرج … كانت كلُّ هذه الأشياء مثل المنفاخ والمصطلى، مع توافر أفضل وقودٍ للإشعال. وها هو ذا شَعر الحلاقة مجموع في كومة منظَّمة، وأعواد الثقاب نُثرت في اللحظة الأخيرة؛ بينما انهمك دولار في إعادة أعواد الثقاب إلى الصندوق، تاقت أنامله للمعرفة التي ربما كانت ستكتسبها من تلك الأعواد التي أمسكتها، للحقيقة الكاملة حول اليد المذنبة التي تركت علبة الثقاب تسقط على الأرض.

كانت الحقيقة الكاملة هي ما يسعى للوصول إليه، وهو جالس على ركبتيه في الرُّكام بين العارضات؛ انهمك في التفتيش عن حقيقة جديدة، لا تزال غير مُدرَكة باعتبارها اكتشافًا ملموسًا، وقلبه مفعم بالأمل علَّه يجدها ويقارنها بالحقائق الأخرى التي لا خلافَ عليها. الحقائق لا يمكن أن تكون كاذبة، لكنها قد تكون مبالغًا فيها؛ من المؤكَّد أنه، في مكانٍ ما، يوجد شيء يخفِّف من حِدية الجريمة، أو يسوِّغ هذه المحاولة الشنيعة، وليت الجدران الصامتة تتحدَّث دفاعًا عن التي لم تدافع عن نفسها على الإطلاق!

كان دافعًا طفوليًّا، أو تلهفًا في غاية الصبيانية لإبطالِ ما حدث، لكن هذا كان منشأ تلك الرغبة الشديدة في البقاء بالمنزل مهما كلَّف الأمر. ثم راوده شعور خافت، مثل ألمٍ خفيف؛ تحوَّل الآن إلى قناعة شديدة وثابتة، بأنَّ ثمة سرًّا لا بد من إماطة اللثام عنه، وأنه هو الرجل المنشود للتوصل إلى ذلك الأمر؛ وأنَّ لدى واحد من تلك الجدران ما يفصح عنه له، وله وحدَه.

لكنه لم يكن أيٌّ من أسطح الطوب والمِلاط الجديدة التي كانت بحاجة إلى طبقة دهان أولية؛ لم يكن تحت السقف المرتفع للصالة البارونية الهادئة حيث لم تُترك للبَنَّاء

حرية التصرُّف، كما لم يترك أي متطفل أثرًا خلفه؛ ولم يكن في الغرفة المستديرة الممتلئة بأول دفعة من أثاث ديل-بولمر، ولا بأي موضع في الطابق الأرضي، على الرغم من الحكاية التي ترويها نافذةُ غرفة غسل الأطباق بصوت يصمُّ الآذان. من هذه النافذة دخلت النساء المحاربات، بعد كسر لوح من الألواح، مثل اللصوص المحترفين. وهربن على الفور دون ضابط عبْر الباب. لكن ماذا فعل النسوة غير ذلك؟ وإلى أين اتجهن تاليًا داخل حدود هذه الجدران الصامتة على نحوٍ تهكمي؟

هل ذهبن إلى الطابق العلوي قبل أن تركض فيرا مويل صاعدةً السلَّم الخشبي؟ عاد دولار إلى تلك البقعة التي كان يمكن منها استنتاج بعض الأمور، وصعد بخطوات حذرة، في غاية الحزن على شجاعتها التي أساءت استغلالها. كانت الفجوة بين أول درجة والبسطة الجديدة مُزعجة بالنسبة إليه على الرغم أنه أطول من المرأة الحمقاء الضئيلة بحوالي قدم على الأقل. يا لها من حمقاء ضئيلة! كانت هذه طريقة جميلة للتفكير بها حتى في الوضع الراهن؛ لكن كانت هناك طريقة أخرى أسوأ؛ لكن لا تزال هناك طريقة أفضل تطارده بشكل غامض، سرعان ما انكشف في الغرفة التي رآها فيها بشحمها ولحمها. شعر أنه يمكنه رؤيتها هناك مرة أخرى. لم تواجهه مثل امرأة حمقاء لكن كبطلة، ليسامحها الرب! ذهب عنها تجهُّمها بشأن احتجازها المرعب تحت مقعد النافذة! ولم تفقد كبرياءها للحظة حتى بعد ما حدث؛ كما لم تفقد ثباتَ أعصابها ولو لثانية. كانت تقف بشموخ وتلتمع عيناها في ظل قبعتها الصغيرة اللعينة!

هنا، تحديدًا، كان قد رآها تتطلع من تلك النافذة إلى الضيعة، ثم تتسلَّق عيناها المنزل في هذا الجانب، وتتغلَّب على حاجز الأمواج للسياج المطموس أسفله مباشرة، حيث ينبسط الشراع المورق على آخره. كان هناك ظبيٌّ على مسافة بعيدة وطيور السنونو تتحرك بسرعةٍ أمام النافذة، كبكرات النول تغزل المشهد بالحرير، وتعيد الصورةَ يابسةً خصبة. لكن السماء الرحبة كانت لا تزال مثل سماء البحر، وكانت قد سطعت مرةً أخرى مع اقتراب المساء؛ وصار للسُّحُب حوافُّ فضية، بينما انتشل جون دولار نفسه من هذا المشهد الساحر.

كاد ظلام الليل أن يرخيَ سدوله، عندما عاد دولار من المنزل منتشيًا، بملامحَ يبدو عليها البِشر والسرور، ووجهٍ كاد من نوره أن يضيء قبرًا معتمًا. كانت يداه تقبضان على قفازين صغيرين نقيَّين، لم يكن من الصعب العثور عليهما ولا من السهل تحديد مالكتهما الضئيلة المحبوبة. لكن ذلك لم يكن كل شيء. باح جدار بكلام، في كتابةٍ أزالها أحدهم على عجل، وحكى المرحاض حكايةً أبلغ من السابقة!

بعد مرور ساعات، كان أثرُ الحديث لا يزال على الجدران، يبعث موسيقاه العذبة عبْر الممرات، ويملأ الغرفة الكريمة بعزفٍ مبهج، للرجل المسحور الجالس على المقعد المكسور بجوار النافذة، في ظلمة الليل الساكن. ربما كان في السماء قمر؛ لم يكن يعرف. ربما كان ثمَّة تحرُّكات خفية، في نظامٍ يتسم بتباعد الأفراد على مسافة كبيرة — بالاختباء خلف أشجار متباعدة — وتوحيد للقوى هناك في الظلمة، التي لم تكن ظلمةً حالكة لمن اعتاد عليها. لكن دولار كان قد أمضى ساعاتٍ يتأمَّل بعمق في ذاته، الأمر الذي أغشى بصيرته حتى إنه ما كان ليرى أيَّ شيء لو تطلَّع إلى خارج ذاته؛ كان قلبه لا يزال يغني أغنيته الخاصة بصوتٍ عالٍ حجَب عنه جميع الأصوات بالطابق السفلي، حتى حدثت جلبة كافية لإيقاظ نائم لا حالم غارق في أحلامه.

حتى حينئذٍ كان لا يدري ما الذي دفعه فجأة للنهوض على قدميه اللتين تسلل الخَدَر إليهما، لكنهما كانتا أقل خَدَرًا من عقله السابح في فرح داخلي لا نهائي بسببٍ ما اعتقد أنه اكتشفه مع قفازَي حبيبته الغالية. كان لا يزال قابضًا على المخلفات المقدَّسة بيده، ويتمسك في قلبه بذلك الاعتقاد العزيز، عندما نبَّهته أصواتٌ أعلى بمهمته تجاه الأحياء. كانت أصوات أشخاص تتردَّد في المنزل الفارغ. فنزع حذاءه، وسار ببطء إلى الباب، قبل أن يفتحه بهدوء شديد ويقف مرخيًا السمع في فزع شديد. تبيَّن أنها أصوات نساء مصحوبة بأصوات أقدام نساء تركض على الأرض!

في غمضة عين، لكن بحذرٍ غريزي، وصل إلى بسطة الدَّرج. وهناك، تحديدًا، انتهى حُلم يقظته الجميل بصحوة مقيتة كالكابوس؛ إذ كانت امرأة تقف على البسطة القابعة في منتصف شعبتَي الدَّرج المنفرج؛ كانت تقف في تحفُّز كأنها في نوبة حراسة؛ والتمع شعرها بأشعة القمر الفضية المتسللة من نافذة الدَّرج، واحدودب كتِفاها بتركيز، لكن رأسها مال جانبًا، كأن شيئًا استرعى انتباهها بغتةً، وبانت في ضوء القمر القبعةُ المميزة اللعينة لليدي فيرا مويل.

سقط قفازها من بين يديه. أسمعت صوتَ سقوطه؟ بدا أنها سمعته؛ لم يملك الشجاعة للتأكد. بل لم يملك الشجاعة لمواجهتها وانتقادها قبل البقية ... وهي في أسوأ حالتها كطرَفٍ غيرِ فعَّال في الجريمة ... في الوقت الذي كانت رفيقاتها الأكثر إجرامًا منهمكاتٍ في مهمتهن الوضيعة بالطابق الأرضي. كان السلَّم الخشبي هو وسيلته الوحيدة! يمكنه ترويعُ هؤلاء النسوة أولًا، دون أن يضطرَّا، هو وهي، إلى المواجهة مطلقًا. إنه يفضِّل ألا يلقاها أبدًا عن أن يلقاها في هذه اللحظة الحاسمة الشنيعة! كان يفضِّل الموتَ نفسَه عن موت حُلمه!

تسبَّب الرجل في فرار جماعي، وهو يعود إلى بسطة السلَّم بخطواتٍ واسعة ثقيلة، وصاح بصوتٍ عالٍ وهو يفرِّق «النسوة الأبالسة». هذا هو اللقب الذي أعطاهن إياه في أثناء ركضه؛ إذ جررن معهن امرأةً ملائكية لهذه الجريمة. سمعته النسوة، وسمع هو أيضًا ... وقْع خطواتهن المتعجِّلة الحادة في أثناء فرارهن السريع.

هذه المرَّة، كان بوسع النسوة الهرب؛ لم تخفق محاولتهن الثانية كالأولى. كانت بسطة الدَّرج الجديدة مثل مشواةٍ على الوهج المرتعش الذي انبعث من بئر الدَّرج بالأسفل. ألقى دولار بجسده كلِّه على الحافة ... فتدلَّى من إبطه ... وتأرجح في مكانه ممسكًا بالسلَّم مثل صبيٍّ يقف على شريط أفقي وتحته حشية. لم يجد الدرجة العلوية على الفور في اندفاعه المتهور؛ ثم تعيَّن على يديه تبادُل الأماكن مع قدميه؛ وكانت مهمةً خطرة لجسدٍ غير خفيف الوزن، في خضم الإثارة، فوق قمة السلَّم المتأرجح المتمايل مع الهواء. لكن طيشه هذا أوصله بطريقةٍ ما للأسفل، دون كسور في عظامه، وعلى عتبة الغرفة المحترقة قبل أن تلتهمها النيران كاملة. ولم يقتحم الغرفةَ على الفور؛ وقف هناك في إحجام بسبب الضوء الأحمر الذي كان يشع بالداخل.

وذلك لأنه، مجددًا، تخلَّفت امرأة واحدة عن بقية النسوة؛ ومن خلال أعمدة السقَّالات الكثيرة، ودُوَّامة الدخان والبخار، رآها في ضوء الوهج الذي ينطفئ بيدها، تحت هسيس زخَّات مياه تُلقى يمْنة ويَسْرة، في دوائرَ وحلزوناتٍ متلألئة، كما يسقي البستاني الأعشاب في هدوء. كان هذا حُلمه بالضبط، يتحول إلى حقيقة في النهاية! وقف دولار هناك يتحاشى النظر إلى وجه فيرا مويل من شعوره بالخجل ... بعد أن خشيَ لوهلة أن يكون ما يراه مجرد حُلم!

لكن الزَّخات الأخيرة سُلطت عبْر الظلام والدخان إلى عتبة باب الغرفة عند قدميه، وهتف صوتٌ خالٍ من المشاعر: «أراك بوضوح! رأيتك بالطابق العلوي؛ تعالَ وأخبرني عن سبب فرارك.»

لم يفرِّط في ثانية للالتفاف حول النيران. وذهب إليها مباشرةً عبْر الشرارات والشظايا في جوربه، ولم يعُد يشعر بالألم وغمرَته راحة، عندما وقف بجوارها على ألواح الممر الباردة، تعانق يداها يديه.

دمدم قائلًا عبْر الدخان: «ربما أكون قد توقَّعت ذلك! بل ربما أكون قد عرفته من البداية!»

ردَّت الليدي فيرا بصوتها الحاد الخالي من المشاعر: «من سوء الحظ أنك عرفت كل شيء. بصراحة، لا أفتخر بذلك.»

سأل دولار: «ألا تفخرين بإحباط جريمة وحشية؟»

هتفت السيدة بانفعالٍ أكبرَ لم يشهده منها من قبل: «لا أفتخر بخيانة رفقتي السابقة، ولم أخُنها أيضًا. أشعر بكل حرفٍ قلته بالأعلى. أرى أننا نتلقى معاملةً أكثرَ دناءة من ذي قبل. ولا ألوم النساء أدنى لوم على إقدامهن على هذا ...»

قال: «أنتِ تخونينهن بالفعل يا فيرا ... أنتِ تعرفين ذلك!»

أجابت: «لا أفعل! كيف يمكنني ذلك؟ ربما أظن أنهن يبالغن كثيرًا، وربما أحبطتُ مخطَّطهن ...»

قال مبتهجًا، وهو يشدُّ على يدها، دون أن يدريَ أنه يؤلمها بهذه الطريقة: «هذه ليست المرة الأولى!»

قالت، بضحكةٍ مفاجئة تهدَّج لها صوتها: «ذلك شأني وحدي. هذا أقلُّ ما يمكنني فِعله ... بعد ما حدث منذ عامين.»

أسرع هاتفًا: «وكنت أعرف ما فعلتِه. عرفته قبل ساعات، وإن كنتِ قد قذفتِ الرعبَ في قلبي مرة أخرى للتو. عثرتُ على خرطوم المياه في المرحاض، مع قفازك، ورسالة النسوة البغيضة التي أزلتِها من فوق الحائط! عرفت أنكِ أنتِ من وضعتِ الخرطوم؛ لأنه كان قد قيل لي إنه لم يكن يوجد أحد في المنزل. لكنني كنت أبحث عن شيءٍ من هذا القبيل. عرفتُ أن ثمة دليلًا في مكانٍ ما، وأن الأمر لم يكن كما يبدو. ومنذ ذلك الحين كانت تلك أسعدَ ليلة في حياتي، وغطَّت على أتعسِ ساعة خبرتُها من قبل!»

قالت الليدي فيرا بضحكةٍ خفيفة أخرى: «سأعيدك بالسيارة إلى المدينة لأعوضك عما حدَث. أنا ... أنا آسفة لأنني لم أخبرك بذلك بعد ظهيرة اليوم.»

قال: «أما أنا فلست آسفًا!»

قالت: «نوعًا ما لم أشعر أن ذلك منصفٌ للبقية وإن كنت، بالتأكيد، آمُل أن تدرك أنني ما أتيت بعدهن إلا كنوع من الترويع. لا أدري بالطبع إن كان سيذهب عنك البؤس قليلًا على الأقل إن صرتَ ...» وتوقَّفت عن الكلام.

سأل: «إن صرتُ ماذا؟»

هذه المرة كانت هي من تناولت يديه بسرعةٍ أكبر ... عبْر هوَّة من الظلام مثل حائط صلب ... وعانقتها بحنان ذكَّره بأنه لا يوجد شيء آخر ... لكن بوجهٍ مشرقٍ أكثرَ قربًا من العناق.

همست: «إن صرت على الأقل أسعد قليلًا، عجبًا، بالتأكيد كانت خطتك فحسب، أيها الطبيب، التي حاولتُ تنفيذها!»

الفصل الثامن

القاتل الثاني

١

كانت فيرا مويل هي من جلبت الإشراق إلى ذلك الصباح المُعتم الحزين من شهر أكتوبر. ومن أجل إزالة الحرج من جانبه وجانب السيدة، أغلق دولار المصباح الذي استخدمه في قراءة الرسالة القصيرة المكتوبة على بطاقتها؛ لكن تبيَّن أن حساسيته المتسمة بالتوتر لا داعيَ لها عندما وقعت عيناه عليها في اللحظة التالية. رأى رداءً أحمرَ بندقيًّا صارخًا، في غاية الأناقة وخَصرًا مرنًا، ولولا وجه الليدي فيرا المتألق تحت قبَّعة الطاق المرتفعة والفراء النادر العصري ما تعرَّف عليها. ومع أن دولار أحبَّ إشراقها دائمًا، لا سيما إذا قدِمت إليه على غير توقُّع، إلا أن أناقتها المفرطة أصابته بعدم الراحة والارتباك، حتى التقت يداهما، وارتعشت يدها في يده من تحت قفازها المحكَم.

قالت فيرا مويل بصوت في غاية الثبات: «كفانا حومًا حول الموضوع. هلَّا تخبرني بما تعرفه تحديدًا عن السيد موستن سكارث؟»

هتف دولار: «موستن سكارث! أتعرفينه؟»

أجابت: «تمام المعرفة!»

قال: «هذا ما كنت أخشاه.»

قالت: «لكن أريد معرفة رأيك فيه وتجربتك معه أولًا. أظن أنكما أمضيتما بعض الوقت معًا في سويسرا، أليس كذلك؟»

ردَّ دولار بثقة: «بلى. كان من المفترض أن يعتنيَ بشاب في حالة جنون مؤقتة، بلغ سنَّ الرشد لكنه غني ومتهور في نظر القانون. استدرج سكارثُ الشابَّ إلى ترك أموال طائلة له في وصيته ثم حاول قتْله مرتين.»

هتفت: «لا أصدِّق ذلك!»

تابع دولار: «هذا ما حدث. تسألين ماذا أعرف عن الرجل، وها أنا ذا أخبرك بما أعرفه بلا أدنى تردُّد. هذه الحقيقة التي لا بد أن يعرفها العالَم بأسره اتقاءً لشره. لقد حاول إنهاء حياة الشاب في حادثتين منفصلتين، وكانت الثانية أكثرَ ابتكارًا من الأولى؛ فقد حاول في المرة الأولى تسميمه من خلال تزييف وصفة طبية، وفي المرة الثانية حاول كسر عنقه بالعبث بزلاجته.»

سألت: «أفعل ذلك في سويسرا، وأنتَ هناك؟»

أجاب: «أرسل أحدُهم في استدعائي بعد المحاولة الأولى؛ ونُفِّذت المحاولة الثانية تحت سمعي وبصري.»

سألت: «ولم تحرِّك ساكنًا؟»

لم يقتصر غضب السيدة فيرت على المجرم الغائب؛ بل حظي بطلها بنصيبه منه.

قال في اعتراضٍ متواضع: «لم يكن بيدي حيلة. كنتُ في بلدٍ أجنبي؛ ولم تكن الأدلة دامغة في نظر قانون بلدنا. تركتُ سكارث يعلم أنني اكتشفت ما فعله، وأنقذت الشاب من بين براثنه ... وعالجت جنونه ... وطرحت القضيةَ أمام توبام فينسون عندما عُدْت للوطن. فتشاور مع رجاله من القانونيين؛ وارتأوا أنه لا يوجد ما يمكن فِعله لا سيما أن رجلنا لم يكن حتى تحت مراقبة الشرطة. تعين عليَّ أن أراقبه بنفسي عندما ظهر في المدينة مرة أخرى. سهَّل سكارث عليَّ الأمر عندما لاحقني على الفور، واكتشف أن السيد كروتشر يُكنُّ لي العداوة. واحتالا لإفساد سائقي؛ ثم فقدت أثرهما؛ وفي ذلك الوقت حاولت تحذيرك من خطرهما، لكنكِ لم تردي قط، وبدا أنه يتعذَّر وصول رسائلي إليكِ.»

قالت الليدي فيرا بندمٍ واضح: «بل كانت تصلني. يخجلني أن أخبرك لماذا لم أردَّ على رسائلك؛ لكن سأفعل بعد هنيهة. أكان السيد سكارث هو الرجل المقصود عندما أخبرتني منذ بضعة أيام عن وقوع كروتشر المسكين في أيدٍ شريرة؟»

أجاب: «كروتشر المسكين! نعم، إنه هو؛ وفي الحقيقة لا يوجد ثمَّة مقارنة بينهما. أحدهما مجرم بالفطرة، إن جاز التعبير، والآخر شرير مُثقف قاسٍ لم أقابل مثله في حياتي.»

مالت فيرا مويل إلى الأمام في مقعد المرضى، مثلما فعلت منذ عامين، وأضاء نفس البريق وجهها الذي علَته أمانة أخلاقية وفكرية راسخة؛ لكن تلك الصحة الوافرة في وجنتيها المتوردتين، والحكمة العميقة في عينيها، لم تؤثِّرا في دولار مثل ذكائها المفرط البادي. كانت المرأة نفسها التي بلغت الغاية في عفويتها، غير أنها كانت توشك أن تخبره بالحقيقة كاملة حول مشكلة جديدة، ولا تحاول أن تسوِّغ تصرفاتها.

استهلَّت حديثها بأقل نبرة انتقامية يمكن أن يستخدمَها المرء: «لا أريد الإسهاب في الحديث عن السيد سكارث، لكن يتعيَّن عليَّ أن أعترف أنني كنت أحبه حتى بضعة أيام مضت. التقيت به لأول مرة في منزل ريفي حيث كان من المُخطَّط أن يعطيَ دروسًا خاصة للأولاد، لكنه لم يكن مجرد مدرسٍ عاديٍّ، بل حياة المكان وروحه. وبطريقة استثنائية نجح في إدارة المكان والجميع لصالح أولئك الناس؛ لذا ولِعنا به غايةَ الولع، وقال إنني طلبت منه الحضور وزيارتنا في المدينة، لكنه لم يحضُر بالتأكيد إلا في نهاية الموسم السابق تقريبًا. ثم عوَّضنا عن هذا الوقت الضائع؛ فهو رفيق ممتاز، كما تعلم، واستقبلناه على العشاء، ودعاه أخي الأكبر إلى منزله في أغسطس عندما كُنت هناك. في ذلك الوقت التقينا كثيرًا، وعرض السيد سكارث عليَّ الزواج ...»

هتف دولار: «يا إلهي!»

واصلت: «بالطبع لم أحبه لدرجة الزواج به رغم أنه كان قد أوقع بيني وبينك!»

سأل دولار بتجهُّم: «كيف؟» كانت لا تزال تحدِّق في نيران المدفأة؛ لكنه شعر بالإطراء من الحمرة التي تسللت إلى وجهها — التي لم تكن بسبب المدفأة فحسب — وكادت أن تنافس لون ردائها الأحمر البندقي الذي لا يزال قريبًا من القضبان.

أجابت: «إنه يعلم ما فعلتُه قبل عامين.»

سأل: «أتقصدين كروتشر؟»

ردَّت: «قال إنك أنتَ ... إنك أنتَ من سلَّمتني له في سويسرا!»

سأل: «وصدَّقتِ ما قاله؟»

قالت: «لقد جعل الأمر يبدو كالحقيقة تمامًا. قال إنكَ كشفت أمري واستأمنته على السر؛ وأراني خطابًا ذكَّرته فيه ألا يدَع أحدًا غيره يطَّلِع على هذا السر.»

هتف: «تزوير!»

قالت: «أُدرِكُ ذلك الآن؛ لكنه تزوير مُتقن، فقد استخدم ورق ناديك.»

عقَّب: «الرجل مزوِّر محترف. أي شخص يمكنه الذهاب إلى النادي ليكتب ملاحظةً ويسرق ورق الرسائل. ليتكِ تواصلت معي بشأن هذه المسألة!»

قالت: «وعدتُ ألا أفعل. لم أصدِّق أنك أخبرته، على أي حال ... أو أنَّك أوَّل من أخبره. لكن ... لكن شعرت بالنفور تجاهك ... رغم كل شيء ... ولم يحدُث ذلك إلا في يوليو.»

أشار: «في ذلك الوقت تحديدًا كنتُ أحاول الوصولَ إليكِ لتحذيركِ!»

التقت عيناها بعينيه أخيرًا وكانتا رطبتين لكن متلألئتين. قالت: «ازدادت شكوكي بسبب شيء أو شيئين قالهما عندما التقينا في الريف؛ لكن «علمتُ» أنه لم يكن صادقًا

في كلمة واحدة مما قاله قبل أن توجِّه لي الإهانات يوم الأحد الماضي! ما فعله كان مجرد مكيدة لتفرقتنا وإيقاعي تحت سيطرته.»

سأل: «هل هدَّدكِ عندما ... عندما التقيتما؟»

أجابت: «لم يفعل ذلك بطريقة مباشرة.»

قال: «سيفعل. حينها سأتدخَّل.»

ردَّت: «كانت حجَّته أنني أنا وسري لن نكون بأمان إلا معه.»

سأل: «إذ لم يكن سركِ بأمان معي، أليس كذلك؟»

أجابت: «ذلك كلُّ ما في الأمر؛ لكنه يعلم الآن أنني لا أصدِّقه. أخبرته بذلك عندما اتصل بي الأسبوع الماضي.»

سأل: «إذن التقيتما مرة أخرى؟»

أجابت: «أنهيت علاقتنا عند هذا الحد.»

سأل: «وهل توقَّف الأمر عند ذلك؟»

أجابت: «توقَّف بيني وبينه.»

قال: «لا تكوني واثقة لهذه الدرجة. أنتِ لا تعرفين موستن سكارث كما أعرفه. أحاول أن أتصوَّر خطوته التالية!»

تألَّق وجهُ الطبيب بفضولٍ نهِم، وبادلت هي تألُّقه بتألقٍ أكثرَ منه، تحت قبعة الطاق المرتفعة من الحرير الموج.

قالت الليدي فيرا: «لا أعرف شيئًا عن خطوته التالية، لكني سأخبرك بآخرِ خطوة له. لقد بدأ بملاحقتي في كل مكان ليرى ما إذا كنت سأرتكب جريمة أخرى! كان أحد المحقِّقَين اللذين قدِما إلى باكس مونكتونز تشيس!»

هتف دولار في غاية الاندهاش: «مستحيل!» كان دولار قد نسي كلَّ ما يتعلق بالمسألةِ موضوعِ النقاش، باستثناء مدى الروعة التي خرجت بها فيرا مويل منها. بقيت هذه الواقعة في عقله مثل حُلم عظيم تحوَّل إلى واقع حتى اللحظة؛ أما بقية التفاصيل فكانت قد اختفت من ذاكرته شأنها في ذلك شأن أي حُلم آخرَ.

قالت الليدي فيرا ببعض الخجل: «عرفت بالأمر مصادفةً. عرفته من ... المحقِّق الآخر.»

قال دولار: «أكان ...» وسكت مقطِّبًا حاجبيه، ثم أردف: «أكان كروتشر نفسه؟»

أجابت: «نعم.»

هتف دولار: «تجرَّأ أن يخاطبكِ!»

تابعت: «كانت هذه المرة الأولى منذ تلك الليلة في القطار؛ والآن استمع إليَّ، وانظر إلى هذا المسكين بعين الإنصاف. لم يكن قَط سيئًا مثلما تصورتَه؛ أنت نفسك قلتَ إنه قديس مقارنةً بالسيد سكارث.» كان دولار في غاية الشراسة فلم يبتسم عندما سمع هذه النسخة المحرَّفة من كلامه. تابعت: «حسنًا، لقد تشاجرا، وكروتشر في ورطة كبيرة؛ وقد لجأ إليَّ من أجل المساعدة لا ابتزاز المال وما شابه.»

سأل: «ألم يبتزكِ بأي شكل من الأشكال؟»

ردَّت: «ولا بكلمة أو إشارة واحدة من هذا النوع، عدا أنه طلب مني أن أصفح عنه لما حدَث فيما مضى، وهذا ما فعلته بكل تأكيد.»

هتف دولار بسخريةٍ وجدَ أنه لا مفرَّ منها: «لا أستغرب هذا التصرُّف منكِ، غير أنه في الواقع سرقةٌ تحت تهديد السلاح!»

لكنها الليدي فيرا حذَّرته بعبوس لا يكاد يُدرك لولا أنه ارتسم على وجهٍ اتسم بهدوء دائم لا يعكره أيُّ شيء.

قالت بنبرة لطيفة: «نسيتَ ما مرَّ به في البداية. لقد عاش ثمانيًا وأربعين ساعة ينتظر التفاف حبل المشنقة حول عنقه لجريمة لم يرتكِبها! عندما أفكِّر فيما خطر بباله، وفي أنني لم أنكر الجريمة أو أعترف بها، لا في ذلك الوقت ولا في غيره، لا أتعجَّب من سوء تصرُّفه تلك الليلة وإنما مما فعله بعد ذلك. كان بإمكانه أن يبتزني دون معرفتك، مهما بلغ حجم تهديداتك له، وهو أبعد ما يكون عن أن يحاول فِعل ذلك الآن. لكني أرغب في أن أفعل شيئًا من أجله! قلتَ بنفسك أنه وقع في يدِ أسوأ شخص ... حسنًا، أريد أن أنقذه منه. أخبرتني من قبل — عندما استضفته بمنزلك سابقًا — أنك وجدت نفسك تحاول تهذيبَه، وكادت جهودك تؤتي ثمارها. أريدك أن تحاول معه مرةً أخرى، أيها الطبيب، من أجلي! إنه يشعر بالأسف الشديد مما فعله في السابق، كما أنه تعرَّض لأسوأ استغلال على يد موستن سكارث. إنه يبدو مريضًا. أريدك أن تنقذ حياته بل أن تفعل ما هو أكثرَ من ذلك! لقد أخبرني، وعيناه مغرورقتان بالدموع، أنه لم يشعر بمثلِ السعادة العارمة التي شعر بها عند استضافتك له في السابق. امنحه المأوى من جديد، يا رجل، وأعطِه فرصة أخرى، لترضيني!»

كان صوتها قد تهدَّج أثناء حديثها، ولأول مرة خانتها عيناها أيضًا ودمعتا، وانتظر دولار عابسًا إلى أن هدأ صوتُها وجفَّت عيناها. لكنه لم يسمح لذلك العبوس أن يتسلل إلى إجابته عندما انتظرته بدورها ليعقِّب على حديثها. حتى وهي ترتدي تنورتَها اللامعة

السخيفة وقبَّعة الطاق التي لم يحبها كثيرًا؛ وعلى الرغم من ملابسها المبهرجة حسبما تجرأ على تخيُّلها بقلبه البسيط، ازدادت في عينيه جاذبيةً على جاذبيتها بسبب هذه الأمور التافهة تحديدًا، ولا سيما أن منطوق شفاعاتها ومفهومها كانا أبعدَ ما يكون عن الغرور.

سأل دولار بلطفٍ بالغ لا تشوبه ذرةُ عتاب: «أأتيتِ حقًّا لزيارتي بشأن ألفريد كروتشر؟»

قالت معترفة: «أتيتُ من أجل كليهما، لكن السبب الرئيسي كان كروتشر. وبلا شك أردت التأكد من صحة روايته عن السيد سكارث. لو أنك كنت قد وصفته بأنه يمتلك شخصية جيدة، لانتهى الأمر عند هذا الحد. لكن تقييمك له كان أسوأ بكثير مما توقعتُ. يكاد يكون كروتشر طاهرًا مقارنةً به؛ وبصراحة، لا أستغرب إن تأثَّرت أخلاقه من خلال علاقته برجلٍ أسوأ منه بكثير.»

سأل دولار: «هل أخبركِ بذلك؟»

أجابت: «قال إن سكارث جعله غارقًا في الفُحش حتى النخاع.»

قال دولار وهو يحاول ألا تظهر الفظاظة في صوته قدْر المستطاع: «هذا ممكن. فهو صحيح من الناحية النفسية.» كان يبتسم ويومئ برأسه علامة الموافقة. وسأل: «أين السيد كروتشر في اللحظة الراهنة؟»

أجابت: «يجول في الخارج جَيئةً وذهابًا.»

سأل: «إلى أن ندعوه للدخول؟»

أجابت: «إن أذنتَ لي بذلك!»

نهضت واقفةً لتلزمَه بكلمته فور أن يتفوه بها؛ لكنه قال إن ذلك من مهامِّ بارتون، وتساءل جهرًا عن رأيه حِيال ذلك، بينما ذهب لتفقُّده على ما يبدو. ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهر ألفريد كروتشر أمامها متضعضعًا مثل كلب مضروب.

لكنَّ قليلًا من الكلاب يعوي وينتحب كما فعل كروتشر ذلك الصباح، وأنصت إليه طبيب الجريمة، بينما جفلت السيدة الصغيرة فزِعةً. كانت محقة بشأن أمر واحد. وهو أن كروتشر بدا مريضًا حقًّا؛ فلم يكن يتظاهر بالسعال. أعلن كروتشر: «لقد عُوملتُ معاملةً قاسية»، لكن دون أن يدخل في التفاصيل، ولم يستحثَّه دولار على فِعل ذلك؛ لكن عندما تحدَّث عن شخصية موستن سكارث لم يُبدِ كروتشر أيًّا من هذه التحفُّظات. راح كروتشر ينتقد ذلك الوحش بكراهيةٍ صريحة لمحارب مقدَّس، بينما كان يرفع عينيه للأعلى في ضراعة ملتهبة خاشعة.

قال كروتشر متوسلًا بينما لاحت رغبةُ القتل في بياض مقلتيه المنزعجتين: «فقط أنقذني منه قبل فوات الأوان! إنه رجل سيئ بل في غاية السوء! أسعد أيامي كانت تلك التي قضيتها هنا منذ ثمانية عشر شهرًا. تبدو أقرب إلى ثمانية عشر عامًا. ما كنت لأنصرف عن العلاج لولا شود الذي سيقضي فترة طويلة في السِّجن مقابل عنائه. إنه شخص سيئ هو الآخر؛ لكن لولاه لكنت خاضعًا لسيطرتك ولكنتَ صنعت مني رجلًا صالحًا في وقت قصير.»

قال الطبيب: «لكنك ذهبت مباشرةً من عندي لتهدِّد السيدة التي أرسلتك إلى هنا وتسرقها!»

كانت افتتاحية الكلام خطيرة لكن كروتشر لم يعبأ بها. بل سقط على ركبتيه المغطاتين بسروال لامع لا يزال يُظهِر آثارَ تجاعيد لا سبيل إلى معالجتها، في انفعال خسيس، وتوسَّل مرة أخرى طالبًا الرحمة والصفح اللذين مُنِحا له بالفعل. وتبدلت عينا الليدي فيرا من المكر والخبث والاستجداء والاستعطاف إلى حدَّة كحدة المسامير ولا سيما مع بريقهما الداخلي غير المباشر.

قال دولار بنبرةٍ غاضبة جعلتها تتنفس الصُّعداء: «حسنًا! سأسمح لك يا كروتشر بالإقامة في منزلي مهما كانت الظروف. وسنصلح الأوضاع قدْر استطاعتنا؛ لكن انهض على قدميك، يا رجل، ولا تتذلل كالحيوان! هل أنتَ متفرغ للإقامة في الحال أم إن هناك ما يجب تسويته أولًا؟»

قال كروتشر بحماسة: «لدي غرفتي. لا يوجد ما يستحق إحضاره، لكن لا أريد الاحتيال على أولئك الأشخاص، خاصةً أن السيدة تفضَّلت وأعطتني مالًا، ليباركها الرب!»

عجَّل دولار برحيل الرجل الذي أوشك أن يذرف دموع تماسيح جديدة، حيث كانت هناك علاماتٌ تدُل عليها على السجادة الصغيرة. ربما يكون رجلًا سيئًا هو الآخر، لكنه لا يُقارن بسوء موستن سكارث. كما كان لديه في زعمه المتواضع، على الأقل، إخلاصٌ مريرٌ قدَّره الطبيب حقَّ قدره بإيماءة موافقة متحمسة.

قال الطبيب: «لم أرَك إلا قاتلًا غير متعمد يا كروتشر!»

سأل كروتشر: «ماذا تقصد؟»

اتسعت عينا كروتشر الماكرتان السريعتان على نحوٍ مثير للرعب في لمح البصر.

قال: «هذا تعبير متخصص، يا كروتشر، يعني مجرمًا ثانويًّا.»

وعاد ببطء شديد لحضرة الليدي فيرا مويل المتلهفة.

قالت بنبرة شديدة الرقة تستخدمها في التوبيخ في مناسبات نادرة: «أظن أنني، أنا الأخرى، لست بحاجة إلى التملُّق. لكن أتظن أنه يمكنك إصلاحُه بأي شكل هذه المرة؟»

أجاب: «آمُل ذلك؛ لكن سأكون في غاية السعادة باستضافته، حتى وإن أخفقت مرة أخرى.»

سألت: «ولمَ هذا؟»

ابتسم لها طبيب الجريمة إحدى ابتساماته الجانبية.

قال: «لأنني سأتمكَّن من مراقبة تحرُّك سكارث الأخير مراقبةً أفضل.»

٢

في الجهة المقابلة للنوافذ الخلفية المطلة على شارعٍ جديدٍ فخم يتضمن منازلَ حمراء عالية، ووراء الحائط الأحمر الطويل المسوِّر للشريط المشترك من الشجيرات والحصى، يمتد صفٌّ متواضع من نوافذ منازل بجوار أحد الإسطبلات. في إحدى هذه النوافذ بوسعك رؤيةُ حوذي يحلق شعره قبل الذهاب إلى عمله، لكن الأكثر احتمالًا هو أن ترى السيدة التي يعمل لديها السائق منهمكةً في قراءة رواية؛ وفي النافذة المجاورة ستجد أصائصَ من الأقحوان البلسمي، وفي النافذة التي تليها سمك المساء المُملَّح للمحافظة على بقائه عذبًا طازجًا. اشتملت غالبية النوافذ على الستائر الموسلين وظلت مصابيحُ بعضها مشتعلة طوال الليل. في أكتوبر الماضي، كانت هناك نافذة واحدة لا تحتوي على أي غطاء باستثناء صحيفة عُولج بها لوح زجاجي مكسور.

كانت تلك النافذة عارًا على صفِّ النوافذ؛ إذ تُركت قبعة مهترئة منذ مدة طويلة على السطح؛ ولم يكن مستغربًا تدفُّق مقاطعَ غريبةٍ من أغنية من الداخل؛ كأن رجلًا مهذبًا يحتفل بصَخَب في أثناء نومه، وفي أوقاتٍ أخرى يُخرج رجلٌ أشعثُ وجهَه من النافذة ويقلب عينيه في النوافذ الخلفية للمنازل الحمراء، بادئًا بالشقق الأرضية ومنتهيًا بها. وإذا ظهر وجهٌ وسيم داكن البشرة في نفس الوقت من نافذة الشقة العلوية، يختفي الوجهان معًا على الأغلب؛ لكن كان من الصعب ضبطهما يتبادلان إشاراتٍ فعلية.

فور أن عاد ألفريد كروتشر من المقابلة في شارع ويلبك، حليق الشعر حسن الثياب، بلغ به الحد إلى أن يغمز ويلوِّح بيده من النافذة التي شانت الإسطبل إلى النافذة العلوية للشقق الأرضية. كان البياض لا يزال ظاهرًا في عينيه الدائريتين في مَحجِريهما؛ ورُسغاه

حولهما سوارٌ غير مألوف؛ وسرعان ما كان موستن سكارث بجواره يحمل زجاجة الخمر التي ابتاعها احتفالًا بالمناسبة.

قال كروتشر وهو يعدل نحيبه المزيَّف ليلائم عرضًا هزليًّا استثنائيًّا: «واحدة فقط! أستحق زجاجةً كاملةً من الويسكي على ما سأخبرك به!»

قال سكارث: «ولا قطرة واحدة أيها العائد من الموت! متى ستنتقل إلى هناك؟»

أجاب: «اليوم ... الآن.»

قال سكارث: «سأعطيك الزجاجةَ كلَّها عندما تخرج. قد تكون بحاجة إليها. هل أحضرت ورق الرسائل المختوم؟»

أجاب: «لم أتمكَّن من أن أضع يدي على قصاصة واحدة.»

سأل: «ألم تبقَ في غرفة الانتظار بمفردك؟»

أجاب: «كانت غرفة انتظاري هي الشارع يا سيدي.»

قال: «حسنًا، لا بد أن ترسل إليَّ ورقة أو اثنتين عبْر البريد فور أن يكون بوسعك أن تتحصل عليهما؛ يفضَّل أن ترسل ثلاثًا أو أربع ورقات على سبيل الاحتياط، وظرفين على الأقل تحسبًا للطوارئ. والآن احكِ لي ما حدث؛ وقد تحصُل على شرابٍ قبل مغادرتك.»

لم يكن هناك ضوء، تلك الليلة، في النافذة التي حلَّت صحيفةٌ محلَّ زجاجها المكسور؛ وفي اليوم التالي خضعت للإصلاحات اللازمة، وأُزيلت القبعة المشبعة بالماء من فوق السطح، قبل أن يستيقظ ألفريد كروتشر من نومه البريء الطويل ليجد نفْسَه في غرفة السلام الأبدي التي تحمل براءة اختراع طبيب الجريمة.

كان انطباعه الأول أن ثمَّة معجزة غامضة نزلت به على وجهِ الخصوص. لا بد أنه كان ثملًا وإلا ما نام هذا النومَ العميق، لكن لم تراوده تلك الأحاسيس الكريهة التي تصاحب حفلات الشُّرب العادية بحسب خبرته الطويلة. شعر براحةٍ وانتعاش عميقين؛ فلم يستلقِ على فراش وثير مثل هذا في حياته؛ كما لاح عطرٌ خفيف في الجو، على نحوٍ يهدئ الأعصاب بطريقة غير مباشرة، وكانت الغرفة جيدة التهوية وبلا صوت تمامًا باستثناء الأصوات الرقيقة الناجمة عن تقلُّب جسده الحي بين الشراشف. كان حنكه نظيفًا وباردًا بشكلٍ يصعُب تصديقه. فتح عينيه ورأى غرفةً بسيطة واضحة المعالم، كالبلور الصافي؛ لم تشبه غرفةَ النوم البرونزية التي خطرت له فجأة، لكنها كانت نفس المكان الذي تغشاه أشعةُ الشمس الساطعة، وكان أجمل آلاف المرات من مما تصوَّر كروتشر.

ثم أدرك أنه بمنزل الطبيب، وتذكَّر السببَ الذي دفعه تحديدًا إلى المجيء؛ وكان هذا هو المقابلَ العقلي لِما وصفَه السيد كروتشر بـ «صداع الشُّرب»، باستثناء أن هذه الحالة أصابته بسخونةٍ من رأسه إلى أخمص قدميه. ربما كان يعاني الحمَّى؛ رجا من كل قلبه أن تكون الحمَّى هي السبب. تذكَّر سُعاله وبدأ يتمرَّن عليه. أدَّى هجوم المرض المُتعمد إلى ارتفاعِ معنوياته؛ شعر أنه خائرُ القوى ولا يقدِر على النهوض من فراشه على الفور، وسيتعيَّن على الآخرين أن ينتظروا استيقاظَه ويخدموه كما يليق!

لم يكن بوسع الآخرين الوصولُ إليه في هذه الغرفة؛ لكن شخصًا واحدًا كان يستطيع، ووصل إليه بالفعل، ما بعث في السيد كروتشر مزيجًا من القلق والراحة. أبقاه الطبيب في الفراش لتتحسَّن حالته؛ لكنه كان يزوره كثيرًا جدًّا؛ ومع ذلك كان الوقت ينقضي ببطء شديد في أثناء غيابه، وكانت هناك أعباءٌ تثقل كاهله أكثرَ من الوقت. لم يعُد المريض يحب تمضيةَ الوقت في القراءة. بل مال إلى إجراء المحادثات هذه المرة. فعندما كان يشرَع في القراءة كان عقله يشرُد. ويبدأ بملاحقة الطبيب وهو ينزل إلى الطابق السفلي باتجاه غرفة الاستشارات أو غرفة نومه الواقعة في الطرَف المقابل لبسطة الدَّرج. كان طيف الطبيب ملازمًا له؛ لذا كان كروتشر يفضِّل أن يراه بشحمه ودمه بدلًا من أن يطارده طيفه في أثناء غيابه.

والأفضل من ذلك، مرة أخرى، أن يناقش موضوعاتٍ بعينها بدلًا من أن تستحوذ على تفكيره ليلَ نهارَ، خاصة أن لها تأثيرًا قويًّا على طبيب الجريمة فيما يظهر. كانت هذه الموضوعات ضمنَ دائرة اهتمامات الطبيب بلا شك؛ وهذا يفسِّر ذوقه السوداوي، وكذا كانت تجربة المريض المروِّعة تفسِّر ذوقَه هي الأخرى. لم يكن هناك شيء غير طبيعي في حديثهما. كانا يتشاركان المزاج السوداوي نفسَه إلا أنهما اكتسباه من خبراتٍ في غاية التناقض؛ لذا أثارت هذه الموضوعاتُ بشكلٍ كبير اهتمامًا متبادلًا لديهما. ولو كان هناك موضوع واحد سيئول إليه النقاش بطبيعة الحال، بلا حساسية مزيفة من الطرفين نظرًا إلى اختلاف خلفيتهما، فهو الوصية السادسة من الوصايا العشر.

قال دولار وهو يتجاهل عذرًا مشوشًا في اليوم الثاني: «لا شكَّ في أنكَ تفكِّر في الوصية السادسة. لا بد أنها تهيمن على عقلك؛ وهذا ليس مستغربًا. ما أودُّ أن تفعله، نظرًا إلى أنك لم ترتكب جريمةً قَط، كما أنك آخر رجل في العالم يمكنه القتل في الوضع الحالي، هو ألا تعبأ كثيرًا بهذه الخطيئة.»

كرَّر كروتشر بعينين جاحظتين: «ألا أعبأ كثيرًا؟!» ثم أضاف جملةً غير منطقية مرتعدًا: «إله العالم لا يستهين بهذه الخطيئة!»

ردَّ الطبيب ببعض الغموض: «عُرِف عن الأدبيات ذلك. لكنك لم تَعُد قارئًا كما كنتَ في العام الماضي؛ وإلا فهناك كتاب، «القتل باعتباره أحدَ الفنون الجميلة»، كنتُ سأعيرك إياه.»

سأل السيد كروتشر، وهو لا يدري أيضحك أم يعبس، وفي الوقت نفسِه تألَّقت عيناه أكثرَ من المفترض: «أحد ماذا؟»

ذهب الطبيب لإحضار الكتاب، وقرأ على كروتشر بضعة مقتطفات منه. بدا أنها أشعرته بمتعةٍ استثنائية؛ إذ سيطرت على رأسه المستدير القابع على الوسادة. ما استطاع أن يفهمه منها هو أنَّ بعض الناس يرون القتل مجردَ رياضة لا أكثر. رأى أنهم حمقى مضحكون! ما عليهم سوى قضاء أسبوعين في زنزانة انفرادية، من أجل جريمةٍ لم تقترفها أيديهم، ولنرَ حينها إن كانوا سيفكرون في القتل أم سيتراجعون عنه!

ومع ذلك كان بوسع ألفريد كروتشر أن يفهم أن أولئك الأشخاص، بكتابتهم مثل هذه التُّرهات، لم يكونوا يعرفون شيئًا حول حقيقة الأمر؛ ما لم يستطِع فهْمه هو كيف ينظر طبيبُ الجريمة، من بين كل هؤلاء الناس، ومع معرفته الغامضة بالقتل، إلى أسوأ الجرائم، بطريقةٍ لم تخطر على عقل ألفريد كروتشر غير المتحيز. بدا أن الطبيب ينظر إلى القتل بطريقةٍ أكثرَ إثارة من الطريقة التي كان سينظر بها إليه هو نفسه، حتى وهو في أسوأ أحواله؛ كيف لشخصٍ خاض كلَّ مخاطر التعرُّض للقتل أن يجلس ويتفاخر بشأن «ظلال الجدارة» في جريمةٍ واحدة، بل ويتبجَّح بأن جرائم أخرى هي «أسمى الجرائم التي ارتُكِبَت وأكثرها اكتمالًا في براعتها البالغة»، هذا ما عجز عقله عن استيعابه من شدة فظاعته. لكن ما هو أكثرُ رعبًا هو ضحكات السيد كروتشر الجوفاء وذلك البريق الماكر في عينيه المضطربتين بينما انتفض جسده بين الشراشف.

طلب كروتشر الكتابَ من الطبيب، عندما عزم الأخير على المغادرة؛ وأدرك الطبيب، آنذاك، أن كروتشر كان غارقًا في العَرق الذي لم يبذل أدنى جهد لإخفائه.

طمأن كروتشر الطبيب وهو يرتعد بشكلٍ علني: «لم تكن كل هذه الجرائم مضحكة. استوقفتني الجريمة التي تقف فيها خادمةٌ أمام الباب، وعلى الجانب الآخرِ القاتلُ الذي قتل العائلة الكبيرة عن بكرةِ أبيها. يا إلهي! حبست أنفاسي عند هذه النقطة، فتصبب جسدي عرقًا.»

سأل الطبيب: «في أي جانب كنت؟»

هتف كروتشر: «ماذا تقصد؟»

أجاب الطبيب: «أقصد كيف تخيَّلت الأمر في عقلك أيها الرجل الطيب!»

نادرًا ما كان السيد كروتشر يجِدُ أن من الأسهل قولَ الحقيقة، فاستغل الفرصة التي لاحت له كما يجب.

قال: «شعرت أنني مكان الفتاة. ولن أستغرب إن حلَمتُ الليلة أنني كنت مكانها!»

قال دولار بحماسة استثنائية: «آه! دائمًا أتخيَّل نفسي داخل الغرفة. لو أنني مكان الفتاة لحظيت بفرصةٍ أكبرَ. فقد كان الشارع المكشوف خلفها ومصابيح الشارع؛ أما هو فكان أمامه ما اقترفته يده في الظلام، ولم يكن لديه مهرب. هي، أيضًا، تمكَّنت من الهرب، بينما اضطُر هو إلى قتلِ نفسه. لكن لو كانت لي حرية الاختيار لفضَّلت أن أكون الضحية؛ إذ لا يعلم ما سيحدث تاليًا؛ وهذا أقلُّ سوءًا آلاف المرات من «الشيء الآخر» عندما يأتي. أنا آسف يا كروتشر! ليتك لم تطلُب أن أترك الكتاب لك؛ لكن لا مثيل للنظر إلى الأمر من كل الجوانب، ولعلك تجد بعضَ العزاء إذا عرفت أنك تصببت عرقًا بسبب أفضل وصفٍ كُتب لجريمة على الإطلاق.»

لكن لم تكن هذه آخرَ محادثاتهما السوداوية؛ إذ لم تكن تنقضي خمس دقائق كاملة قبل أن يظهر ذلك الموضوع المذموم، غالبًا عبْر تلميحٍ متردد لكنه لا يُقاوم في الوقت نفسه، من جانب المريض. وربما كان الطبيب يدخل وهو يفيض بالمرح المتكلف؛ وكان ثمَّة شيءٌ ما بشأنه يجعل العينين الجاحظتين تدوران في مَحجِريهما بمكرٍ مضطرب، واللسان المعتاد على لهجة الكوكني يهتز في لحنه المنفرد، كأنه في حالة احتجاج على الجبين الغارق في العَرق.

في مناسبة واحدة كان دولار المذنب الرئيسي. حدَث هذا في اليوم التالي لتعرُّف كروتشر على دي كوينسي، وأول ليلة سيئة يُمكن أن يقضيَها أحدٌ في غرفة السلام. أعلن كروتشر أن عينيه لم تغفيا لحظةً، فأشار عليه الطبيب بالنهوض من الفراش والخروج للتنزُّه.

سأل كروتشر بصوتٍ خفيض: «بمفردي؟»

ردَّ: «ولمَ لا؟ هذا ليس سِجنًا، كما أنني لم أسمعك تسعُل مطلقًا. لم يحِن وقت وفاتك بعْدُ يا كروتشر!»

قال كروتشر منتفضًا في وجَل: «آمُل ألا يحدثَ هذا لأحد ولا سيما هنا. أشعر أن استنشاق الهواء العليل في يومٍ معتدل الطقس مثل هذا «ربما» يبعث البهجةَ في قلبي.» ودارت عيناه في مَحجِريهما في تردُّد، وتحشرجَ صوته. تابع: «لكن ليس ممتعًا أن يتجول المرء بمفرده.»

سأل الطبيب: «هل لديك أيُّ أصدقاء يمكنك زيارتهم؟»

هتف كروتشر بنبرةٍ قاطعة جعلته يتوقَّف في مكانه: «لا! لكن يمكنني ... يمكنني كتابة خطاب ... إن كنت لا تمانع أن تعيرني ورقًا يحمل عنوان المنزل.»

كان الخطاب الذي كتبه ألفريد كروتشر قصيرًا جدًّا، غير أن المظروف كان سميكًا سُمكًا ملحوظًا، فحمَله بنفسه إلى صندوق البريد بعدما تلفَّت يمنةً ويسرةً. وعند صندوق البريد، الذي لم يكن يبعُد ياردات كثيرة من المنزل، تردَّد مرةً أخرى حزينًا، قبل أن يدفع بالمظروف إلى داخل الصندوق.

بعد الظهيرة، صحِبه دولار في سيارته إلى الخارج، ولأول مرة لم يأتِ السيد كروتشر على ذكرِ ذلك الموضوع السام.

قال دولار: «أترى ذلك المنزل؟» وأشار إلى منزلٍ في غاية التواضع، في أطرافِ طريق بارك لين. أضاف: «لقد حدثت «هناك» جريمةٌ كبرى ذات مرةٍ. ذبح وصيف سويسري سيدَه، واصطنع أدلةً توحي بأن الحادثة من فِعل لصوص منازل، وبلغت به الجرأة أن دخل غرفةَ الرجل الميت ليوقظه في صباح اليوم التالي.»

قال السيد كروتشر في قمة الاشمئزاز: «لئيم وضيع، أليس كذلك؟»

ردَّ تلميذ دي كوينسي: «وأيضًا فنان بارع جدًّا. لم تكن تلك لمستَه البارعة الوحيدة. فقد فصل رأس السيد المحترم المسن عن جسمه، دون أن تلطخ بقعةُ دمٍ واحدةٌ ملابسه. كيف نجح في ذلك في اعتقادك؟ إنها عملية فوضوية يا كروتشر؛ لو كنت أنا أو أنتَ مكانه لتناثرت الدماء في كل مكان!»

كرَّر كروتشر السؤالَ بصوت مبحوح مرتجف: «كيف نجح في ذلك؟»

أجاب دولار: «بأن خلع كل ملابسه قبل تنفيذ خُدعته. ما رأيك في هذه المعلومة؟»

لم يُجِبه كروتشر. وراح يجزُّ على أسنانه بشدة كأنه يعاني ألمًا مبرِّحًا في جسده. كادا أن يصبحا خارجَ المدينة، وأخذ دولار يتحدَّث عن ألوان فصل الخريف وبرودة الجو قبل أن يقاطعه كروتشر فجأةً ويستعلم منه بشأن مصير «اللئيم الوضيع».

سأل دولار: «هل أنت بحاجة لأن تسأل عن مصيره؟ اغترَّ هذا الشرير المسكين بذكائه واقترف خطأً فادحًا مقابل كل عمل عبقري أقدَم عليه. قُبِض عليه ومَثُل أمام المحكمة وأُدين، وهَلُمَّ جرًّا! كما أن كاتبًا أعظم من ذلك الذي سلب النوم من عينيك الليلةَ الماضية كتب أفضل وصف لـ «وهَلُمَّ جرًّا» تلك ولم يضاهِه أحدٌ في ذلك. لكن لا تطلب استعارةَ ذلك الكتاب!»

قال ألفريد كروتشر بعد أن قطعا مسافةً طويلة خارج المدينة: «يبدو أنهما دائمًا ما ينسون شيئًا ما.»

وافقه طبيب الجريمة: «أول شيء هو أن أفضل جرائم القتل يجب ألا تبدو جرائمَ قتل. بل يجب أن تبدوَ كالحوادث أو حالات الانتحار على الأكثر. لكن هذا يتطلب ما هو أمثال موستن سكارث للتعمق إلى هذا الحد.»

هتف كروتشر غاضبًا لمجرد ذكرِ الاسم: «ما الذي دفعك إلى التفكير فيه بحق الجحيم؟»

أجاب الطبيب: «في الواقع، لأسبابٍ عدة، من بينها أنه رآنا للتو في السيارة. أتقصد أنكَ لم تلحظ اللحيةَ المزيفة للسيد الذي انشغل بالتقاط مظلته من الأرض ونحن ننعطف إلى شارع ويجمور؟»

٣

لم يتجرأ ألفريد كروتشر مجددًا على مغادرة المنزل بمفرده، ولو لمجرد الذهاب إلى صندوق البريد؛ ولم يرسل خطابًا آخرَ على الرغم من تلقيه واحدًا، ملفوفًا حول حجرٍ، فور أن فتح نافذته، وقرأه بإمعان شديد. لقد خرج من المنزل، ولكن فقط بصحبة طبيب الجريمة في سيارته، مدة ساعة أو ساعتين في فترةٍ ما بعد الظهيرة.

كانا أكثر من مرة يترجلان عند حديقة ريتشموند بارك، ويبعثان بالسيارة إلى إحدى البوابات الأخرى في الطرَف المقابل، ويتبعانها هرولةً، جنبًا إلى جنب، وفي كثير من الأحيان كان كروتشر يختلس النظر إلى الوراء، أما دولار فلم يفعل ذلك ولو مرةً واحدة. وفي بعض الأحيان كانت تتخلَّل هذا النشاط فترة استراحة إلى أن ينتهيَ كروتشر من تدخين غليون في إحدى المناطق المُسيَّجة الخشبية الجميلة التي تُظهِر البهاءَ الداخلي للحديقة التي تُعتبر أروعَ الحدائق العامة. هناك، تحت الغطاء الأحمر من الأوراق المحتضرة، وحيث تستقر أقدامهما على بساط خمري من الأوراق الميتة، كان من شأن المُدخن أن يسترخي في صمت متململ؛ لأن الموضوع الذي كان يُطلِق لسانَه بفصاحة قد صار محظورًا. حتى في غرفة السلام، لم ينعم ألفريد كروتشر براحة البال، باستثناء سويعات من النوم، مع أن الطبيب كان يأخذه معه في نزهاتٍ يسيران فيها مسافات طويلة حتى تكلَّ قدماه ويجلس بجواره حتى الساعات الأولى من الصباح. وهكذا كانت طريقة العلاج من خلال الكتب الأدبية والمحادثات قد تغيَّرت للأبد؛ وصار المريض لا يقرأ ولا يتكلم إلا النَّذر اليسير.

ذات مرة، في ساعةٍ متأخرة من الليل، في النصف الأخير من الشهر، جلس طبيبُ الجريمة كتمثال من الشمع في مقعدٍ لم يكن يصدر صريرًا قَط، بعدما كان قد تأكَّد للتو من نوم مريضه أخيرًا. وقرَّر أن ينسل خارجًا من الغرفة ويكتب بعضَ الخطابات ويضعها في صندوق البريد بنفسه قبل أن توصَد أبواب المنزل؛ وأوشك أن يسيرَ بخفةِ قِطٍّ، عندما أُثيرت حواسه، فتأهَّب في مكانه. لم يكن ذلك بسبب صوت لا سيما أنه كان في غرفة منعزلة مانعة للصوت، ذات نوافذ مزدوجة وأبواب ثلاثية الألواح. لكن فجأة شعر بالتوتر، فأنصت بأعصاب منهكة من فترات السهر الإجبارية في تلك الغرفةِ الباعثة على النوم، وقد بدت بشرته مسمرَّة مثل العرب بسبب إضاءة الغرفة الغريبة؛ وتغيَّر لون البقعة الفضية في شعره إلى اللون النحاسي، وتحوَّل بياض عينيه إلى حلقات ذهبية عريضة؛ وتعاظم الحوَل فيهما بسبب شعوره المفرط بالإنهاك؛ إذ كان همُّه الوحيد أن يسترد ذلك الإنسانُ المحطَّم المستلقي على الفراش — المنهَك تمامًا بسببه — عافيتَه، لكن ليس وسط فوضَى صاخبة. وها هو ذا الباب الداخلي الأخير يُفتح، بهدوء بالغ وبطء شديد، في جوف الليل!

دخلت امرأة، مثل الشبح، وتعرَّف عليها من خطواتها، وإن لم يسمعها بأذنيه. عرَفَ أن صاحبة العباءة وغطاء الرأس — الشبيهين بملابس ممرضة متدربة — هي الليدي فيرا مويل على الرغم أنه لم يميزها بعينيه.

«هشش!» همست قبل أن يتكلم، وبهدوء شديد أغلقت البابَ الداخلي الأخير الذي كان سيعاجِل الطبيب بإعادتها إلى الخارج من خلاله بسرعة. أصابته حركاتها الصامتة وحذرُها الزائد بالحيرة أكثرَ من مجرد حضورها أو ردائها التنكري؛ لكن كان لديه ما يشغل باله على هذا الجانب من الباب.

همس، وهو يشير إلى الفراش: «لقد نام للتو. جعلت الوغد المسكين يمرُّ بوقت عصيب، لكن سيتحسَّن قريبًا، على ما أعتقد. هل أتيتِ للاطمئنان على حاله؟» حتى في إضاءة الغرفة الملونة، بدت مشرقةً جدًّا وعلى وجهها دلائلُ انتصار واضحة، تأكَّد من صحتها. وتابع: «كنت سأكتب لكِ رسالة، لكني ظننت أنكِ خارج المدينة. من فتح لك الباب؟»

أجابت: «هذا!»

ورفعت أمامه مفتاحًا جديدًا من نوع يِيل.

سأل: «من أين حصلتِ عليه؟»

ردَّت: «صُنع خصوصًا من أجلي.» تحوَّل التعبير على وجه الرجل المحمر إلى حَيرة تامة. أضافت: «لدى موستن سكارث مفتاحٌ آخر، صُنع من أجله! فقد عينتُ أشخاصًا لمراقبته.»

هتف: «فيرا!»

قالت: «كنت أراقبه، من إحدى دُور الرعاية المقابلة لمنزله، من خلال صديقاتي المناضلات.»

سأل: «لماذا لم تخبريني بذلك؟»

أجابت: «كان لديك ما يكفيك لتفعله.»

هزَّ رأسه. وقال: «وماذا بعد؟»

قالت: «إنه في مكانٍ ما في المنزل.»

سأل: «هذا المنزل؟»

«لماذا لم تخبريني؟»

أومأت برأسها. وأجابت: «إنه يختبئ في غرفتك حسبما أظن.»

هتف: «سأعجِّل بخروجه منها!»

قالت: «انتظر!» صوَّبت عينيها ناحيةَ الفراش الأصفر اللون في نهاية المطاف. وسألت: «هل أنت متأكد من أنه نائم؟»

مشى دولار بخفةٍ إلى الفراش قبل أن يعود مرة أخرى. كان الرجل الضخم يتنفس بهدوء وانتظام كطفل صغير. قال: «لكن نومه خفيف جدًّا؛ لذا يجب ألا نزعجه، إن استطعنا.»

تشبَّثت بيده لأول مرة قائلة: «نزعجه! ليتني لم أحضِره إليك مطلقًا! إنهما يدبِّران أمرًا أيها الطبيب، أنا واثقة من ذلك!»

قال الطبيب مبتسمًا: «كانا يدبِّران أمرًا بالتأكيد»، لكنه جفَل فور أن قال «بالتأكيد». أكمل بنبرة مطمئنة: «أنا سعيد لأنكِ جلبتِ كروتشر إلى منزلي. فقد استنطقته وعرفت جزءًا من المكيدة، لنذهب الآن إلى السيد سكارث!»

سبقَها إلى الباب ليفتحه. ووضعت هي شيئًا في يده في لمح البصر. نظر الطبيب ليجدها أعطته مسدسًا، بدا صغيرًا مُبهرجًا في ضوء الغرفة بمقبضه اللؤلؤي وماسورته الذهبية.

قال بسرعة: «شكرًا لكِ»، لكن لاحت في عينيه نظرةٌ لم ترَها من قبل. قال: «هلَّا تُسدِين إليَّ خدمة أخرى؟»

ردَّت بحزم: «لا!» وكانت بجواره وهو يفتح باب غرفته القابع في الطرف المقابل من بسطة الدَّرج.

كانت غرفة دولار صغيرة بسيطة الأثاث؛ لذا في الواقع لم يكن احتمال وجود خطر من جانب المتطفل المختبئ كبيرًا. كان المخبأ الوحيد الذي يستطيع المتطفل اللجوء إليه هو تحت الفراش، أو خلف الستائر، أو داخل خزانة الملابس. ببساطة تحقَّق دولار بإلقاء نظرة سريعة تحت الفراش، بينما ضرب بالمِحراك في يده اليسرى؛ وبواسطة هذا المِحراك فتح الستائر، وفي اللحظة ذاتها وجد الرجلَ المنشود متواريًا على بُعد ذراع.

هتفت الفتاة: «أحسنت!»

ردَّ عليها سكارث بنظرة محتقرة عكست إدراكه لِما يحدث؛ في أول تغيير يُبديه وجهه الداكن القاسي الخالي من المشاعر. في ساحات معارك البلقان، ربما كان هناك الكثير من أشباه سكارث، وإن لم يشاركوه تفرُّده الفكري لكنهم كانوا يشبهونه في ازدرائهم الشديد للمعارك والقتل والموت المباغت لأنها أمورٌ هينة لا ضير منها سواء نزلت بالطرَف الفعَّال أم السلبي. يندُر وجود هذا الطبع في أوساط الإنجليز المتعلمين، خاصةً إذا أضفنا إليه ميزةَ التفرُّد العقلي؛ فمن هذا المزيج انبثق الشرير المولود في الجحيم، ونضج حتى صار موستن سكارث الحالي.

في حرجٍ هادئ رأى سكارث مخرجَه دون أن يبديَ أي شيء سوى التماع عينيه المتغطرستين، واستغله كأنه لم يتوقع حدوثَ أي شيء آخر.

قال: «أمسكت بكما يا صديقَيَّ العفيفَين! ما بالكما تتبجَّحان وتصوبان المسدس نحو صدري كأنني جئت إلى هنا لهدفٍ إجرامي!»

ردَّ طبيب الجريمة: «لن أفرغه في صدرك، يا سكارث، مهما حاولت إغرائي. ما رأيك في أن تعقد يديك خلف رأسك وتنزل أمامي إلى الطابق الأرضي؟»

قال موستن سكارث: «لن أفعل، ولتحلَّ عليك اللعنة.»

قال دولار: «ممتاز! لا يهمني إن كنت ستمتثل أم لا، لكنك قد تجد صعوبةً أكبرَ في أن تُخرج إحدى يديك من جيبَي سروالك؛ إذ في اللحظة التي تُخرج فيها إصبعًا واحدًا، ستصبح مشلولًا طوال حياتك. أظن أنك أيضًا قد تحب سماعَ ما سنقوله للشرطة.»

ردَّ سكارث بحَنَقٍ أشدَّ في عينيه، أكَّد قولَه: «لا أبالي مقدارَ ذرة بما ستقوله للشرطة.»

هتف الطبيب: «ممتاز مرة أخرى! ليدي فيرا، هلَّا تذهبين إلى الطابق السفلي وتتصلين بسكوتلاند يارد؟ وفي طريقك إلى هناك، رجاءً تأكَّدي من أن الأبواب الثلاثة للغرفة المقابلة مُوصدة؛ بعد ذلك، ربما ... لا! يُستحسن أن يبقى هذا الباب مفتوحًا على أي حال.» كانت الثواني الثلاث كافية لغلق الأبواب الثلاثية خلفهما، واحدًا تلو الآخر، وبسرعات متفاوتة.

قال سكارث: «كنت سأفعل هذا لو كنتُ مكانك. وكنت سأفكِّر كثيرًا قبل أن أنفِّذ تعليماتك الأخرى، لو كنتُ مكان السيدة، محور إحدى القضايا الغامضة القليلة، التي لا تزال تحيِّر سكوتلاند يارد.»

ساد الغرفةَ صمتٌ، ولم يسمع دولار أيَّ صوت آخرَ باستثناء أنفاس حادة، من ناحية عتبة الغرفة خلفه مباشرة؛ ولم يكن بحاجة إلى شيء آخر.

قال: «أعتقد أنه يجب أن أقتلك، على أي حال»، وسحب زناد المسدس إلى آخره.

قال سكارث بلا مبالاة: «ألن يفسد هذا خطتك نوعًا ما؟»

ردَّ: «في اللحظة الحالية لا يوجد أيُّ أهمية لخطتي مقارنةً بالخطة التي وضعتَها أنت. فمع أنه بلغ بك الحُمْق أن صنعت مفتاحًا يلائم قُفل الباب الأمامي، إلا أنني أمسكت بكَ مختبئًا في غرفتي في منتصف الليل ...»

قال: «وأنت برُفقة سيدة المجتمع! أكمل، يا دولار. فلا شيء يخفِّف هذا العار، ولو استخدمت كل أوراقك الرابحة!»

كشف عن أسنانه كما فعل على خشبة المسرح في وينترواد قبل تسعة أشهر؛ وكان قد تخلَّى عن سمات شخصيته التمثيلية الشهيرة بلا وعيٍ منه، فلم يعُد يُقطِّع في كلامه أو يتحدَّث بروح حماسية كانت تستحوذ على قلوب الجماهير في الماضي؛ ولم يتأثَّر الرجل الواقع تحت رحمته الآن بطريقته الآسرة أدنى تأثير. ولو لم يضَع سكارث الليدي فيرا مويل تحت رحمته هو الآخر، ولو لم يكن جون دولار يعلم أنه قاسٍ بلا رحمة، لأُعجب بمحاولات ذلك المتهور الرزين في المماطلة.

واصل: «أتذكَّر الحفلةَ في وينترواد، أيها الطبيب، وحديثنا بعدها، وحديثنا الأخير هناك؟ لقد ظنَّ يا ليدي فيرا أنني حاولت قتل الشاب مرتين ... أنني حاولت النَّيلَ مرتين من الشاب الأحمق العديم الخبرة! ألا يجدُر بي إنهاءُ أمرِه بضربة حاسمة؟ ليس مسلِّيًا كثيرًا للأرملة أو الشقي البريء المسكين الذي كاد يُعاقب بسببِ جريمة لم يقترفْها، لكنه عملٌ عظيم لو أقدمَت عليه النساء الكادحات المُسلحات وقائدتهن الليدي فيرا! أنتِ في أمانٍ حتى تظهَر الحقيقة على الملأ، وهذا ما سيحدث فور أن تطأ قدم شرطي واحد هذا المنزل!»

كانت الليدي فيرا هي من جعلت الطبيب يستمع إليه. إذ كانت قد تقدَّمت ناحيةَ دولار، وأمسكت بذراعه، بل وضعت يدها الأخرى أمام فوَّهة مسدسها.

قالت في منتصف خطاب سكارث: «دعْه يُكمل كلامه؛ ربما نعلم ماذا لديه بشأننا.» ثم سألته عن عرْضه كأنها تستفسر عن سعرِ رداءٍ بودٍّ مضاعَف من باب التنازل مع شخصٍ أدنى مرتبة.

أجاب: «لقد قدَّمت لكِ عرْضي. وليس عرْضًا يمكن أن أكرره أمام طرف ثالث.»

قالت الليدي فيرا وهي تحاول حلَّ ذراعها من ذراع دولار؛ لكنه أحبط محاولتها وأحاط بها بيده اليسرى مثل الكماشة: «ربما أتصل بالشرطة.»

قال وهو يجزُّ على أسنانه: «لن تفعلي. الأمر محض خداع لا أكثر. فلا تملك الشرطة دليلًا.»

أجابت: «سأخبرهم بكلِّ ما أعرفه بكل سرور. لطالما ندِمت على أنني لم أقدِّم المعلومات التي أعرفها منذ البداية. لكن الظروف التي حالت دون ذلك لم تَعُد قائمة، ولن أسمح بإفلات شخص سيئ من قبضة العدالة مرة أخرى.»

لكنها لم توجِّه كلامَها هذا لموستن سكارث؛ إذ كان مستحيلًا أن تخاطب مثيلات فيرا مويل أسوأ شخص في العالم. كانت توجِّه كلامها هذا إلى مسامعِ دولار فحسب. لكن أمثال موستن سكارث مستمعون خبراء؛ فليس من الممكن أن يفلت مقطعٌ صوتي واحد من أذن القائد البارع لتلك الفئة السيئة؛ لذا ابتسم في بهجة للفراغ على مدِّ البصر الذي كشف عنه الباب المفتوح.

سأل: «أتعترفين إذن أنكِ وجَّهتِ الضربةَ التي أودت بحياة العريف الراحل المأسوف عليه سيمبكن؟»

لكن هذه المرة لم تكن سهام نظرات موستن سكارث الثاقبة الحادة مصوبة نحوهما. إذ تجاوزتهما نظرته الفرحة بسرعة إلى بسطة الدَّرج.

أجابت: «لم أنكر هذا الأمرَ قَط.»

هتف سكارث: «أتسمع يا كروتشر؟ هذا اعترافٌ كامل من الليدي فيرا مويل ... اعتراف خاص جدًّا.»

اقترب الاثنان بعضهما من بعض بينما استدار أحدهما صوب الباب؛ بالفعل كان ألفريد كروتشر واقفًا على عتبة الباب بجسده الضخم، في منظرٍ مهيب، مرتديًا رداءَ الحمَّام الأبيض الذي بدا عليه أفضل من ملابسه الفاقعة الألوان. بدا وجهه المعتل أقلَّ شحوبًا بقليل من لون ردائه الأبيض، باستثناء عينيه الحمراوين المحرومتين من النوم، اللتين ركَّزتا على موستن سكارث، الذي كان لا يزال يحظى بتركيز طبيب الجريمة الكامل.

سأل كروتشر بصوتٍ مبحوح: «كيف دخلت إلى هنا بحق الجحيم؟»

أجاب: «يسعدني أنكَ سألت هذا السؤال. لجأ صديقانا العفيفان على الفور إلى افتراضِ أنني جئت لارتكاب جناية، حتى إنه لم يخطر ببالهما على الإطلاق أنني دخلت من الباب، من ناحية لكي أراك، والسبب الرئيسي أنني أردتُ مفاجأتهما.» ابتسمت الليدي فيرا رغمًا عنها من قوله بأنه لم يخطر ببالها على الإطلاق؛ ولم يترك أيُّ شيء آخرُ مما قاله أثرًا عليها، لكن كان له وقعه على جون دولار، الذي كان سكارث يصوِّب إليه الآن ابتسامته الكاشفة عن أسنانه. تابع: «أسوأ ما في أقفال يِيل، أيها الطبيب، أن جميعَ المفاتيح مُرقَّمة؛ وأسوأ ما في الحمَّام التركي أنه يمكن أن يشاركك فيه عدوُّك، ويتفقد إن كنت ستترك مفتاحك في سلسلته في جيبك أم لا. قد تكون جادَّة نورثمبرلاند المكانَ الأمثل لينعَم فيها المرء ببعض الراحة بعد قضاء ليلة سيئة، لكن هناك وجدتُ سبيلًا إلى الدخول إلى منزلك. لم تَرَني لأنني كان لديَّ ذوق رديء جعلني أفضِّل غرفةَ الكهرباء بدلًا من الغرف الساخنة العامة ورفقتك المبجَّلة.»

تكلَّف سكارث هذه النبرةَ المتغطرسة لأجل كروتشر، وأسهب في نصِّه الأوبرالي للتأثير على عقله البسيط، ولجأ إليه لتلقي الاستحسان منه تحديدًا. ربما استدعى ذلك أن يكون أكثرَ إفصاحًا؛ إذ كانت ضحكةُ كروتشر المتحشرجة استجابة سطحية قسرية؛ ولم تكن نظرات عينيه الحمراوين الصغيرتين إلى الطبيب الصامت، الذي كانت تُوَجَّه إليه هذه الإهانات، توحي بسخرية صريحة، وإن لم تنطوِ على أي دلائلَ لاحترام ظاهر.

التقت عينا دولار للحظة بعينيه في نظرةٍ جانبية قصيرة؛ فلم تكن العينان الحمراوان تطيقان إطالةَ النظر إليه. وأطلق سكارث نظراته الغاضبة نحوه، لكن السيد كروتشر لم يرفع ناظريه مجددًا. وبين هذين الرجلين القويين، اللذين كان أحدهما يكيل الإهاناتِ بلسانه، والآخر يقذف سهام الأسئلة بعينيه، اكتفى كروتشر الضعيف بأن أخذ يتفحَّص مقدمةَ خُفِّ نومه. لكن سرَت رِعدة في يده اليمنى في أعماق جيب رداء الحمَّام الفضفاض. لم يلحظ أحدٌ ذلك، باستثناء موستن سكارث، الذي ملأه هذا بشعورِ بثقة بادية.

قال: «هيَّا، يا ألفريد، ارتدِ ثيابَك الاعتيادية، إن لم يكونوا قد أخذوها منك. وإن كانوا قد فعلوا، فانزل إلى الأسفل بما ترتديه في الوقت الحالي، واستدعِ سيارةَ أجرة. سأخرجك من هذه الحفرة. فأنت تبدو ميتًا لا حيًّا. هذا ما تصوَّرت أنه سيحدُث لك؛ وكان ذلك من أسباب قدومي إلى هنا.»

قال طبيب الجريمة: «سيُسدي كروتشر إليَّ خدمة أولًا. وبعدها يمكنه أن يفعل ما يحلو له.»

قال سكارث: «يؤسفني أنك لا تتمتَّع بإرادة حرة، يا ألفريد.»

سأل كروتشر: «ومن قال ذلك؟»

أجاب: «الطبيب دولار. ألم تسمعه؟»

قال: «لو كان يقصد ذلك، فهو ...»

قال الطبيب: «كروتشر! كروتشر! لا أريد منك إلا أن تناولني علبةَ شفرات الحلاقة من طاولة الزينة. في الحقيقة لستَ بحاجة إلى فعلِ كلِّ ذلك؛ فقط سَلِّح نفسَك بالسلاح الذي ستجِده فيها. حينها ستكون أكثرَ من ندٍّ لي. وستلاحظ أن السيد سكارث لن يثير أيَّ اعتراضات أخرى.»

ما لاحظه كروتشر، عندما رفع عينيه الحمراوين أخيرًا، أن موستن سكارث كان قد فقدَ فجأةً بعضًا من اسمراره المشرق المعتاد؛ ومع ذلك لم يتحرك كروتشر قيد أنملة.

ثم، دون أن تنبِس ببنت شفة، تركت الليدي فيرا جانبَ الطبيب، وحملت عُلبة شفرات الحلاقة بين يديها وفتحتها على مصراعيها لتجدها فارغة.

سأل جون دولار: «من منكما استعارَ شفرة حلاقتي؟»

هتف كروتشر مذعورًا: «لست أنا!» لكن يده اليمنى كانت لا تزال في أعماق جيبه، الأمر الذي لاحظه موستن سكارث وحدَه؛ لذا استعاد بعضًا من ذلك الإشراق في بشرته الداكنة.

سأل دولار: «لست أنت، يا كروتشر؟»

أجاب: «لا، لست أنا، أقسم لك.»

قال: «ومع ذلك أعتقد أن مهمتك الأصلية في هذا المنزل كانت الحصول على شفرة الحلاقة تلك واستخدامها، أليس كذلك؟»

لم ينهِ دولار الجملةَ إلا بعد أن بحث عن يد الليدي فيرا الصغيرة بيده اليسرى؛ وعانقت يدُها يدَه في منتصف الطريق وبادرت ببث الطمأنينة في قلبه بأن اعتصرت يده.

سأل دولار: «أعتقد أنه كان من المفترض أن تُجهِز عليَّ بها، وتتركها في يدي لتُظهِر أنني انتحرت، أليس كذلك؟»

عندئذٍ، خضع كروتشر تحت وطأة نظرة دولار الجانبية، التي قصدت تدميرَ إرادته بثباتها، وتفوَّه بذلك التصريح المرعب.

قال بصوت مبحوح: «أنْ أرشدَ يدك إلى الطريق!»

قال دولار: «أن ترشد يدي! بالضبط! لكنها لم تكن فكرتك في الأصل، أم إنها كانت كذلك؟»

أجاب: «لا. كانت ...»

لكنَّ عينيه التقتا بعينَي موستن سكارث، فأطرق برأسه من جديد.

كرَّر دولار: «بالضبط. لكنك لم تشأ أن تفعلها؛ لذا اضطُر سيدك في نهاية المطاف إلى التدخُّل كي يفعلها نيابةً عنك، أليس كذلك؟»

أجاب: «لم يعُد سيدي، اللعنة عليه!»

هتف دولار: «اهدأ يا كروتشر. هلَّا تخبرني بما تحمِله في يدك اليمنى؟»

كان خطابًا. في نهاية المطاف لم يُخرج سوى خطابٍ من ذلك الجيب العميق! بدا الذهول في عينَي سكارث، ووجدت الكلمات سبيلها إلى لسانه مرةً أخرى.

قال: «أعطني ... هذا ... يا كروتشر!»

تردَّد كروتشر عندما سمع صوته؛ كان ينطوي على تهديدٍ سافر، وبدت كلُّ كلمة من كلماته الحادة كشوكةٍ مسمومة.

سأل: «وماذا سيحدُث إن لم أفعل؟»

أجاب: «أنتَ تعرف بلا شك!»

قال طبيب الجريمة: «اللعبة تحتدم»؛ ولم يدرك أن يدَه اليسرى أفلتت اليد التي تغنيه عمَّا عداها.

هتف سكارث لكروتشر الذي ولَّاه ظهرَه العريض: «إن تركته يقرأ الخطاب، فستكون نهايتك!»

استهل كروتشر كلامَه، قائلًا: «أيمكن أن يُحاكم المرءُ مرتين على الأمر نفسه، أيها الطبيب؟» لكنه لم يتوقَّف لالتقاط أنفاسه وأضاف يائسًا: «لا أبالي إن كان ذلك ممكنًا أم لا! اقرأ الخطاب على أي حال!»

كان الخطاب موضوعًا في ظرفٍ، وموجَّهًا «إلى مُحقق الوفيات»، بخطٍّ هو تزييف رائع لخط دولار؛ لكن الخطاب نفسه، المكتوب على ورق الرسائل الخاص به، فاق تزويرَ الخط المكتوب على المظروف في إتقانه، وفيه يودِّع طبيبُ الجريمة العالَم قبل أن يُحبِط ما أنجزه في حياته بإقدامه على قتلِ نفسه.

قال دولار في إيماءةٍ للرجل المهتاج الواقف بين الستائر: «تلك أفضلُ من أيٍّ من محاولاتك الأخرى في سويسرا.»

هتف كروتشر: «لكنها ليست أفضلَ ما أنجزه»، وتوقَّف بينما درات عيناه في مَحجِريهما قبل أن يستكملَ حديثه بشماتة. قال: «أفضلُ محاولات هذا الوغد كانت

بالضغط على شخصين في مسألةٍ واحدة — المذنب والبريء — المرأة لأنها ظنَّت أنها لا بد أن تكون هي من ارتكبت الجريمة، والرجل لأنه كان يعرف طوال الوقت أنه من ارتكبها!»

قال سكارث برضًا متَّسم بالتهكم: «في قولك هذا نهايتك.»

قال طبيب الجريمة بنبرةٍ غريبة على أسماعهم: «بل فيه البداية لنا جميعًا! هل ... هل تقصد بالرجل والمرأة أنت وهذه السيدة؟»

هزَّت تلك السيدة رأسَها وابتسمت.

قال ألفريد كروتشر، مؤكِّدًا: «أجل، ولو كان هذا يعني أن يضعوا حبلَ المشنقة حول رقبتي غدًا!» أضاف وهو يطأطئ برأسه المدبَّب للأمام: «أخبرته بالأمر في ليلةٍ كنتُ فيها مخمورًا؛ في البداية بدأ يضغط على المرأة لتقبلَ الزواج به، ثم ضغط عليَّ كي أتخلصَ منك قبل أن تُحْبِطَ مخططاته! إنه مجنون، صدِّقني، كان يتلاعب بنا ويستغل نقاط ضعفنا!»

امتُقع وجهُ الليدي فيرا بشدة؛ إذ كانت لا تزال عاجزةً عن تصديقِ ما سمعته أذناها، وحدَّقت في الفراغ كأنها تعاني مشكلةً في عينيها الواسعتين الزرقاوين الرائعتين.

لكن الطبيب مارس مهنتَه حتى آخرِ لحظة. وامتدَّت يده اليسرى لمريضه أولًا.

قال: «ستنام الليلة! سأعطيك يدي الأخرى متى تصبح فارغة»، إذ كان لا يزال مواجهًا للرجل الذي كان يضع يديه في جيبه، والستائر تحيط به من كلا الجانبين، والنافذة الخلفية وراء ظهره.

ثم وقع حدثان متتاليان بسرعة؛ لكن الأول أعاد العاشقَ إلى الواقع بصوتِ ارتجاج، فلم يلحظ الحدثَ الثاني.

قال كروتشر: «أخشى أنني سأجعل من نفسي أضحوكة»؛ إذ كان كلُّ ما أحبَّه على وجهِ الأرض ينهار عند قدميه. كان الطبيب جاثيًا على ركبتيه بجوار الفتاة، ويحتضنها بين ذراعيه. أما السيد كروتشر فلم يلحظ هو نفسه انغلاقَ الستائر، أو يسمع أيَّ شيء مما حدث خلفهم؛ إذ كان هو الآخر جالسًا على ركبتيه، ممسكًا بإسفنجة يتقاطر منها الماء، يغمغم بكلماتٍ أسرعَ من القطرات التي تنهمر على الأرض.

قال: «هذا صحيح! لقد فعلتُها ... أنا من قتلت الشرطي وسط الضباب! أفقدته هي توازنَه وجعلته يترنَّح، بين يدي، وتوليتُ أنا بقيةَ الأمر. لم أتعمَّد قتله قَط، لا تُسِئ فهْمي، لكن ذلك لا يهم في شيء الآن. كنتُ على استعداد للذهاب إلى حبل المشنقة في الماضي، ولا أبالي إن ذهبت إليه الآن! لقد أنْقَذَتني، هذه الفتاة المغمَى عليها، وانظر كيف جازيتها على صنيعها! ... يا إلهي، كم كنتُ لئيمًا وضيعًا، أيها الطبيب!»

لكن طبيب الجريمة لم يكن متفرغًا للإنصات إليه؛ إذ فتحت محبوبته عينيها التي تغنيه عن العالَم بأسرِه، ورفعت ناظريها إليه بنظرةٍ طويلة؛ ولم ينتبِه أيٌّ منهم إلى صوت النافذة وهي تُفتَح خلف الستائر، ولا الارتطام المُجَلْجِل لقدمٍ على الدَّرَجِ الحديدي بالأسفل.

هنـــداوي